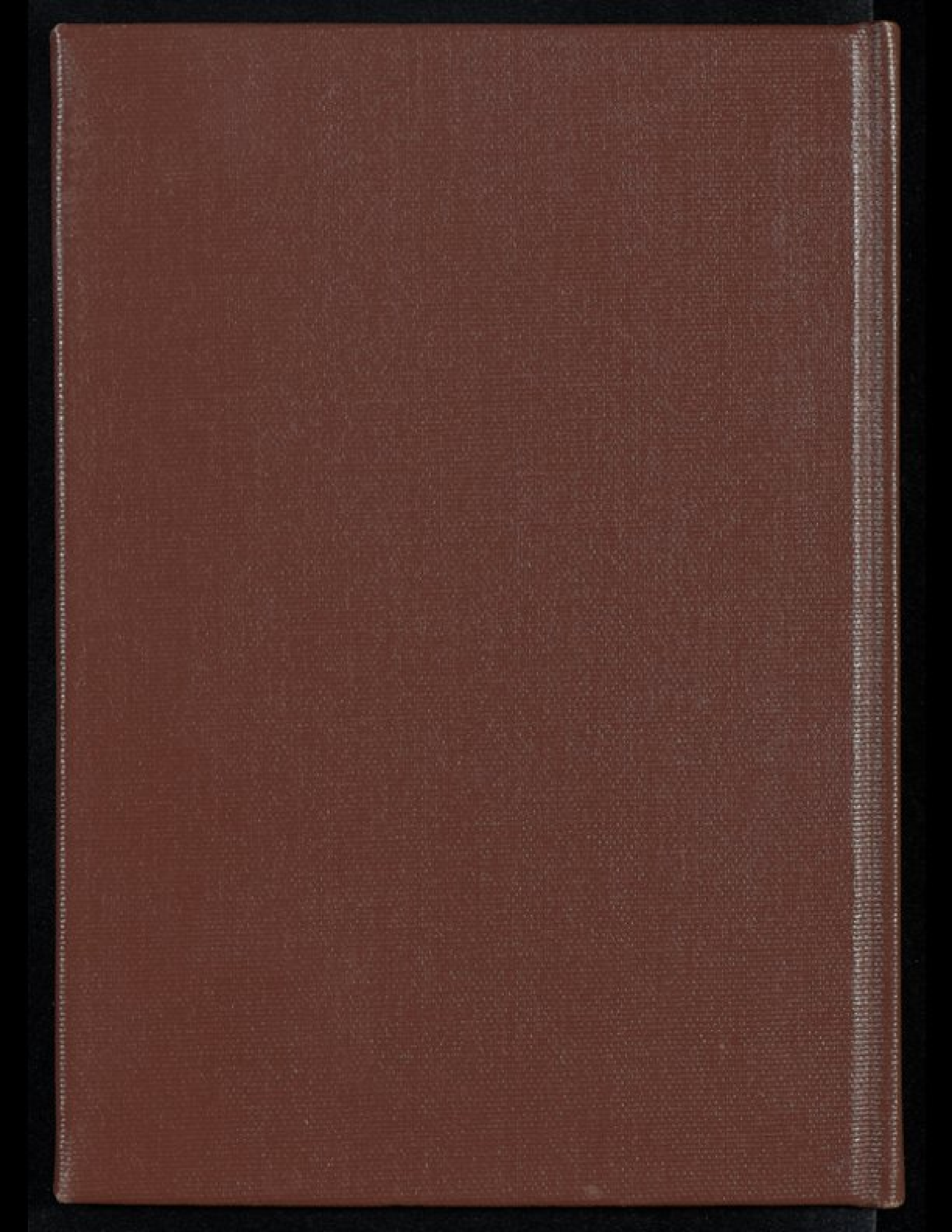
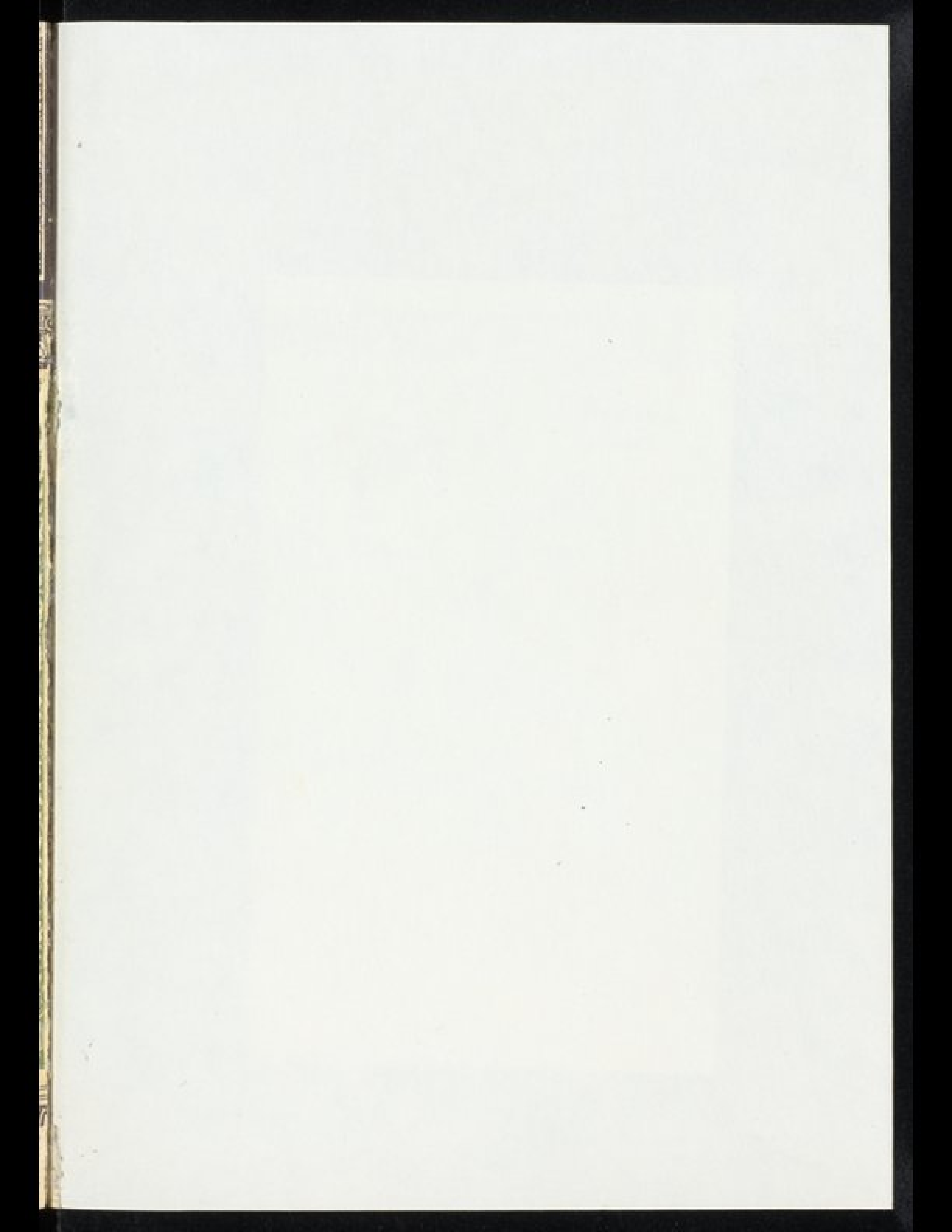



CORNELL UNIVERSITY LIBRARIES
JOHN M.
OLIN
LIBRARY
ITHACA, N.Y.



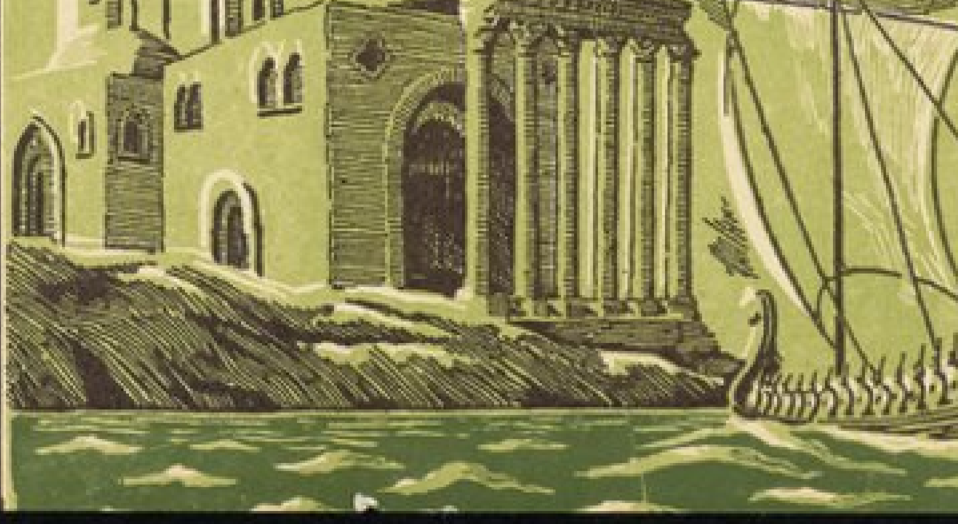
المصوّر في تاريخ لبنان

٨

وفقاً لمنهج التعليم الرسمي الأخير في الجمهورية اللبنانية

تأليف
جماعة من الاساتذة

نشر
دار العلم للملايين









المصوّر

في تاريخ لبنان

وفقاً لمنهج التعليم الرسمي الأخير
في الجمهورية اللبنانية

تأليف

شفيق جحا   بهيج عثمان   منير البعلبكي

الجزء الثامن

للسنة الرابعة الثانوية

دار العلم للملايين
بيروت



الطبعة الاولى ١٩٥١

الطبعة الثانية ١٩٥٤

مقرر التاريخ حسب المنهاج الرسمي

السنة الرابعة الثانوية

●

نظرة عامة في تاريخ الدول الاوروبية في القرن الثامن عشر (روسيا – النمسا – بروسيا – فرنسا – انكلترا – اسبانيا)

« الفلاسفة ».

تحرير الولايات المتحدة ونتائجه .

الثورة الفرنسية : اسبابها – طرقها * – نتائجها.

منشآت بونابرت .

تطاحن الدول الاوروبية (نابليون).

التطور الصناعي وتأثيره الاجتماعي .

الوحدة الايطالية .

الوحدة الالمانية .

الحرب الكبرى .

لبنان

الشهابيون في القرن الثامن عشر .

١ – القضاء على اليمنيين (عين دارا).

* أغلب الظن ان هنا خطأ مطبعياً ، صوابه « ظروفها » .

٢ – تنظيم لبنان (الامير حيدر) اليزبكية والجنبلاطية

٣ – السياسة الداخلية .

الامير بشير الثاني

١ – علاقات بشير مع الجزار .

٢ – بشير واخصامه من الشهابيين والاقطاعيين .

٣ – عهد الازدهار . بيت الدين .

بشير والبلدان المجاورة .

٤ – محالفة المصريين : اسبابها وظروفها ونتائجها .

القائمقاميتان : عصر انتقالٍ وقلائل .

المتصرفية : نظامها .

بروتوكول ١٨٦٤ ونتائجه .

النهضة الادبية .

الهجرة .

لبنان والحرب الكبرى .

الانتداب .

الاستقلال . مقدماته .

ظروفه ونتائجه .

القسم الاول

•

التاريخ العالمي

١ . الروسيا
في القرن الثامن عشر

•

عندما اطل القرن الثامن عشر كانت انكلترة وفرنسا أكثر الدول الأوروبية قوةً وأوفرها غنىً . ولكن ظهر في خلال هذا القرن بعض الدول القوية التي كُتبَ لها ان تمثل دوراً مهما في التاريخ الحديث. وهذه الدول هي الروسيا ، والنمسا ، وبروسية ، والولايات المتحدة الاميركية .

وسنتحدث عن تاريخ كلٍ منها في القرن الثامن عشر مبتدئين بدولة الروسيا .

١ ــ بعد بطرس الاكبر

ان تاريخ الروسيا في القرن الثامن عشر هو في الواقع تاريخ الاعمال التي قام بها عاهلان عظيمان هما بطرس الاكبر وكاترين الثانية . وقد تحدثنا في الجزء السابق * من هذا الكتاب عن اصلاحات بطرس الاكبر واعماله في الحقلين الداخلي والخارجي . ورأينا كيف انها نهضت بالروسيا وجعلتها في مصاف الدول الاوروبية

* الجزء السابع الفصل السابع عشر

الكبرى .

وتوفي بطرس الاكبر في سنة ١٧٢٥ ، وارتقت العرش كاترين الثانية في سنة ١٧٦٢ وحكمت حتى وفاتها سنة ١٧٩٦ اما الفترة التي مرت بين عهدي هذين العاهلين ، وقدرها سبع وثلاثون سنة (١٧٢٥ — ١٧٦٢) ، فقد تقلب فيها على العرش عدد من القياصرة جلهم من النساء ، وكانت من اسوأ ادوار الحكم في تاريخ الروسيا لما ساد فيها من سوء الادارة والفوضى والرشوة والاستهتار بالمصلحة العامة . على ان الانصاف يقضي علينا بان نعترف لها بهذه الحسنة ، وهي ان القياصرة الذين حكموا فيها لم ينقضوا اصلاحات بطرس الأكبر او يتعرضوا لها بسوء بل ابقوها على حالها وحافظوا عليها .

٢ ـ عهد كاترين الثانية

(أ) شخصيتها

كانت كاترين الثانية اميرة المانية ، تزوجت ولي عهد الروسيا ، ثم ارتقت العرش بعد وفاة زوجها في سنة ١٧٦٢ . وكانت امرأة ذكية نشيطة واسعة المطامح كثيرة الاحلام لا ترهب الصعاب ولا يثنيها شيء عن عزمها .

(ب) سياستها

ادركت كاترين بثاقب نظرها ان السياسة التي رسمها سلفها بطرس الاكبر كفيلة ، اذا ما تحققت ، بان ترفع الروسيا الى مقام الدول الكبرى . وكانت تلك السياسة تنقسم الى شقين :

اولهما يتعلق بادخال الحضارة الاوروبية الى البلاد الروسية، وثانيهما يتعلق بالسياسة الخارجية اي سياسة التوسع والفتح.

ففيما يختص بالموضوع الاول جهدت القيصرة، وهي اوروبية المولد والنشأة، في ادخال الحضارة الاوروبية الى البلاد الروسية. على انه لا بد من التنبيه الى أن تأثير الحضارة الاوروبية لم يتعدّ البلاط الامبراطوري والمجتمعات الارستقراطية والطبقات الفنية. امّا معظم الشعب الروسي فقد ظلّ غارقاً في الجهل، بعيداً عن كل تأثير حضاري.

كاترين الثانية

اما سياسة كاترين الخارجية فكانت ابعد من ذلك أثراً وأكثر أهمية في تاريخ الروسيا.

(ج) تقسيم بولندة

قلنا ان السويد وبولندة والامبراطورية العثمانية كانت في مطلع القرن الثامن عشر تسدّ منافذ البحار في وجه الروسيا. فقهر بطرس الاكبر السويد وأخذ ممتلكاتها الواقعة شرقي بحر

البلطيق ، فبقيت بولندة والدولة العثمانية. وما إن اصبحت مقاليد الحكم في يدي كاترين الثانية حتى راحت ترسم الخطط لقهر هاتين الدولتين والاستيلاء على بعض اراضيهما . وكانت بولندة آنذاك في حالة سيئة من الانقسام والضعف ، شجّعت جاراتها الروسيا وبروسية والنمسا على التآمر عليها فعقدت في سنة ١٧٧٢ اتفاقاً فيما بينها يقضي بمنح كل منها قسماً من البلاد البولندية ، فاضطرت الحكومة البولندية الى ان ترضخ للقوة وان تقبل بسلخ تلك المناطق خوفاً من ان تحتل جاراتها البلاد بأسرها . ويعرف هذا الحادث في التاريخ باسم « تقسيم بولندة الاول » . وقد نالت الروسيا بموجبه الاراضي الواقعة الى الجهة الشرقية من نهري الدنيبر والدفينا الغربي .

ولم يُشبع « التقسيم الاول » طمع جارات بولندة ، فاعادت الكرة عليها سنة ١٧٩٣ وانتزعت قسماً جديداً من اراضيها . ثم اقتسمتها للمرة الثالثة في سنة ١٧٩٥ وقضت على استقلالها تماماً . وكانت الحصة التي نالتها كاترين كبيرة كما يتبين من الخارطة . وبزوال دولة بولندة من الوجود قربت الروسيا من الغرب وصار اتصالها به أيسر من قبل . فتحققت بذلك النقطة الثانية من خطة التوسع التي رسمها بطرس الاكبر وتبنتها كاترين .

(د) الوصول الى البحر الأسود

ولم يصرف كاترين الثانية انشغالها بتقسيم بولندة عن اهتمامها بالتوسع نحو الجنوب . فخاضت حربين ضد العثمانيين (الاولى من سنة ١٧٦٨ – ١٧٧٤ ، والثانية من سنة ١٧٨٧ – ١٧٩٢)

ووالاها النصر فيها . فغنمت بلاداً واسعة وبسطت نفوذها على شبه جزيرة القرم والشاطىء الشمالي للبحر الاسود وعلى مناطق



داخلية اخرى ... كما يظهر في الخارطة . و كانت كاترين تطمع في الاستيلاء على القسطنطينية ، نفسها ، ولكن المنية وافتها في

سنة ١٧٩٦ ، قبل ان تتمكن من تحقيق هذه الامنية .

تقدمت الروسيا في القرن الثامن عشر تقدماً كبيراً وحققت ثلاثة أهداف رئيسية . فقد فازت أولاً بادخال بعض عناصر الحضارة الاوروبية ومظاهرها الى المجتمع الروسي . ونجحت ، ثانياً ، في فك الطوق الشديد الذي كان مضروباً حولها ، وتمكنت من الاستيلاء على بعض شواطىء البحرين الاسود والبلطيق. وأخيراً أصبحت الروسيا من أقوى الدول الاوروبية وأعظمها بعد ان كانت قبل مئة سنة فقط دولة ضعيفة لا شأن لها .

٣ ـ نظام الحكم

كان نظام الحكم في الروسيا ملكياً استبدادياً شأنه في معظم بلدان القارة الاوروبية في ذلك العهد. فكانت جميع السلطات في يدي القيصر الذي كان يصرّف شؤون الدولة على هواه ويدبّر امورها بحسب ما يراه هو مناسباً. وكان الوزراء يتلقون اوامره وينفذون تعليماته غير مسؤولين عن اعمالهم أمام احد سواه .

وكان الشعب يقسم الى ثلاث طبقات هي : طبقة الاكليروس وطبقة الاشراف وطبقة عامة الشعب. والواقع ان افراد الطبقتين الاولى والثانية كانوا ينعمون بالغنى ويتمتعون بالنفوذ ويستفيدون من الامتيازات الخاصة بهم . أما افراد الطبقة الثالثة الذين يشكلون السواد الاعظم من الشعب الروسي فكانوا فقراء جهالاً مستعبدين يشتغل اكثرهم بالزراعة في اراضي الكنيسة والاشراف . وعلى الجملة فقد كانت حالتم لاتختلف كثيراً عما كانت عليه حالة ابناء الطبقة الشعبية في القارة الاوروبية خلال القرون الوسطى .

٢. النمسا

في القرن الثامن عشر

•

١ - نهضة النمسا

إن البلاد التي ندعوها اليوم المانية والنمسا كانت تعرف في مطلع القرن الثامن عشر باسم «الامبراطورية الرومانية المقدسة»، وكانت تلك الامبراطورية مقسمة الى عدة أقسام يتمتع كل منها باستقلال تام تقريباً. وكان اكبر تلك الاقسام وأعظمها شأناً النمسا. لذلك كان حاكمها، وهو من اسرة هابسبورغ، ينتخب في معظم الاحيان امبراطوراً على البلاد الالمانية والنمساوية معاً.

كانت النمسا في القرنين السادس عشر والسابع عشر دولة ضعيفة بسبب الثورات الداخلية التي اندلعت في بعض ارجائها، وبسبب الحروب التي شنها عليها اعداؤها والطامعون في اراضيها. وفي مطلع القرن الثامن عشر كان الخطر لا يزال يهددها من ناحيتين: من الغرب حيث كانت جيوش ملك فرنسة لويس الرابع عشر تتقدم في وادي الدانوب قاصدة العاصمة فيينا نفسها، ومن

الشرق حيث كان الاتراك العثمانيون يحاربون بضراوة للاحتفاظ ببلاد المجر (هنغاريا) في ايديهم .

(أ) الحرب مع فرنسة

يرجع سبب هـــذه الحرب الى الاختلاف بين أسرة بوربون الحاكمة في فرنسة وبين اسرة هابسبورغ الحاكمة في النمسا على قسمة الاراضي الخاضعة للدولة الاسبانية . فقد توفي ملك اسبانية شارل الثاني في سنة ١٧٠٠ ، ولما لم يكن له ولد اوصى بالعرش من بعده لأحد اقربائه من حفداء لويس الرابع عشر ملك فرنسة* وخشيت النمسا وانكلترة وغيرهما من الدول الاوروبية ان تقوى فرنسة كثيراً ان تحققت وصية شارل الثاني ، فعقدت تلك الدول تحالفاً عسكرياً فيما بينها ودخلت الحرب ضـــد فرنسة في سنة ١٧٠٢ كما مر معنا من قبل . وقد دامت هذه الحرب حتى سنة ١٧١٣ ثم انتهت بانتصار الحلفاء . وكان نصيب النمسا من الغنيمة وافراً ، فقد أخذت معظم الممتلكات الاسبانية في ايطالية وهي مناطق ميلانو (لومبردي) ونابولي ، وسردينية ** كما استولت ايضاً على الاراضي المنخفضة الاسبانية (اي بلجيكة) .

(ب) الحرب مع العثمانيين

كان الاتراك العثمانيون يسيطرون على شبه جزيرة البلقان بكاملها وعلى المجر . وفي سنة ١٦٨٣ عبروا الحـــدود النمساوية

---

* كانت امرأة لويس الرابع عشر الاولى اخت شارل الثاني ملك اسبانية .
** استبدلت بها صقلية في سنة ١٧٢٠ .

وحاصروا العاصمة فيينا. ولكن النمساويين صمدوا في وجههم ثم تمكنوا من ردهم الى نقطة انطلاقهم في المجر قبل ان يلفظ القرن



النمسا وممتلكاتها في القرن السابع عشر
" سنة ١٧٢٠ تقريباً
حدود الامبراطورية الرومانية المقدسة

الثامن عشر انفاسه الاخيرة، وساد السلام ردحاً من الزمن بين الدولتين، وذلك لان العثمانيين كانوا قد لمسوا ضعفهم وادركوا

عجزهم ، ولأن النمساويين كانوا قد انهمكوا في الحرب ، التي تحدثنا عنها ضد فرنسة . ولما انتهت تلك الحرب في صالح النمسا ، عاد النمساويون في سنة ١٧١٧ الى محاربة العثمانيين ، فانتصروا عليهم واستعادوا المجر كلها من ايديهم سنة ١٧١٨ .

كان لانتصار النمسا في هاتين الحربين اللتين خاضتهما ضد فرنسة والسلطنة العثمانية تأثير عظيم في وضعها المادي والمعنوي . فمن الناحية المادية تضاعفت مساحتها بما انضم اليها من اراض واسعة في الشرق والغرب ، كما يتبين ذلك من الخريطة . ومن الناحية المعنوية اكسبها انتصار جيوشها في ساحات القتال هيبة وتقديراً لم يكونا لها في القرنين السابقين .

٢ - مشكلة عرش النمسا

ما كاد الامبراطور شارل السادس (ملك النمسا) ينتهي من حروبه ضد الفرنسيين والعثمانيين ويوطد اركان ملكه في المناطق الجديدة التي ضمها الى بلاده حتى برزت له قضية جديدة هي مشكلة من سيتولى الحكم من بعده . فقد كان هو آخر رجل من سلالته ، ولم يكن له من الاولاد غير ابنتين . وكان حق اعتلاء العرش النمساوي محصوراً في الرجال دون النساء . فعزم شارل السادس على ان يغيّر هذا القانون ليتسنى له أن يرفع ابنته البكر الى العرش من بعده . ولم يكن ذلك بالامر اليسير إذ كان يترتب عليه أن يحصل على موافقة المجالس الاقليمية (الدِيَت) في الاقسام الرئيسية من مملكته الواسعة ، وان يضمن رضا الدول

الاوروبية الكبرى وعدم معارضتها لذلك التدبير، وقد بذل الملك جهداً عظيماً في هذا السبيل حتى توصل الى ما أراد . ولما توفي في سنة (١٧٤٠) ارتقت العرش ابنته الكبرى ماريا تاريزا .

ولكن الدول التي وعدت شارل السادس بتأييد ابنته في الحكم لم تكن صادقة في وعدها ، بل كانت تطمع في اقتطاع بعض الاجزاء من اراضي المملكة الشابة .

وكان اول من تحرك للحرب ضد ماريا تاريزا جارها فردريك الثاني ملك بروسية سنة ١٧٤٠ ، وفي الحال هاجمتها بضعُ دول اخرى اهمها : فرنسة واسبانية وبافارية وسكسونية .

أخذتْ ماريا تاريزا على حين غِرّةٍ ، فخسرت جيوشُها الجولةَ الاولى في الحرب . فاحتل البروسيونَ المنطقة الشمالية المعروفة باسم «سيليزيا» ، واستولى اعداؤها الآخرون على المنطقة الشمالية الغربية المعروفة باسم «بوهيميا» . ولكن الملكة الشابة ما لبثت ان هبّت لمعالجة الموقف بحكمة وسرعة ، وقامت بثلاثة اعمال مهمة هي : **أولاً** ، أنها استطاعت بفضل شخصيتها



الامبراطورة ماريا تاريزا

القوية أن تُلهب حماسة شعبها وتحملهم على تأيدها والالتفاف حولها في الدفاع عن الوطن . **وثانياً** ، أنها عقدت صلحاً مع فريدريك الثاني في سنة ١٧٤٢ متنازلةً له عن « سيليزيا » . فتخلصت بذلك ، ولو الى حين ، من مخاصمة عدو شديد عنيد ، وتفرّغت لمحاربة أعدائها الآخرين . **وثالثاً** ، أنها استمالت انكلترة وهولندة اليها وجعلتهما تدخلان الحرب الى جانبها . ولم تطل الحرب بعد ذلك . وفي سنة ١٧٤٨ عقدت في مدينة أخن (اكس لا شابيل) معاهدة الصلح التي نصت على اعتراف الدول ذات العلاقة بحق ماريا تريزا في الحكم ، وبحق فريدريك الثاني في ضم سيليزيا الى ممتلكاته .

وقد حاولت ماريا تاريزا ان تسترجع سيليزيا من بروسية في حرب السبع سنوات (١٧٥٦–١٧٦٣) فأخفقت .

٣ ـ النمسا تتوسع شمالاً

عوضت النمسا عن خسارتها سيليزيا بما ضمته الى ممتلكاتها من اراضي الدولة البولندية في التقسيمين اللذين جريا في سنتي ١٧٧٢ و ١٧٩٥ . وسنتوسع في شرح موضوع بولندة في الفصل التالي :

٤ ـــ الحالة الداخلية

نعمت اوروبة في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر بعهد من السلم والطمأنينة دام حوالى ثلاثين سنة . فلم يقع في القارة الاوروبية نفسها غير حروب محلية ومناوشات داخلية بسيطة . فانصرف

بعض حكام بلدان اورروبة الوسطى الى القيام باصلاحات مهمة في الحقول السياسية والاقتصادية والعلميـة وغيرها . وكانت ماريا تاريزا وابنها جوزيف الثاني شديدي الرغبة في الاصلاح . ولكن مهمتهما كانت صعبة شاقة وذلك لان الامـبراطورية النمساوية كانت مؤلفة من بلدان مختلفة كالنمسا وبوهيمية والمجر والاراضي المنخفضة النمسوية وبعض بولندة ، ومن شعوب كثيرة متباينـة في الجنس واللغة والدين والاخلاق والعادات والاهداف . وكان بعضها يكره ان يبقى تحت حكم آل هابسبورغ ويسعى بجميع الوسائل لينال استقلاله التام . وكثيراً ما كانت الثورات تنشب ضد السلطة المركزية في فيينا. فرأت ماريا تاريزا وابنها جوزيف الثاني ان ينصرفا الى معالجة هذه الناحية السياسية المهمة قبل سواها، فقررا ان يقضيا على الحركات الانفصالية ويخنقا النزعات القوميـة الضيقة في مملكتهما . فاصدرا القوانين الصارمة واتخذا التدابـير الحازمة التي من شأنها ان تضعف نفوذ الحكومات المحلية وتعزز السلطة المركزية وتجعل الامبراطورية النمساوية وحدة متماسكة قوية . ولكن تلك الاجراءات لم تأت بالنتيجة المطلوبة بل زادت الحالة سوءاً والمشكلة تعقيداً . وقد اضطر جوزيف الثاني بسبب الثورات الخطيرة التي اندلعت في مملكته إلى ان يلغي في اواخر ايامه معظم القوانين والاجراءات الهادفـة الى تحسين الحالة والى توحيد اجزاء الامبراطورية النمساوية . وعند وفاته في سنة ١٧٩٠ كانت هذه الامبراطورية لا تزال مجزأة الى ولايات ومؤلفة من شعوب لا تربطها رابطة روحية ولا تجمعها اهداف قومية مشتركة.

٣. بروسية
في القرن الثامن عشر

●

١ - نهضة بروسية

كانت بروسية احدى الدويلات الالمانية الداخلة في « الامبراطورية الرومانية المقدسة » . وكانت تتألف : (١) من براندنبورغ وبوميرانيا حول برلين ، (٢) ومن بروسية الشرقية ، (٣) ومن دوقيات صغيرة أخرى قرب نهر الرين في الغرب. وكان حكامها من سلالة هوهنزلرن ، وهي احدى الاسر الاوروبية العريقة . وفي مطلع القرن الثامن عشر (١٧٠١) منح الامبراطورُ حاكمَ بروسية لقب ملكٍ ثمناً للمساعدة الحربية التي وعدت بروسية بتقديمها للامبراطور في حربه ضد لويس الرابع عشر، كما مر معنا. ولكن لقب الملك لم يحدث اي تغيير يستحق الذكر في حالة بروسية . اما التقدم السريع والتطور العظيم اللذان تحققا فيها في ذلك الوقت فكانا نتيجةً للجهود الكبيرة التي بذلها فريدريك وليم الاول (١٧١٣ - ١٧٤٠) المؤسس الحقيقي لدولة بروسية الحديثة .

اعتلى فريدريك وليم عرش بروسية سنة ١٧١٣ . وكان

رجلا شديداً حازماً كثير النشاط . فنظم شؤون بـلاده تنظيماً حسناً ، وضبط الادارة ، واقتصد في النفقات وأنشأ جيشاً قوياً من ثمانين الف رجل . وبفضل هذه الاصلاحات وغيرها اصبحت بروسية دولة غنيـــة قوية وصارت الدول الاوروبية تخشى بأسها وترهب جيشها المدرب احسن تدريب ، والمجهز أفضل تجهيز .

كان لنهوض دولة بروسية على يد ملكها فريدريك وليم الاول تأثير عظيم في الامبراطورية عموماً وفي البلاد الألمانية خصوصاً . فقد كانت النمسا قبل ظهور بروسية الدولة القوية الوحيدة في الامبراطورية كلها . ولم يكن بين الدويلات الالمانية جميعها من تستطيع ان تنافس النمسا او ان تقف في وجهها . ولكن بروسية اصبحت في اواسط القرن الثـامن عشر منافسة خطرة للنمسا ، وصار حكام الولايات الالمانية في الشمال يلتفون حول ملك بروسية ويعتبرونه زعيمهم وحاميهم . فأغاظ هـذا الامر حكام النمسا وأوغر صدورهم حقداً على بروسية وحكامها . وقد كان هذا الحقد والتنافس بـين الدولتين من اهم العوامل التي اثرت في سياسة اوروبة الوسطى وتاريخها من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٨٧١ . وقد وقع اول اشتباك بينهما بسبب هذا التنافس في سنة ١٧٤٠ .

٢ ــ حرب السنوات السبع

ابتدأت هذه الحرب سنة ١٧٥٦ واستمرت حـتى سنة ١٧٦٣ . وكان من أهم أسبابها ، التنافس التجاري الشديد بين انكلترة وفرنسة ، ورغبة ماريا تاريزا الملحة في استرجـاع

سيليزيا التي تنازلت عنها مضطرة في سنة ١٧٤٢ لملـك بروسية فريدريك الثاني . ولما كانت بروسية قد تقرّبت مـن انكلترة وعقدت معها معاهدة تفاهم وصداقة ، فقد تناست النمسا عداوتها السابقة لفرنسة ، وعقدت معهـا معاهدة دفاعية – هجومية . ثم نجحت ماريا تاريزا بعد ذلك بالتقرب الى الروسيا والسويد ، وسكسونية ، والتفاهم معها ضد بروسية.

وادرك فريدريك الثاني خطة ماريا تاريزا الرامية الى تطويقه بحلقة مـن الأعداء ، فهاجمها قبل ان تُتمّ هي وحلفاؤها خططهم واستعداداتهم . واندلعت نار الحرب بـين افراد المعسكرين في كل مكان ،



(فريدريك الكبير)

وخصوصاً بين انكلترة وفرنسة في اميركة الشمالية والهنـد وفي البحار ، وبين بروسية والدول الاخرى في اوروبة . ولن نبحث بتفصيل المعارك العديدة التي وقعت في تلك الحرب لان المجال لا يتسع لها الآن ، ولكننا نكتفي بالقول ان فريدريك أظهر فيها من المهارة والبراعة في قيادة الجيوش ما جعله يدعى باستحقـاق فريديك العظيم أو الكبير . فقد استطاع ان ينتصر بجيشه الصغير

على أعدائه واحداً بعد واحد ، وان يمزق شمل جيوشهم الكبيرة شر تمزيق . ولكن الحرب انهكت قواه في النهاية ، ثم ان حليفته انكلترة تخلت عنه ، فأصبح في وضعٍ خطرٍ . وفي تلك الساعة الحرجة أسعفه الحظ بوفاة عدوته اللدود اليزابت امبراطورة الروسيا . ولما ارتقت كاترين الثانية عرش الروسيا في سنة ١٧٦٢ انسحبت من الحرب تاركة النمسا وشأنها . ولما وجدت ماريا تاريزا انها قد اصبحت وحدها في الميدان ضد بروسية وافقت على انهاء القتال لانها لم تشأ ان تجازف بقوتها . وعقدت بين النمسا وبروسية في سنة ١٧٦٣ معاهدة « ايبرتسبرغ » التي اعترفت فيها النمسا بضم سيليزية الى بروسية بصورة نهائية قاطعة .

خرجت بروسية من حرب السبع السنوات منتصرة ظافرة ، وبرهنت على انها من اقوى الدول الاوروبية عسكرياً . اما النمسا فمع انها لم تنجح في تحطيم قوة بروسية واسترجاع سيليزية كما كانت تأمل فانها لم تُقهَر ولم تخسر الحرب ، بل استطاعت بفضل شجاعة ملكتها ماريا تاريزا ودهائها ان تحافظ على قوتها واحترامها وان تبقى معدودة بين الدول الاوروبية الكبرى . وهكذا انتهت ايضاً هذه الدورة الثانية من الصراع بين النمسا وبروسية بدون نتيجة حاسمة .

٣ ـ اقتسام بولندة

اذا تأملنا في خارطة شرقي اوروبة نجدان بولندة تقع بين الروسيا وبروسية والامبراطورية النمساوية . وقد رأينا ان هذه الدول

الثلاث نهضت نهضة قوية في القرن الثامن عشر واصبحت من الدول الاوروبية الكبرى . اما بولندة فكانت في حالة سيئة من الفوضى والضعف . فشجع ذلك جاراتها على اقتسام اراضيها وازالتها من خارطة اوروبة .

كانت اراضي بولندة تفصل بروسية الشرقية عن بوميرانيا



الى روسيا   الى النمسا   الى بروسية

خارطة تقسيم بولندة

وبرندنبورغ . لذلك رغب فردريك الثاني في ضم ذلك الجزء من بولندة لكي يتصل شرقيّ مملكته بوسطها . وكانت كاترين الثانية، امبرطورة الروسيا ، ترغب في التوسع نحو الغرب تحقيقاً للسياسة

الروسية العامة التي وضع خطوطها الكبرى سلفها بطرس الاكبر.
ولم تكن ماريا تاريزا ترغب في الاعتـــداء على بولندة ، ولكن مصلحة النمسا كانت تقضي بان لا تترك الروسيا وبروسيا تتصرفان في شؤون بولندة على هواهما . وبعد مداولات مستفيضة بين برلين وفينا وبطرسبرغ تمّ الاتفاق بين الدول الثلاث في سنة ١٧٧٢ على ان تأخذ الروسيا من بولندة منطقة الروسيا البيضاء، وبروسية منطقة بروسية الغربيّة ، والنمسا منطقة غاليسة . ويطلق على هذا الحدث التاريخي اسم « تقسيم بولندة الأول » .

وتبع التقسيم الاول تقسيمان آخران . ففي سنة ١٧٩٣ اقتطعت كل من الروسيا وبروسيا جزءين كبيرين من بولندة . وفي سنة ١٧٩٥ تم التقسيم الثالث والاخير . وفيه اقتسمت الدول الثلاث ما كان قد تبقّى من بولندة، فزالت الدولة هذه من خارطة اوروبة مدة قرن وربع القرن تقريباً ، ولم تظهر من جديد إلاّ بعد الحرب العالمية الاولى .

٤ ـ انكلترا وفرنسا واسبانية

•

تحدثنا في الفصلين السابقين عن الحالة في اوروبة الوسطى والشرقية في القرن الثامن عشر ، واشرنا بنوع خاص الى نهضة الروسيا وبروسية والنمسا ، والى الحروب التي وقعت بين تلك الدول نتيجة لرغبة كل منها في التوسع على حساب جاراتها . وسننتقل الآن الى غربي اوروبة لندرس الحالة فيها .

١ ـ معاهدة أوترخت واهميتها

نجد في غربي اوروبة في مطلع القرن الثامن عشر ثلاث دول كبرى هي انكلترة وفرنسا واسبانية . وكانت كل من هذه الدول ترغب في زيادة اراضيها وتوسيع تجارتها فوقع بينها مثل ما وقع بين دول اوروبة الشرقية من منافسة شديدة وحروب دامية . على ان المنافسة بين دول اوروبة الشرقية بقيت منحصرة في القارة الاوروبية نفسها ، اما المنافسة والحروب التي وقعت بين انكلترة وفرنسة واسبانية فانها تجاوزت حدود اوروبة الى المستعمرات الواسعة فيما وراء البحار .

وكانت أولى تلك المنازعات في القرن الثامن عشر الحرب التي

اثارتها مشكلة وراثة عرش اسبانية (١٧٠٢ - ١٧١٣) والتي تحدثنا عنها في الفصل الثاني . وقد انتهت تلك الحرب ، كما رأينا ، بفوز انكلترة والنمسا على فرنسة واسبانية . وجاء في معاهدة الصلح التي عقدت في اوترخت سنة ١٧١٣ ثلاثة امور مهمة ، وهي:

(أ) عرش اسبانية

اعترفت انكلترة (والنمسا فيما بعد) بحفيد لويس الرابع عشر ملكاً على اسبانية ومستعمراتها باسم فيليب الخامس . ولكنهما اشترطتا مقابل ذلك ان لا يجتمع العرشان ، الفرنسي والاسباني ، تحت تاج واحد في المستقبل .

(ب) حصة النمسا

نالت النمسا من اسبانيا معظم ممتلكاتها في ايطالية وهي منطقتا ميلان (لومبردي) ونابولي وجزيرة سردينية . ونالت كذلك الاراضي المنخفضة الاسبانية (اي بلجيكة) التي صارت تعرف منذ ذلك الحين باسم الاراضي المنخفضة النمساوية .

(ج) حصة انكلترة

أخذت انكلترة من فرنسة ثلاثة اقسام مهمة من مستعمراتها في اميركة الشمالية ، وهي : نوفاسكوتيا ، والارض الجديدة ، ومنطقة خليج الهدسن .

وأخذت من اسبانية جبل طارق وجزيرة مينورقة فتمكنت بواسطتها من السيطرة الكاملة على المنفذ الغربي للبحر الابيض

المتوسط . وبالاضافة الى ذلك اوجبت المعاهدة على اسبانية ان تسمح لاحدى الشركات الانكليزية الكبرى بان تصدّر الرقيق وبعض البضائع الاخرى الى المستعمرات الاسبانية .



جبل طارق

هذه ابرز الشروط التي وردت في معاهدة اوترخت ، وقد تبسطنا في شرحها نظراً لأهميتها وتأثيرها في العلاقات الدولية في الثلث الاول من القرن الثامن عشر . ولعل اهم النتائج السريعة التي اسفرت عنها الحرب ومعاهدة اوترخت التي عقبتها اثنتان ، وهما : تمكين الصداقة الفرنسية الاسبانية ، واشتداد المنافسة والعداء بين انكلترة من جهة ، وفرنسة واسبانية من جهة أخرى .

٢ ـ العلاقات الدولية بعد معاهدة اوترخت

(أ) الصداقة الفرنسية الاسبانية

كانت العلاقات بين فرنسة واسبانية سيئة في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولكن الصداقة حلت محل العداء القديم في سنة (١٧٠٠) عندما اعتلى العرش الاسباني فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر . فصار ملكا فرنسة واسبانية نسيبين ومن اسرة واحدة هي اسرة آل بوربون الفرنسية . ثم ان شروط معاهدة اوترخت قوّت هــذه الصداقة عن غير قصد ، وذلك للاسباب التالية :

أولا : ان المعاهدة اعطت الاراضي المنخفضة للنمسا ، فلم يبق لاسبانية ممتلكات على حدود فرنسة . فزال بذلك عــامل من العوامل التي كانت تدعو احياناً الى النزاع .

ثانياً : ان المعاهدة سلخت عن اسبانية ممتلكاتها في ايطاليـة والاراضي المنخفضة واعطتها الى النمسا . فلم تقبل اسبانية بذلك عن طيبة خاطر ، وراحت تفكر في الوسائل التي تمكنها من قهر النمسا واسترجاع تلك الممتلكات منها . وكانت فرنسة ، ايضاً ، حاقدة على النمسا لاشتراكها في الحرب ضدها ، فاتفقت الدولتان الغربيتان على الكيد للنمسا والانتقام منها .

ثالثاً : وقوّى الصداقة الفرنسية الاسبانية كذلك ، العـداء المشترك الذي كانت تكنه كل من فرنسة واسبانيـة لانكلترة . وهذا ما سنشرحه الآن .

(ب) العداء بين انكلترة وفرنسة واسبانية

ان التنافس التجاري والاستعماري بين انكلترة واسبانية قديم . وما تحطيم الارمادا (الاسطول الاسباني)على يد انكلترة في سنة ١٥٨٨ غير مظهر من مظاهره وواقعة من وقائعه ، ثم ان هذا التنافس عاد الى الاشتداد في اوائل القرن الثامن عشر بعد ان فرضت انكلترة شروطها القاسية على اسبانية في معاهدة اوترخت . من اجل ذلك اضمرت اسبانية الشر لانكلترة وراحت تعد الوسائل وتتحين الفرص لتسترد منها جبل طارق ولتمنع التجار الانكليز من استثمار موارد المستعمرات الاسبانية وخيراتها.

وشبيه بالعداء الانكليزي الاسباني العداء الانكليزي الفرنسي. فقد مرت عدة قرون وفرنسة وانكلترة عدوتان لدودتان لا تنتهيان من حرب قديمة حتى تبدءا حرباً جديدة . وكانت انكلترة تهدف الى اضعاف فرنسة ومنعها من بسط نفوذها وسيطرتها على القارة الاوروبية . ومع ان سياسة انكلترة لم تتغيّر بهذا الصدد فان السبب الرئيسي للنزاع بين الدولتين اصبح في القرن الثامن عشر التنافس في الحصول على المستعمرات والأسواق التجارية في البلدان البعيدة وراء البحار . فقد كانت لانكلترة وفرنسة مستعمرات في اميركة الشمالية وجزر الهند الغربية ، واسواق تجارية في الهند . فطمعت كل منها في ممتلكات الاخرى وراحت تسعى لانتزاعها منها بشتى الوسائل .وقد فازت انكلترة على فرنسة سنة (١٧١٣) وانتزعت منها ، كما ذكرنا قبلاً ، بعض ممتلكاتها في اميركة الشمالية .

يتبيّن مما تقدم ان انكلترا كانت المنافسة القوية والعدوة الخطرة لكل من فرنسة واسبانية . وقد تنبهت الدولتان الى حقيقة نيات انكلترة وادركتا ان مطامع عدوتهما لن تقف عند حد وخصوصاً لان ممتلكاتها في العالم الجديد لا تزال غنية واسعة. فكان هذا الخوف من العدو المشترك في مقدمة الاسباب التي جمعت فرنسة واسبانية في القرن الثامن عشر في تحالف عسكري مكين ضد انكلترة .

ويمكننا ان نلخص الموقف الاوروبي في الثلث الاول من القرن الثامن عشر بقولنا ان الدول الاوربية الكبرى كانت خلاله اربعاً ، وهي انكلترة وفرنسة واسبانية والنمسا ، وان هذه الدول كانت تنقسم الى معسكرين متخاصمين يتألف احدهما من فرنسة واسبانية والآخر من انكلترة والنمسا . اما الاسباب الرئيسية للنزاع بين المعسكرين فيمكن تلخيصها ايضاً في أمرين مهمين : اولهما رغبة فرنسة في بسط نفوذها ونشر سيطرتها على اوروبة . وثانيهما ، رغبة انكلترة في السيطرة على المستعمرات والاسواق التجارية في العالم . ولم تكن انكلترة تسمح لفرنسة بالسيطرة على اوروبة، كما ان فرنسة لم تكن تقبل بان تسيطر انكلترة على المستعمرات والاسواق التجارية العالمية .

٣ ـ فترة من السلام (١٧١٣ - ١٧٣٣)

كان انقسام الدول الاوروبية وتضارب مصالحها على الشكل الذي وصفنا يهددان بنشوب الحرب عاجلاً او آجلاً . ولكن الحرب

لم تقع سريعاً ، وامتدت فترة السلام التي عقبت معاهدة اوترخت عشرين سنة (١٧١٣ - ١٧٣٣) . فاعطت تلك الفترة من السلام فرصة كافية للدول لكي تستجمع قواها وتستعد للحرب القادمة .

وانصرف الفرنسيون الى تقوية جيشهم البري لاعتقادهم ان المعارك الفاصلة في نزاعهم ضد انكلترة ستقع على سطح القارة الاوروبية كما كان يجري في السابق . وقد حملهم ذلك على اهمال الاسطول وعلى عدم تقويته .

اما في اميركا فقد ضاعف الفرنسيون جهودهم لتوسيع مناطق نفوذهم واكتساب اسواق جديدة لتجارتهم . وكانت مستعمراتهم تمتد من مصب نهر المسيسيبي في الجنوب حتى خليج الهدسن في الشمال ومن شواطىء المحيط الاطلسي في الشرق الى قلب البلدين اللذين ندعوهما اليوم كندا والولايات المتحدة الاميركية ، فكانوا بذلك يسيطرون على قلب اميركا الشمالية كله . ولم يكن لانكلترة غير رقعة ضيقة على الساحل الشرقي تمتد من فلوريدا في الجنوب الى الارض الجديدة في الشمال .

ولكن الجهود الفرنسية لم تسفر عن نتيجة مهمة لأن الحكومة الفرنسية كانت في حالة سيئة من التضعضع والفوضى . فقد ارتقى لويس الخامس عشر العرش بعد وفاة جده لويس الرابع عشر في سنة ١٧١٥ . وكان هذا الملك الجديد من اضعف الحكام الذين تربعوا على العرش الفرنسي ومن افسدهم اخلاقاً واقلهم اهتماماً بشؤون البلاد ومصالح الدولة . وهو الذي يروى عنه انه قال : « من بعدي الطوفان » . فساءت في ايامه الاحوال وانتشرت الفوضى وعمّ التذمر والشكوى .

اما انكلترة فقد تولى امورها في تلك الحقبة عينها من الزمن نفر من ادهى الرجال واقدرهم في الشؤون السياسية والعسكرية . وقد رأى هؤلاء ان مستقبل انكلترة وسيادتها يتوقفان، في الدرجة الاولى ، على قوتها البحرية . فراحوا يعززون الاسطول ويبذلون في سبيل تقويته الاموال الطائلة . وكانت حجتهم في ذلك انه اذا ما نشبت حرب واستطاعت انكلترة ان تقطع كل اتصال بين فرنسة ومستعمراتها فان تلك المستعمرات لا تلبث ان تقع فريسة سهلة في ايدي الانكليز .

ولم يقل اهتمام الحكومة الانكليزية بالعناية بالمستعمرات عن اهتمامها بتقوية الاسطول . فقد شجعت الرعايا البريطانيين على السفر الى المستعمرات والاستيطان فيها وساعدتهم هناك على تذليل الصعاب ومدتهم بالقوة المعنوية والمادية . وكان لهذه السياسة اثرها الفعال اذ بلغ عدد المستعمرين الانكليز في اميركة الشمالية المليون في اواسط القرن الثامن عشر، بينما لم يزد عدد المستعمرين الفرنسيين على مئة الف مستعمر بالرغم من ان مساحة المستعمرات الفرنسية كانت في الاصل أضعاف مساحة المستعمرات الانكليزية .

وكانت المنافسة شديدة بين المستعمرين الانكليز والفرنسيين. فقد اراد كل منهما ان يستملك الاراضي الخصبة الغنية وان يستأثر بالتجارة مع الهنود الاميركيين وخصوصاً تجارة الفراء التي كانت ارباحها طائلة. وكثيراً ما كانت هذه المنافسة بين المستعمرين تسبب الازمات وتهدّد بنشوب الحرب. ولم تنحصر هذه المنافسة بين الرعايا البريطانيين والفرنسيين في مناطق العالم الجديد فحسب بل تعدتها الى

بعض مناطق العالم القديم وخصوصاً الى بلاد الهند. فكان فيها لكل من انكلترة وفرنسة شركة تجارية تدعى « شركة الهند الشرقية ». واستولت هاتان الشركتان على بعض المناطق في سواحل الهند الشرقية والغربية وجعلتاها محطات رئيسية للتجارة. فكان للانكليز مدراس وكلكتا. وكان للفرنسيين بونديتشاري وتشاندرناجور. ومن هذه المحطات الرئيسية الاربع كان التجار يتسربون الى داخل البلاد ويتجرون مع السكان.



روبرت كليف

واكتشف التجار ان سلامتهم ونجاح تجارتهم يستلزمان تدخلهم في شؤون الهند الداخلية، وبسط نفوذهم السياسي على امرائها. فأنشأت كل شركة فرقاً مسلحة من الجنود الاوروبيين والوطنيين المدربين وراحت تنتصر لهذا الحاكم ضد ذلك وفاقاً لمصالحها التجارية واهوائها السياسية. وكان يتزعم هذه الحركة عند الفرنسيين رجل



ديبلا كس

اسمه ديبلاكس، وعند الانكليز رجل اسمه روبرت كليف. فدخلت عندئذ المنافسة الفرنسية الانكليزية في الهند طوراً جديداً خطراً، واصبح وقوع الحرب بين الطرفين أمراً قريب الاحتمال .

٤ ـ حرب الثلاثين سنة الجديدة

وفي سنة ١٧٣٣ انقطع حبل السلام ونشبت « حرب الثلاثين سنة الجديدة » التي امتدّت الى سنة ١٧٦٣ . والحقيقة ان هذه الحرب ليست حرباً متصلة واحدة بل ثلاث حروب مختلفة يفصل بين كل واحدة منها والأخرى فترة من السلام . وهذه الحروب هي : (١) حرب وراثة عرش بولندة (١٧٣٣ - ١٧٣٦) ، (٢)حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ - ١٧٤٨) ، (٣)حرب السبع السنوات (١٧٥٦ - ١٧٦٣) .

(أ) حرب وراثة عرش بولندة

توفي ملك بولندة في سنة ١٧٣٣ ، وصار على المجلس البولوني (الدَيت) ان يجتمع وينتخب الملك الجديد . وكانت ملكة فرنسة ابنة احد النبلاء البولنديين ، فتدخل لويس الخامس عشر في الأمر وحمل « الدَيت » على انتخاب حميه (والد زوجته) ملكاً على بولندة . وكان لويس الخامس عشر يرمي من وراء ذلك أولاً ، الى اكرام حميه ، وثانياً، الى تنفيذ سياسة فرنسة التقليدية التي ترمي الى بسط السيطرة والنفوذ الفرنسيين علـى اكبر قسم من اوروبة . فلم توافق النمسا ، عـدوة فرنسة ومنافستها في اوروبة ، على هذا الانتخاب . وكانت الروسيا قد اصبحت دولة

قوية فأيدت وجهة نظر النمسا ، وارسلت الدولتان جيوشها الى بولندة فطردت الملك وحملت « الديَت » على انتخاب اوغسطس أمير سكسونية ملكاً على بولندة. ولما لم يكن بامكان الجيوش الفرنسية الوصول الى بولندة فقد هاجمت الاراضي المنخفضة النمساوية ومنطقة اللورين الألمانية . ووجدت اسبانية ان ساعة الانتقام من النمسا قد دقت فدخلت الحرب ضدها . وكذلك فعل دوق سافوا طمعاً في الحصول على بعض ممتلكات النمسا في شمالي ايطاليا . وانتهت هذه الحرب بمعاهدة فينا سنة ١٧٣٦ . وكانت اهم شروطها ما يلي : **أولاً** ، ان تعترف الدول صاحبة العلاقة باوغسطس ملكاً على بولندة . **ثانياً** ، ان تضم منطقة اللورين الى فرنسة وان تعطى النمسا منطقة توسكانا (في ايطالية) بدلاً منها . **ثالثاً** ، ان تتنازل النمسا عن منطقتي نابولي وجزيرة صقلية وان تتكوّن منها مملكة يُولى عليها الامير كارلوس الاسباني .

كانت هذه المعاهدة هزيمة للنمسا ولفرنسة في آنٍ واحد . فان خلع مرشح فرنسة عن عرش بولندة وتثبيت اوغسطس مرشح الروسيا والنمسا مكانه يعتبر اخفاقاً ذريعاً للسياسة الفرنسية . اما النمسا فانها خرجت من الحرب خاسرة لانها فقدت قسماً كبيراً من اراضيها .

(ب) حرب وراثة عرش النمسا

ابتدأت هذه الحرب في اميركة في سنة ١٧٣٩ بين انكلترة

واسبانية . وكانت تدعى هناك باسم « حرب أذن جنكن » . وسبب ذلك ان التجار الانكليز الذين كانوا يصدّرون العبيد والبضائع الى المستعمرات الاسبانية وفاقاً لمعاهدة اوترخت لم يتقيدوا دائماً بالشروط المفروضة عليهم ، وكانوا يتعاطون التهريب وغيره من الاعمال المخالفة لنصوص المعاهدة ، فأثار ذلك غضب المستعمرين الاسبان ووقعت بينهم وبين التجار الانكليز عدة اشتباكات . وفي احدى المرات قطع الاسبان اذن تاجر انكليزي ، اسمه جنكن انتقاماً منه . فاغضبت هذه الحادثة وغيرها الانكليز فأعلنوا الحرب على اسبانية في سنة ١٧٣٩ .

وفي السنة التالية نشبت في اوروبة حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ - ١٧٤٨) التي تحدثنا عنها بتفصيل في الفصل السابق . فانضمت اسبانية وفرنسة الى بروسية ضد النمسا . فما كان من انكلترة الا ان انضمت الى النمسا ، فاصبحت عندئذٍ حرب أذن جنكن جزءاً من حرب عرش النمسا .

لم تحلّ تلك الحرب شيئاً من المشاكل المعقدة التي كانت موضع نزاع بين الدول الكبرى . وكان الصلح الذي عقد في سنة ١٧٤٨ اشبه شيء بهدنة موقتة انصرف خلالها الطرفان الى الاستعداد للجولة التالية .

(ج) حرب السنوات السبع

لهذه الحرب وجهان احدهما اوروبي وهو يمثل الصراع بين الدول من اجل التوسع والسيطرة في اوروبة نفسها، والآخر

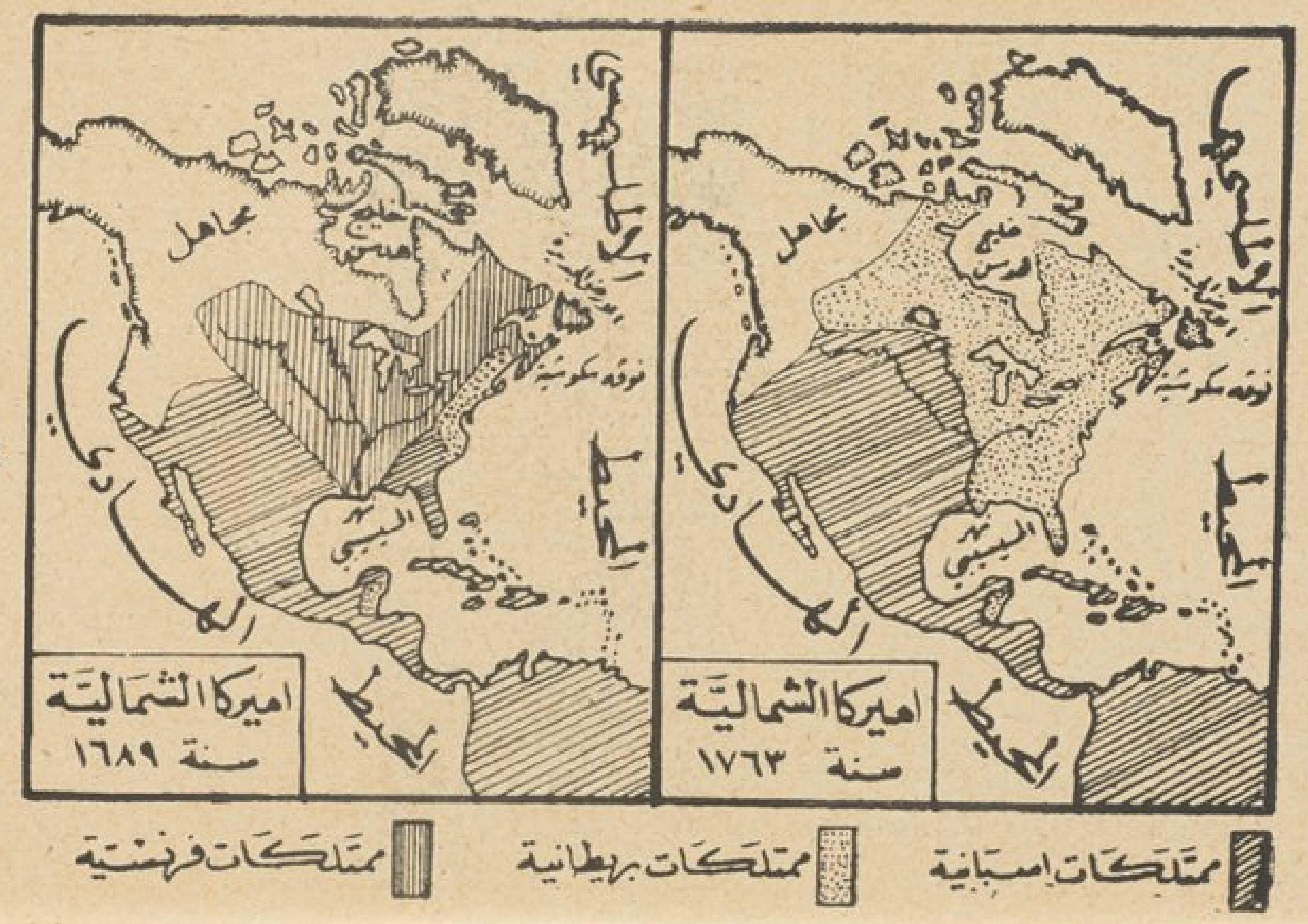
خارجي وهو يمثل المنافسة التجـارية والاستعمارية في ما وراء البحار . وقد تحدثنا في الفصل السابق عن الناحية الاوروبية من هذه الحرب . وسنتكلم الآن عن ناحيتها الخارجية .

ابتدأت هذه الحرب في اميركة الشمالية في سنة ١٧٥٤ بين فرنسة وانكلترة بسبب تزاحمهما على السيطرة على حوض نهر اوهايو. فصارت كلٌّ منهما تسعى الى التحالف مع الدول الكبرى الاخرى خوفاً



معركة بحرية في القرن الثامن عشر

من امتداد الحرب الى القارة الاوروبية. فحالفت انكلترا بروسية، وحالفت النمسا فرنسة والروسيا وغيرهما . وفي سنة ١٧٥٦ تحوّل النزاع الانكليزي - الفرنسي الى حرب عامة اشتركت فيهـا جميع الدول الكبرى وجرت معاركها في اوروبة واميركة والهند



اميركا الشمالية
سنة ١٧٦٣
اميركا الشمالية
سنة ١٦٨٩
المحيط الاطلسي
المحيط الهادي
خليج هدسن
نوفا سكوشيا
المكسيك
ممتلكات اسبانية
ممتلكات بريطانية
ممتلكات فرنسية

وفي الجزر وعلى البحار . وكان النصر بجانب انكلترة وحلفائها . وفي معاهدة باريس (١٧٦٣) التي انتهت بها تلك الحرب خسرت فرنسة جميع ممتلكاتها في اميركا الشمالية إذ اعطت انكلترا كندا وجميع الاراضي الواقعة الى الشرق من نهر المسيسيبي ، واعطت اسبانية جميع الاراضي الواقعة غربي ذلك النهر ، وتنازلت لانكلترة ايضاً عن عدد من جزر الهند الغربية . وفي الهند قضي نهائياً على نشاط فرنسا ونفوذها السياسي واصبح الانكليز سادة الموقف هنـــاك .

كانت خسارة فرنسة فادحة في هذه الحروب الثلاث التي تحدثنا عنها (١٧٣٣ - ١٧٦٣) وكان ربح انكلترة عظيماً إذ اصبح لها في سنة ١٧٦٣ امبراطورية مترامية الاطراف واسواق تجارية غنية بالموارد في معظم انحاء الارض .

ولكن لم يطل الأمر حتى نشبت الثورة الاميركية التي افقدت انكلترة جزءاً من اوسع اجزاء امبراطوريتها واغناها . وسننتقل الآن الى الحديث عن تلك الثورة التي انجبت « الولايات المتحدة الاميركية » .

٥ . الفلاسفة

شهدت القرون الثلاثة التي سبقت القرن الثامن عشر تقدماً عظيماً في العلم والفلسفة . وقد شعر بعض المثقفين ان الواجب الانساني والاجتماعي يحتم عليهم ان يبسطوا الاراء الفلسفية الجديدة وينشروها بين الناس تنبيهاً لأذهانهم وتنويراً لعقولهم . وقد دعيت هذه المحاولة «حركة التنوير» ، ودعي القرن الثامن عشر الذي اشتدت فيه «عصر التنوير» ، ودعي الذين قاموا بها فلاسفة ، لا لانهم جميعهم كانوا فلاسفة بالفعل بل لانهم اخذوا عن الفلاسفة بعض الآراء الاصلاحية الجريئة وشرحوها وزادوا عليها ما وجدوه ضرورياً ، ثم نشروها بواسطة الكتب والنشرات والقصص والروايات التمثيلية والرسائل والاحاديث وغيرها .

وكان المفكرون الفرنسيون اكثر الناس تَقَبُّلاً لتلك الافكار الثورية ، وأبرعهم اسلوباً في شرحها وتبسيطها واوفرهم نشاطاً في نشرها والدعاية لها . ويعود السبب في ذلك الى امرين : **أولاً** ، ان المتعلمين المثقفين الذين يستطيعون فهم تلك الافكار وتقديرها كانوا في فرنسة اكثر عدداً منهم في اية بلاد اوروبية أخرى غير انكلترة ، **وثانياً**، ان نظام الحكم الفرنسي كان يومئذ

استبداداً جائراً يثير النقمة والشكوى في النفوس المتحررة المتنورة .

ومن اشهر الفلاسفة الذين ساهموا بحركة التنوير وانتقدوا انظمة البلاد وطالبوا بالاصلاح اربعة ، وهم : فولتير ، وديدارو ، ومونتسكيو ، وروسو .

(أ) فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨)

مال فولتير منذ نشأته الى الادب فكتب المقالات والروايات التي صوّر فيها المجتمع الفرنسي وانتقد بعض نواحيه باسلوبه الساخر العنيف . فاضطهد وسجن في الباستيل مدة ثم ابعد خارج البلاد وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة .

اختار فولتير انكلترة منفىً له وعاش فيها بضع سنوات ، فاعجب بنظامها الديمقراطي وبالحرية التي يتمتع بها الشعب الانكليزي وخصوصاً حرية الفكر وحرية ابداء الرأي . فزاده ذلك ايماناً برسالته وتصميماً على محاربة الجهل والظلم والاستبداد في بلاده . ولما عاد الى فرنسة نشر كتابه « رسائل عن الانكليز » الذي امتدح فيه نظام الحكم في انكلترة ، ووصف ما يتمتع به الشعب في الجزر البريطانية من حرية واسعة وما حققه بفضل ذلك من تقدم محسوس في مختلف نواحي الحياة . فاعتبرت الحكومة الفرنسية ان في ذلك الكتاب خطراً على سلامة الدولة والكنيسة والاخلاق فأمرت

فولتير

باحراقه. وكان ذلك سبباً في اضطهاد فولتير وتشريده من جديد.

قضى فولتير حياته متنقلاً من بلاد الى بلاد، وكان الملوك والامراء يتهافتون على استقباله ومصادقته نظراً لذكائه الشديد وجرأته النادرة وشهرته الواسعة. وكان بالرغم من تنقلاته دائم التفكير كثير الانتاج. فقد كتب تسعين مجلداً في الادب والتاريخ والسياسة والاجتماع وغيرها. وكانت جميع كتبه ورسائله تشتمل على أمرين رئيسيين وفكرتين بارزتين هما: أولاً، دعوة شديدة الى تمجيد العقل والاعتماد عليه وحده في بناء صرح الدولة والمجتمع. فعلى الناس ان يأخذوا بما يقبله العقل من الحقائق وان ينبذوا جميع ما لا يسلم به كضرب من الخزعبلات والترهات والأوهام. اما الامر الثاني فكان حملة عنيفة على الكنيسة الكاثوليكية وعلى تصرفات رجالها. وكانت حملة فولتير على الكنيسة من اعنف واوسع الحملات التي واجهتها الكنيسة في تاريخها.

(ب) ديدارو (١٧١٣ - ١٧٨٤)


ديدارو

كان ديدارو من أصدقاء فولتير والمعجبين به. وقد رأى، كفولتير، فساد الحالة في ايامه واقتنع بضرورة العمل لاصلاحها عن طريق تنوير العقول ونشر المعرفة بين طبقات الأمة. فتعاون مع عدد من اصدقائه على نشر «دائرة معارف» Encyclopedia تتناول ابحاثها جميع العلوم والفنون.

ولما كان ديدارو وصحبه يتوخون الاصلاح فقد انتقدوا بروح علمية متزنة بعض المساوىء المتفشية في المجتمع كالتعصب الديني ، وتجارة الرقيق ، ونظام الضرائب الفاسد ، ونظام القضاء الجائر وغير ذلك . وكانو يوجهون الافكار بشكل خاص نحو العلوم الطبيعية وما يمكن ان يحققه عقل الانسان فيها من تقدم عظيم.

وبالرغم من الرصانة والاعتدال اللذين تميزت بهما لهجة « دائرة المعارف » فان رجال الكنيسة عارضوها بشدة وسعوا الى منعها لدى الملك والوزراء في سنة ١٧٥٢ . ولكن ذلك لم يمنع ديدارو وزملاءه من متابعة العمل حتى النهاية . وقد اكتملت دائرة المعارف في سبعة عشر جزءاً وساهمت مساهمة كبيرة في تقويض النظام القديم ، وبزوغ عصر الحرية الديمقراطية .

(ج) مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥)


مونتسكيو

كان مونتسكيو محامياً ، لذلك حصر اهتمامه ضمن دائرة اختصاصه ، اي في القانون وتنظيم الدولة . ومن أبرز آثاره في هذا الباب كتابه « روح الشرائع » الذي اشار فيه الى مبدأين اساسيين :

اولاً : ان خير الشرائع وأصلح انظمة الحكم هي التي تتغير بتغير الازمان

والاحوال وفاقاً لحاجات الشعب ومقتضيات الظروف . وثانياً ، ان صيانة الحرية واقامة العدل توجبان ان تُقسم سلطات الدولة الى سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية وسلطة قضائية وان تتولى كل سلطة هيئة مستقلة عن السلطتين الاخريين . ونبّه مونتسكيو قارئيه الى ان جمع هذه السلطات في يد واحدة او طغيان احداها على الاخرى يؤدي في معظم الاحيان الى الظلم والتعسف والاستبداد .

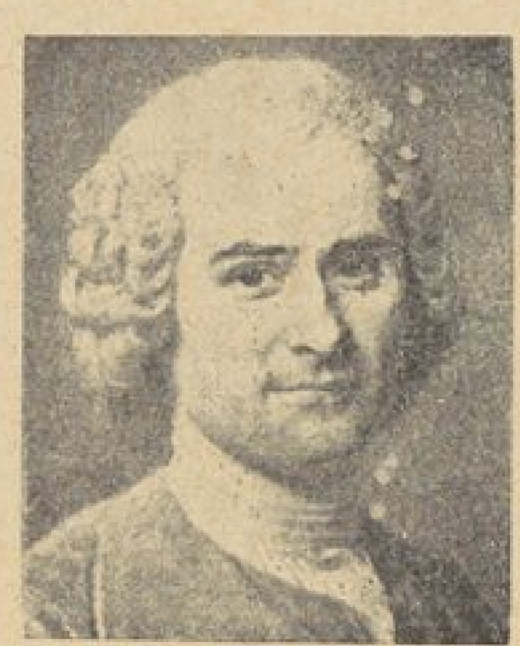
وامتدح مونتسكيو النظام الانكليزي الذي يراعي مبدأ فصل السلطات ومبدأ تغير الاحكام بتغير الازمان ، وانتقد النظام الفرنسي مظهراً ما فيه من مساوىء وآفات . على ان مونتسكيو لم يكن ثورياً في تصرّفه او عنيفاً في نقده ، بل كان رصيناً هادئاً معتدلاً يورد الحقائق ويسرد البراهين ليقنع بها العقل لا ليثير العواطف .

(د) روسو (١٧١٢ – ١٧٧٤)

ان ابلغ الكتاب أثراً ، بعد فولتير ، في تنبيه العقول الى مساوىء النظام القديم واثارة التذمر والشكوى منه بين الناس هو جان جاك روسو . ولروسو بضعة كتب مهمة اشهرها كتاب « العقد الاجتماعي » الذي يتضمن آراء صاحبه في تنظيم الدولة والمجتمع . ويظهر ان آراء روسو في هذا الموضوع شبيهة ، الى حد ما ، بالآراء التي اعرب عنها الفيلسوف الانكليزي جون لوك قبل ذلك باثنتين وسبعين سنة .

تتلخص نظرية روسو في ان الناس جميعهم وُلدوا احراراً

متساوين في الحقوق. وكانوا يعيشون في بادىء الامر عيشة طبيعية بسيطة لا حاكم فيها ولا محكوم ، فيسدّ كل منهم حاجاته بنفسه ويعاون الآخرين في تحقيق رغباتهم اذا شاء . وكانوا جميعهم هانئين سعداء ولكنهم وجدوا ، بعد ان اصبحت المجتمعات كبيرة ان هناك مصالح عامة تهم المجموع بكامله ولا يستطيع فرد او جماعة ان يقوموا بها بالاضافة الى قيامهم باعمالهم الخاصة. فاتفقت كلمة المجموع على اختيار احدهم (او بعضهم) ليتفرغ لخدمة المجتمع ويعنى بادارة شؤونه ، ودعي هذا الفرد (او الجماعة) حاكماً او حكومة . وكان ذلك لقاء شروط معينة هي : اولاً ، ان يترتب على المجموع اطاعة الحكام وتأمين معاشهم . وثانياً ، ان يترتب على الحكام الاخلاص في خدمة المجموع والسهر على صون حريته والمحافظة على ممتلكاته والدفاع عن شرفه و كرامته . هذا معنى التعاقد الاجتماعي الذي نوه به روسو في كتابه . وهو يفترض وجود حاكم يخدم ومحكوم يطيع .



روسو

ولكن ماذا يحدث اذا اخل احد الطرفين بشروط هذا العقد؟ ماذا يحدث اذا تجبّر الحاكم وتكبّر وانصرف عن خدمة المجموع

الى العناية بنفسه واخصائه ؟ بل ماذا يحدث اذا اصبح نظام الحكم الذي اوجده الشعب لأمنه وراحته آلة لاستعباده واستغلاله ؟ يجيبنا روسو عن هذه الاسئلة وامثالها في كتابه بأنه يحق للشعب في تلك الحالة خلع الحاكم وتغيير النظام . فالشعب وحده صاحب السلطة وهو يمنحها من يرى فيه الخير له ، ويستردها ممن لا يحسن التصرف بها بل يسيء استعمالها .

اذا قارنا هذه النظرية بالنظام الذي كان سائداً في فرنسة في ذلك العهد نجد أنها كانت تحريضاً صريحاً على الثورة. وقد اضطهد روسو من اجل هذا التحريض . وأُبعد عن فرنسة عدة سنوات ، ولكن ذلك لم يزد صرخته الا دوياً وكتبه الا انتشاراً .

كانت السبعون السنة الاولى من القرن الثامن عشر غنية بالافكار الجديدة والنظريات المتطرفة ، وحافلة بعدد من الكتاب العظام الذين ساعدوا على نشرها وتقريبها الى افهام الناس . وقد مات معظمهم قبل ان يروا امانيهم تتحقق وقبل ان يعرفوا مدى تأثير تعاليمهم في النفوس . اما نحن فسيتاح لنا ان ننظر في الفصول التالية ما كان لهم من اثر بليغ في مجرى حوادث التاريخ وفي تقدم الحضارة .

٦. تحرير الولايات المتحدة

ونتـــائجـــه

•

١ ـــ لماذا ثار الاميركيون على بريطانيا

ما كادت حرب السنوات السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣) تضع اوزارها حتى ابتدأت بريطانيا تجابه مشكلة جديدة في مستعمراتها الاميركية التي تقع جنوبي كندا. فقداخذ سكان تلك المستعمرات – ومعظمهم من اصل بريطاني – يتذمرون من معاملة بريطانية لهـم . ويخالفون الانظمة والقوانين التي كانت تفرضها عليهم . وكان لتذمر الاميركين وشكواهم اسباب عديـــدة من اهمها الاختلاف في وجهة النظر بين الاميركين والبريطانيين عـــلى وضع البلاد الاميركية وعلاقتها بالبلاد الأم ، اي بريطانيا . فبعض الاميركين كان يعتبر البريطانيين غـــزاة معتدين ويدعو الى مقاومتهم وطردهم من البلاد . اما الذين لم يتطرفوا الى هذا الحد من الاميركين فكانوا يعتبرون انفسهم مـــواطنين بريطانيين وينتظرون ان تعاملهم الحكومة البريطـــانية كذلك فتمنحهم جميع الحقوق والامتيازات التي ينعم بها البريطانيون في بريطانيا

نفسها . ولم تكن هـذه الفئة ترغب في الاستقلال او تفكر في الانفصال عن بريطانية .

أما البريطانيون فلم يعاملوا الاميركيين معاملتهم للمواطنين البريطانيين الاصليين ، بل نظروا اليهم كما كانوا ينظرون الى سكان مستعمراتهم الكثيرة ، وفرضوا عليهم من الانظمة والقوانين ما يضمن مصالح بريطانية السياسية والاقتصادية ، غير عابئين بما تُلحقه تلك المعاملة من اضرار بمصالح اميركا والاميركيين. مثال ذلك قوانين الملاحة التي سنتها بريطانية لتستأثر بتجارة الامبراطورية كلها . فقد جاء في تلك القوانين ان المنتجات الزراعية والصناعية من آسية وافريقية واميركا لا يجوز ان تُحمل الى انكلترة ومستعمراتها الا على سفن انكليزية. ومعنى ذلك انه كان يُحرم على الاميركيين ان يشتروا حاجاتهم من مركب هولندي ولو كانت الاسعار التي يقبل بها التجار الهولنديون دون الاسعار التي يطلبها التجار الانكليز. وكان قانون آخر ينص على ان جميع البضائع الاوروبية المرسلة الى المستعمرات يجب ان تذهب اولاً الى انكلترة ثم ترسل منها على مراكب بريطانية الى اسواق المستعمرات . واذا اراد احد الاميركيين ان يبيع بضاعته في اسواق اوروبة كان يترتب عليه ان يرسلها بمراكب بريطانية عن طريق انكلترة .

ولم تكن قوانين التجار التي فرضتها انكلترة أخف وطأة من قوانين الملاحة . فقد كانت هذه القوانين تحرّم على الاميركيين تعاطي بعض الصناعات وتمنعهم من المتاجرة ببعض الاصناف التي ينتجها الاميركيون او التي هي متوفرة لديهم مثل السكر والقطن

والتبغ والفراء وغيرها . وكان غرض انكلترة من ذلك توفير الارباح الطائلة لرعاياها البريطانيين دون سواهم .

ولكن الاميركيين لم يأبهوا بتلك القوانين ولم يحترموا روحها او نصوصها ، بل كانوا يتاجرون على هواهم ، فيستوردون جميع الاصناف من كل مكان ويصدّرونها الى جميع البلدان المحتاجة اليها. وكانت انكلترة حتى سنة ١٧٦٣ تغض الطرف عن تلك المخالفات ولا تحاسب التجار الاميركيين عليها .

وبعد سنة ١٧٦٣ عدلت حكومة انكلترة عن هذه السياسة وارادت ان يساهم الاميركيون في تغطية نفقات حرب السنوات السبع وان يدفعوا قسماً من المبالغ التي يتطلبها تأليف جيش للمحافظة على ممتلكات انكلترة الواسعة في اميركا الشمالية. ففرضت على الاميركيين بعض الضرائب التي قوبلت بالرفض والاستنكار.

٢ - بدء الثورة

اتخذ الوطنيون المتطرفون من قضية بسيطة ذريعة لبدء اعمال العنف واثارة الراي العام الاميركي ضد بريطانية . ففي سنة ١٧٧٣ رست في مرفأ مدينة بوسطن باخرة بريطانية تحمل شاياً . فصعد اليها خمسون من الشبان الوطنيين المتحمسين ورموا بحمولها من الشاي الى البحر ليعربوا عن سخطهم على الضريبة التي فرضتها بريطانية على الشاي المستورد الى اميركا . فاطلق على تلك الحادثة اسم « حفلة شاي بوسطن » .

وكان بالامكان ان تمر تلك الحادثة بسلام لو لم تتخذ الحكومة

البريطانية تدابير ثأرية ضد الاميركيين . فقد أمرت باقفال مرفأ
بوسطن وشل كل حركة تجارية فيه حتى يُدفع ثمن الشاي المُتلَف.
ولم تكتف بذلك بل قيدت الحكم الذاتي في ولاية
ماسَتْشوسِتْس فحرمت الشعب من انتخاب قضاته وممثليه في
المجلس التشريعي الاعلى ، وجعلت تعيين هؤلاء الموظفين رهناً
بارادة الملك .

٣ـ حرب الاستقلال

(أ) اجتماع الكونغرس ومقرراته

ما ان سمع ابنـــاء المستعمرات الاميركية بالقصاص الذي



وشنطن يشرف على سير احدى المعارك

فرضته بريطانية على مستعمرة ماستشوستس حتى تداعوا الى عقد مؤتمر عام لدرس الحالة وتقرير موقفهم منها .

انعقد المؤتمر في فيلادلفيا سنة ١٧٧٤ (وقد عرف بالكونغرس الاول) ، وقرر مقاطعة انكلترة تجارياً حتى تذعن لمطالب الاميركيين وتنصفهم . ولكن وقع في العام التالي اصطدام مسلح بين الفريقين اظهر فيه الاميركيون من البطولة والمقدرة ما رفع معنوياتهم وشدد عزائمهم . ودعيت المستعمرات على اثر ذلك الى عقد مؤتمر ثانٍ لتنظيم شؤون الحرب التي ابتدأت فعلاً . فألف المؤتمر جيشاً اميركياً منظماً وعهد بقيادته الى مزارع من ولاية فرجينيا اسمه جورج وشنطن .

(ب) اعلان الاستقلال (٤ تموز سنة ١٧٧٦)

كان الاميركيون حتى سنة ١٧٧٦ ينقسمون من الناحية السياسية الى ثلاث فئات متعادلة تقريباً هي : اولاً ، فئة الوطنيين ، وكانت تطلب الاستقلال الكامل والانفصال التام عن انكلترة . وثانياً ، فئة الموالين ، وكانت ترغب في الابقاء على العلاقات والروابط القديمة مع انكلترة . وثالثاً ، فئة الحياديين ، وهم الذين لم يتحمسوا لاحدى هاتين الفكرتين . ومع ان الوطنيين كانوا اقلية بالنسبة الى عدد السكان فان نشاطهم واندفاعهم وسعيهم لتحقيق فكرتهم جعلتهم يسيطرون على الموقف ويحملون اعضاء المؤتمر السنوي الثالث الذي انعقد سنة ١٧٧٦ على ان يعلنوا في اليوم الرابع من تموز «ان هذه المستعمرات المتحدة هي حرة ومستقلة ، وأنها في الحق يجب ان تكون كذلك . وانها قد حلت نفسها من اي

ولاء للعرش البريطاني . وان كل علاقة سياسية بينها وبين بريطانية العظمى قد انقطعت » .

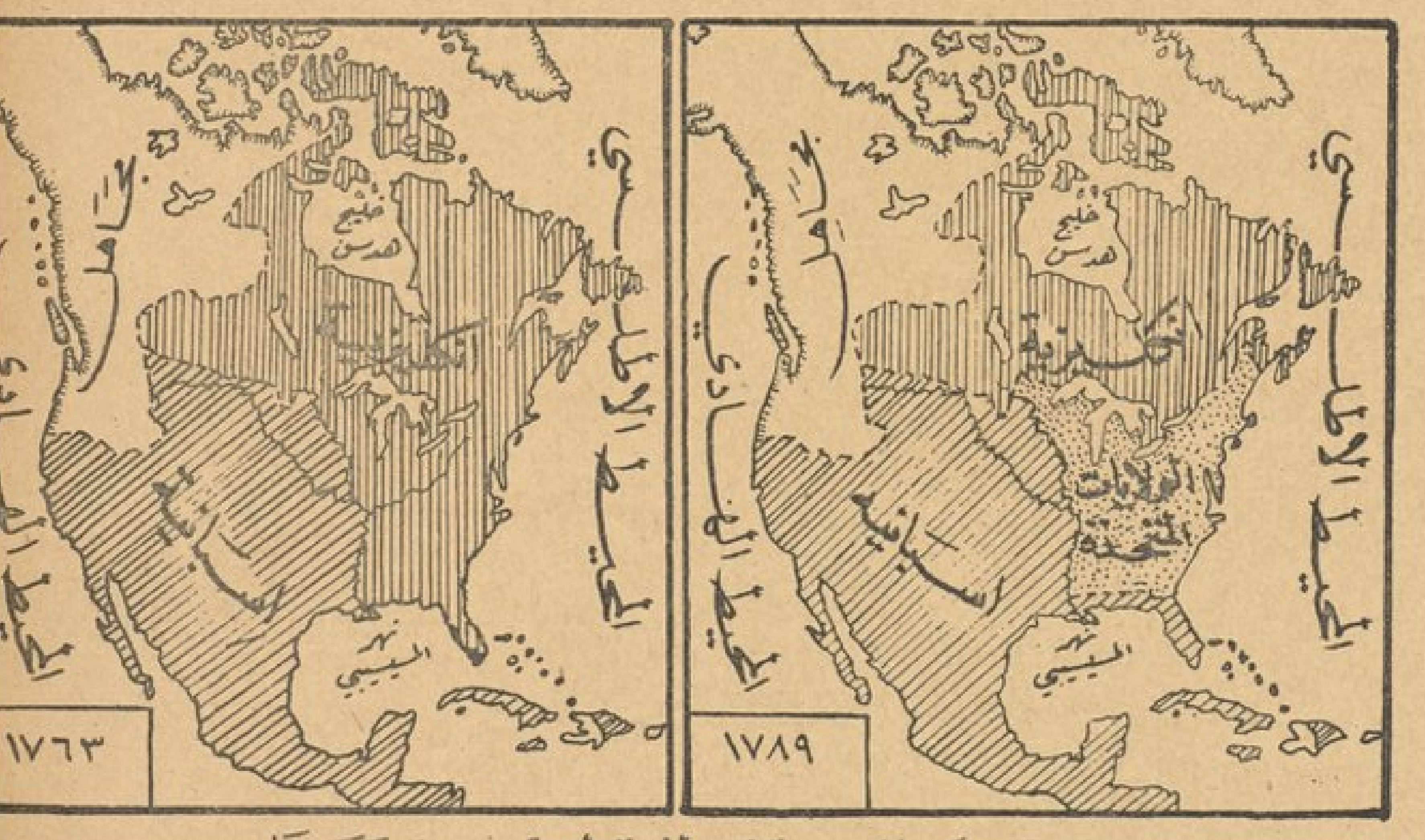
(ج) المساعدة الفرنسية

كانت فرنسة عدوة بريطانية منذ حرب السنوات السبع ، لذلك كانت تشجع الاميركيين على الثورة ضد البريطانيين . ولكن لما انتصر الاميركيون على البريطانيين في بعض المعارك اعترفت فرنسة بحكومة الولايات المتحدة وعقدت تحالفاً معها . وحذت اسبانية وهولندة حذو فرنسة واعلنتا الحرب على انكلترة رغبة منهما في تحطيم قوة انكلترة البحرية واقتسام ممتلكاتها الواسعة . وذهب المركيز لافاييت على رأس فرقة من المتطوعين الفرنسيين الى مساعدة الاميركيين ثم تبعهم الاسطول والجيش الفرنسيان واشتركوا جميعاً اشتراكاً فعلياً في الاعمال الحربية .


لافاييت

والجدير بالذكر ان الرأي في انكلترة كان منقسماً حول الحرب في اميركا . فبعض اعضاء البرلمان وقسم من الرأي العام كانوا يعطفون على الاميركيين ولا يريدون ان يؤخذوا بالشدة ويخضعوا بالعنف . من اجل ذلك وغيره من الاسباب لم يبذل الانكليز كل جهدهم في تلك الحرب.

وفي سنة (١٧٨١) عندما استسلمت قوات بريطانية مهمة الى



اميركا الشمالية قبل الثورة الاميركية وبعدها

الاميركيين في يوركتون دخلت حرب الاستقلال في دور التصفية وابتدأت الجيوش الانكليزية بالانسحاب من الولايات المتحدة .

٤ - معاهدة الصلح

انتهت حرب الاستقلال رسمياً بمعاهدة الصلح التي عقدت في فرساي (قرب باريس) في ايلول سنة ١٧٨٣ . وقد اعترفت فيها انكلترة باستقلال الولايات المتحدة الاميركية وبنهر المسيسبي حدوداً غربية لها . ومعنى ذلك انها تنازلت للدولة الجديدة عن جميع الاراضي الواقعة بين جبال ابلاتشيان ونهر المسيسبي ، ومنحت الاميركيين ايضاً حق صيد السمك قرب شواطىء كندا . فكان لهذا التساهل من انكلترة صدى استحسان في اميركة .

واعادت انكلترة الى اسبانية مستعمرة فلوريـــدا وجزيرة مينورقة (في المتوسط) ، والى فرنسة السنغال وبعض جزر الهند الغربية . فاستطاعت فرنسة بذلك ان تثأر من انكلترة وان تمحو بعض العار الذي لحقها بسبب حرب السنوات السبع .

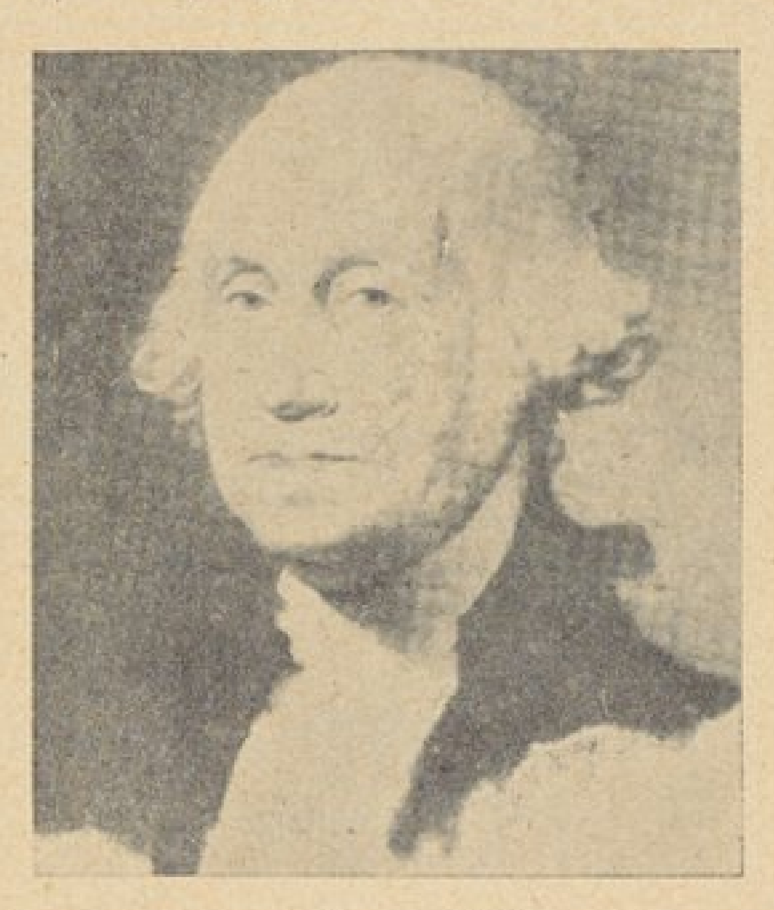
٥ - نتائج الثورة الاميركية

(أ) ظهور دولة جديدة

من اهم نتائـج الثورة الاميركية وابرزهـــا ظهور الولايات المتحدة الاميركية ، وهي اول دولة مستقلة في العالم الجديد . وكانت تتألف في بادىء الامر من ثلاث عشرة ولاية مستقلة .

وفي سنة ١٧٨٩ انتخب جورج وشنطن اول رئيس لجمهورية

الولايات المتحدة الاميركية اعترافاً بفضله وتقديراً لخدماته ومؤهلاته . ودرجت الولايات المتحدة في سبل التقدم والنجاح



جورج وشنطن

حتى اصبحت في الوقت الحاضر في مقدمة الدول العالمية الكبرى.

(ب) تشجيع الآخرين على الثورة

كان للثورة الاميركية ، وخصوصاً بعد ان تكللت بالنجاح، تأثير عظيم في اوروبة واميركة . فان قيام حكومة ديمقراطية لا ملوك فيها ولا نبلاء ولا اصحاب امتيازات حمل الشعوب الاوروبية على التفكير في اوضاعها الخاصة وأوجد سابقة خطرة

بالنسبة الى الانظمة الاستبدادية التي كانت قائمة في ذلك الزمان .
وان من ينظر في وثيقة « اعلان الاستقلال » التي ترجمت الى عدة لغات يجد انها كانت منبهاً قوياً للشعوب المغلوبة على امرها وحافزاً لها على المطالبة بالحرية والاستقلال . ويبدو اثر استقلال الولايات المتحدة الاميركية جلياً في الثورات التي نشبت بعدها في اوروبة واميركة .

٠٧ الثورة الفرنسية

اسبابها

١ - طبقات الشعب ونظام الحكم

كان الشعب الفرنسي في اواخر القرن الثامن عشر يقسم الى ثلاث طبقات هي : الطبقة الاولى وتتألف من رجال الدين ، والطبقة الثانية وتتألف من الأشراف ، والطبقة الثالثة وتتألف من عامة الشعب . وقد عاملت الحكومة افراد الطبقتين الاولى والثانية معاملة خاصة فمنحتهم المساعدات والامتيازات واحتفظت لهم بجميع الوظائف الكبيرة . اما الطبقة الثالثة فكانت



صورة كاريكاتورية تمثل الطبقات الثلاث

محرومة من الامتيازات ومرهقة بالضرائب الباهظة والواجبات الكثيرة .

وكان الملك فوق هذه الطبقات جميعها يحكم حكماً استبدادياً ظالماً ، فيفعل ما يشاء ويعتبر ان سلطته مستمدة من الله وان طاعة الرعية له واجبة دون مناقشة او اعتراض .

٢ - الضرائب الباهظة

كان الاشراف ورجال الدين الذين يملكون نصف الاراضي مُعفَيْن من قسم كبير من الضرائب ، وكانوا يهربون من دفع القسم الباقي ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

اما ابناء الطبقة الثالثة فكان عليهم ان يدفعوا للدولة جميع الضرائب ، وان يقدموا فوق ذلك ضريبة الأعشار للكنيسة وعدداً من الضرائب الأخرى للاشراف والاقطاعيين ، وان يقوموا ببعض اعمال السخرة للدولة كتعبيد الطرق وبناء الجسور.

٣ - الفلاسفة

ان مبادىء الحرية والاخاء والمساواة والاصلاح التي بشر بها الفلاسفة ، الذين تحدثنا عنهم وعن آرائهم في الفصل الخامس ، انتشرت في الاوساط الشعبية الفرنسية ، وخصوصاً بين المتعلمين ، وكانت من اهم الاسباب التي دفعت الناس الى الثورة .

٤ - نجاح الثورة الاميركية

شجع نجاح الثورة الاميركية الفرنسيين على الثورة ضد الملك

ورجال الدين والاشراف . فقد ضربت تلك الثورة مثلاً رائعاً لما يمكن ان يفعله كل شعب مستعبد مظلوم .

وساعدت الثورة الاميركية على نشوب الثورة الفرنسية لأن ما انفقه الفرنسيون على مساعدة الاميركين في حربهم ضد البريطانيين عجّل في انهيار الحالة المالية وانفجار الثورة .

٥ ـ انهيار الحالة المالية

اشرفت الخزينة الفرنسية على الافلاس في مطلع حكم لويس السادس عشر وفي اثناء الثورة الاميركية . فحاول وزراء المال الذين انتدبهم الملك لاصلاح الحال ان يلغوا بعض امتيازات رجال الدين والاشراف وان يجبوا منهم الضرائب التي كانوا مُعفَين منها . فرفض هؤلاء التنازل عن امتيازاتهم السابقة واقنعوا الملك بوجهة نظرهم .



لويس السادس عشر

ولما زادت الحالة المالية سوءاً اضطر الملك الى ان يذعن لارادة الشعب ويدعو مجلس طبقات الامة الى الاجتماع لبحث الحالة الخطيرة وايجاد علاج سريع لها .

التأم مجلس طبقات الأمة في ٥ ايار سنة ١٧٨٩ ، وقبل ان

يباشر اعماله اختلف اعضاؤه على طريقة الاجتماع وطريقة التصويت. فقد اراد ابناء الطبقات العليا والملك ان يجتمع ممثلو كل طبقة على حدة وان يكون لهم صوت واحد من ثلاثة اصوات. وغرض الملك والاشراف وكبار رجال الاكليروس من ذلك هو ان يضمنوا السيطرة التامة على الشعب. فلم يقبل ممثلو الشعب بذلك وطلبوا ان يجتمع ممثلو جميع الطبقات في مجلس وطني واحد يكون لكل عضو فيه صوت واحد، وترضخ الأقلية لقرارات الاكثرية. ولما اصر ممثلو الطبقات العليا على موقفهم اجتمع ممثلو الطبقة الثالثة ومن ايّدهم من الاكليروس والاشراف واعلنوا انفسهم « جمعية وطنية » شرعية لانهم ينطقون باسم ٩٦ بالمئة من مجموع الفرنسيين. فكان هذا القرار الخطير اول خطوة عملية في طريق الثورة.

٨ · الثورة الفرنسية

حوادثها ونتائجها

•

١ - دور الجمعية الوطنية ١٧٨٩ ـ ١٧٩١

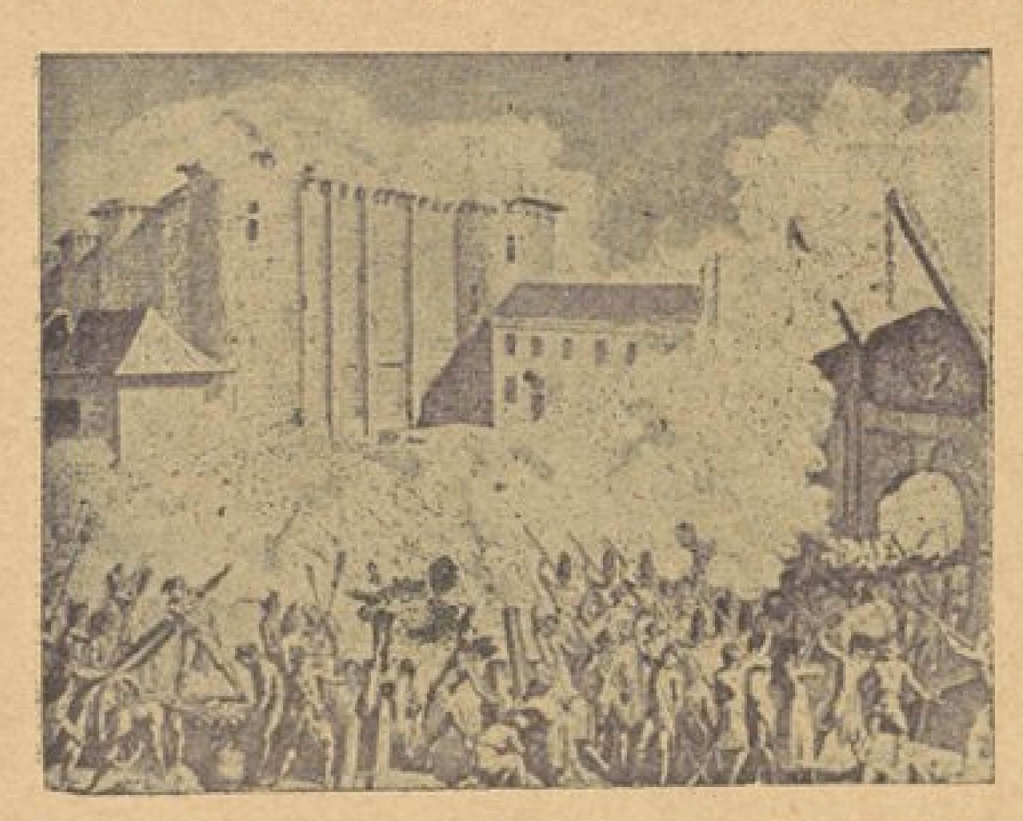
(أ) تأليفها وغرضها

كانت الجمعية الوطنية تتألف من الاعضاء الذين انتخبهم الشعب ليمثلوه في مجلس طبقات الامة ومن بعض الاعضاء الآخرين الذين انضموا اليهم من بين ممثلي الاشراف ورجال الدين . وقد حاول الملك منعهم من الاجتماع ولكنهم اقسموا اليمين على ان يواصلوا العمل حتى يضعوا دستوراً للبلاد يحد من سلطة الملك وينيل الشعب حقوقه . فاضطر الملك اخيراً الى الاذعان والى مسايرة الشعب مكرهاً .

(ب) تدهور حالة الأمن وبدء الاصلاح

دفعت الحماسة بعض المتطرفين من الباريسيين الى القيام بمظاهرات صاخبة ضد الملك واعوانه . وفي ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ هاجم المتظاهرون سجن الباستيل رمز السلطة المطلقة والاستبداد فهدموه وازالوه من الوجود . ويعتبر الفرنسيون سقوط الباستيل

رمزا لسقوط النظام القديم و لبزوغ عهد الحرية . وهم لا يزالون حتى اليوم يحتفلون حكومة وشعباً بعيد الحرية في ذلك النهار .



الهجوم على الباستيل

وسمع الفلاحون في الارياف بما جرى في باريس فثاروا بدورهم على الاقطاعيين فنهبوا قصورهم واحرقوا مزارعهم . ولما رأى اعضاء الجمعية الوطنية حالة الأمن تتدهور الى هذا الحد اسرعوا في اصدار سلسلة من الاصلاحات لتهدئة خواطر الشعب . فالغوا امتيازات الطبقات العليا ، واذاعوا « اعلان حقوق الانسان » الذي يعترف بالمساواة بين جميع المواطنين ، وبحقوق الانسان وحرياته ، وبالشعب مصدراً لجميع السلطات . ثم صادروا املاك

الكنيسة وجعلوا رجال الدين خاضعين للدولة وليس للبابا كما في السابق .

(ج) المهاجرون

بعد وقوع هذه الحوادث ونشر هـذه القوانين والاعلانات ادرك الاكليروس والاشراف المتمسكون بامتيازاتهم وبالنظام القديم ان كل امل بالتفاهم مع الجمعية الوطنية قد انقطع . فغادروا فرنسة الى البلدان المجاورة وراحوا يتجمعون قرب الحدود . وكانوا يسمون «مهاجرين». وفكر شقيق الملك دوق ارتوا الذي كان على رأسهم ان يجهز منهم جيشاً ليقتحم به فرنسة ويقضي على الثورة فيها .

واراد الملك ان يلتحق بالمهاجرين ، فتنكر وحاول الفرار من فرنسة في سنة ١٧٩١ . ولكن امره افتضح قرب الحدود فقبض عليه مع افراد أسرته واعيدوا الى باريس .

(د) دستور سنة ١٧٩١

كانت الجمعية الوطنية ، بالاضافة الى عنايتها بادارة دفة الحكم واجراء الاصلاحات التي تحدثنا عن بعضها ، تُعنى بوضع دستور للبلاد . ولما انتهت الجمعية الوطنية من وضعه في صيف ١٧٩١ دعت الامة الى انتخاب « المجلس التشريعي » الذي ينص عليه الدستور الجديد . ولكي يُظهر اعضاء الجمعية الوطنية تجردهم قرروا الا يخوضوا الانتخابات المقبلة ، فضربوا بذلك مثلاً رائعاً في التضحية ، ولكنهم حرموا المجلس الجديد من عدد كبير من اصحاب الخبرة الواسعة في قضايا الثورة .

٢ - دور المجلس التشريعي (١٧٩١ - ١٧٩٢)

كانت المهمة الموكولة الى المجلس التشريعي جسيمة . فالموقف الداخلي لم يكن يدعو الى الاطمئنان لان اعداء الثورة كانوا كثيرين . وكان الموقف الخارجي يبعث على القلق لان المهاجرين الذين بلغ عددهم مئة وخمسين الفاً كانوا يتسلحون ويحتشدون على الحدود استعداداً للزحف على فرنسة . وكانت النمسا تعطف عليهم وتساعدهم جهاراً .

استعمل المجلس التشريعي الشدة والحزم مع اعداء الثورة الداخليين واجبرهم على الاخلاد الى السكينة . ثم اشتبك في الحرب مع النمسا ، ولما انهزمت الجيوش الفرنسية اتهم بعض الفرنسيين المتطرفين الاسرة المالكة بافشاء اسرار الجيش للعدو . واتفق في ذلك الوقت ان وجّه قائد الجيوش العدوة المتقدمة نحو باريس انذاراً الى الشعب الفرنسي يهدده فيه بأقصى العقوبات اذا اصيب احد افراد الأسرة المالكة بسوء . وكأن هذا الانذار اتى في ذلك الوقت ليثبّت شكوك الفرنسيين بالاسرة المالكة .

استغلت جماعة من المتطرفين تعرف باليعاقبة هذه الحادثة وما عقبها من انفجار غضبة الشعب فهاجمت بلدية باريس واقصت اعضاء مجلسها «الكومیون» وعينت مكانهم بعض المتطرفين . واصبح الكومیون الجديد الحاكم الحقيقي في فرنسة لان المجلس التشريعي لم يعد يستطيع ان يرد له طلباً . وقد نجح الكومیون اولاً ، في منع الملك من المشاركة في الحكم الى ان يبت في أمره ، وثانياً ، في اضعاف المقاومة الداخلية بتقتيل بضعة آلاف من المساجين اعداء

الثورة ، وثالثاً ، في الانتصار على الجيوش المهاجمة وردها على اعقابها ، واخيراً ، في حمل المجلس التشريعي على القبول بدعوة الشعب لانتخاب مجلس تأسيسي ليضع دستوراً جديداً يكون شكل الحكم فيه جمهورياً لا ملكياً .

ولما جرت الانتخابات انحل المجلس التشريعي وتسلم المجلس الجديد ، الذي دعي المؤتمر الوطني زمام الحكم .

٣ - دور المؤتمر الوطني (١٧٩٢ - ١٧٩٥)

(أ) إعلان الجمهورية واعدام الملك

اجتمع المؤتمر الوطني لاول مرة في ايلول سنة ١٧٩٢ وقرر



لويس السادس عشر ساعة الاعدام

الغاء النظام الملكي واعلن فرنسة دولة جمهورية . ثم اتهم الملك لويس السادس عشر بالخيانة العظمى وقرر اعدامه ، فاعدم في مطلع سنة ١٧٩٣ .

(ب) التحالف ضد فرنسة

كان لاعدام الملك رد فعل شديد في اوروبة . فقد تشكل تحالف دولي من بريطانية والنمسا وبروسية واسبانية وهولندة وسردينية والبرتغال ضد فرنسة . فأمست فرنسة في مطلع صيف سنة ١٧٩٣ مهددة بالغزو من الخارج وبالثورة من الداخل كما كانت في الصيف السابق .

(ج) لجنة الأمن العام وعهد الأرهاب

وجد المؤتمر الوطني ان حالة البلاد تستلزم وضع السلطة بيد هيئة قليلة العدد تستطيع ان تقرر وتنفذ بسرعة . لذلك انتخب لجنة من تسعة اعضاء * أطلق عليها اسم « لجنة الأمن العام » ومنحها صلاحيات ديكتاتورية واسعة لتحافظ على الأمن في الداخل ولترد خطر الغزو من الخارج . وكان اعضاء هذه اللجنة من المتطرفين (الجبليين) فباشروا حكمهم بالبطش والارهاب، ولما عارضهم المعتدلون (الجيروندبون) طردوهم من المؤتمر الوطني وسجنوهم ونكلوا بهم . ولما حاول أنصارهم في مناطق ليون ومرسيلية وبوردو وغيرها ان يثوروا على حكومة الأرهاب اخضع الجيش تلك الثورة بمنتهى القسوة ، وتشكلت

(*) ثم من ١٢ فيما بعد .

محاكم خاصة تدعى « محاكم الثورة » لمحاكمة المتهمين فقضت تلك المحاكم بالاعدام على عشرين الفاً تقريباً من الأشراف ورجـال الدين والزعمـاء المعتدلين وغيرهم . وقد عُرف هـذا العهد بعهد الأرهاب وكان بطله روبسبيير . وقـد دام حتى صيف سنة ١٧٩٤ حين قتل روبسبيير وعاد المؤتمر الوطني الى سياسة التعقـل والاعتدال والى وضـع دستور جديد يناسب حالة البلاد . وفي خريـف سنة ١٧٩٥ فرغ المؤتمر الوطني من وضع الدستور فحلّ نفسه.

روبسبيير

ولا بد من الاشارة الى ان المؤتمر الوطني كان قد نجح في رد الخطر الخارجي عن فرنسة كما نجح في إخماد الفتنة الداخلية بالارهاب . وان الجيش الفرنسي لم يكتف برد الجيوش العدوة الى ما وراء الحدود بل تعقبها واستولى على البلاد المنخفضة ونيس وسافوا ومنطقة الرين .

٤ - حكومة الادارة (Directoire) (١٧٩٥ - ١٧٩٩)

سميت الحكومة التي خلفت « المؤتمر الوطني » « حكومـة الادارة » لان الدستور الجديـد أناط رئاسة السلطة التنفيذية

بالادارة وهي هيئة مؤلفة من خمسة مديرين ينتخبون لمدة خمس سنوات . اما السلطة التشريعية فكانت تتألف من مجلسين هما مجلس الخمسمئة ومجلس الشيوخ . فالأول كان يضع مشاريع القوانين والثاني ينظر فيها ويقرها .

ولم تكن حكومة الادارة موفقة في اعمالها ، وكان عهدها من اكثر عهود الحكم اضطراباً وضعفاً وفوضى .

٥ - نتائج الثورة الفرنسية

كان للثورة الفرنسية بعض النتائج الحسنة التي لم تنحصر فائدتها في فرنسة وحدها وانما امتدت الى اوروبة والعالم اجمع . وسنتحدث الآن باختصار عن اربع من اهم تلك النتائج الحسنة .

(أ) الغاء النظام القديم

من اهم اعمال الثورة انها قضت على النظام القديم وما فيه من مساوىء وشرور ، وأسست عهداً يرتكز على مبادىء الحرية والاخوة والمساواة . فالغت الملكية المطلقة وجعلت السلطة بيد الشعب يمارسها بواسطة المجالس النيابية ورؤساء الجمهوريات او الملوك المقيدين بالدساتير . والغت كذلك نظام الطبقات والامتيازات وما كان باقياً من القيود الاقطاعية ، وجعلت الفرنسيين جميعاً متساوين في الحقوق والواجبات امام القانون .

(ب) توحيد فرنسة والاصلاح الاداري

وقامت الثورة بعمل عظيم ايضاً حين الغت الجمعية الوطنية النظام الاداري القديم الذي كان يقسم البلاد الى شبه دويلات

صغيرة ، واستبدلت به نظاماً ادارياً جديداً يوحد فرنسة ويجعل حكومتها مركزية حقاً . ولا يزال هذا النظام الاداري نفسه ، مع قليل من التعديل ، سارياً في فرنسة حتى الوقت الحاضر .

(ج) الاصلاح المالي

وكان الملك قبل الثورة يتسلم جميع اموال الدولة وينفقها على هواه دون محاسب او رقيب . فأدى ذلك بالنتيجة الى افلاس الخزينة . وحاولت حكومة الثورة اصلاح الحال فجعلت للدولة خزينة مستقلة تودع فيها اموالها ، وألفت ادارة خاصة لضبط الحسابات والتدقيق فيها . وعدّلت نظام الضرائب فألغت المجحف منها ووزعت الباقي توزيعاً عادلاً على الجميع .

(د) النظام المتري

وألغت الثورة كذلك جميع أنواع المكاييل والموازين والمقاييس المختلفة التي كانت شائعة في فرنسة في العهد القديم واستعاضت عنها بنظام موحّد جديد يجمع بين الدقة والبساطة وسهولة الاستخدام . فقد توصل العلماء في أيام المؤتمر الوطني الى استنباط النظام المتري – العشري – ووحداته المتر في المقاييس ، والكيلو في الموازين ، والليتر في المكاييل . فلاقى هذا الاستنباط استحساناً عظيماً واقتبسته عن فرنسة معظم دول العالم .

٩ . نابوليون بونابرت
وتطاحن الدول الاوروبية

•

١ - نابوليون وحكومة الادارة

ولد نابوليون في مدينة اجاكسيو عاصمة جزيرة كورسيكا في سنة ١٧٦٩ ، وتلقى علومه العسكرية في فرنسة . وبرهن في ايام الثورة عن مهارة كبيرة في قيادة الجند فرقي الى رتبة لواء (جنرال) وهو في السادسة والعشرين من عمره .

وفي سنة ١٧٩٦ تجدد القتال بين فرنسة والنمسا فعهدت حكومة الادارة الى نابوليون بقيادة الجيش الفرنسي المرابط على حدود ايطالية . فاحرز نابوليون انتصاراً باهراً على النمساويين وطردهم من شمالي ايطالية ثم تبعهم الى الاراضي النمساوية نفسها، فاضطروا الى التسليم والتنازل لفرنسة عن البلاد المنخفضة النمساوية وضفة نهر الرين اليسرى ولومبرديا في شمالي ايطالية . فابتهج الشعب الفرنسي بهذه الانتصارات واستقبل نابوليون عند عودته استقبال الفاتحين .

وفي اواسط سنة ١٧٩٨ ارسلت حكومة الادارة نابوليون

على رأس حملة عسكرية لاحتلال مصر لكي يقطع على بريطانية طريقها الى الهند . فنزل نابوليون وجنوده في مرفأ ابي قير شرقي مدينة الاسكندرية . وبعد معركة الاهرام (١٧٩٨) ضدالمماليك خضعت مصر لنابوليون . وتقدم منها الى فلسطين ووصل شمالاً



نابوليون في مصر

حتى مدينة عكا التي صدته عنها حصونها المنيعة .

وفي اثناء غياب نابوليون في مصر تألبت الدول الاوروبية على فرنسة ، فهزمتها واستردت منها ما كان نابوليون قد كسبه . ولما علم نابوليون بذلك ترك مصر وأسرع عائداً الى فرنسة ، فوجد حكومة الادارة ضعيفة منقسمة على نفسها . فعزلها بالقوة في سنة

١٧٩٩ وجعل مكانها حكومة مؤلفة من ثلاثة قناصل ، وتقلد هو منصب القنصل الأول وكان يتمتع بصلاحيات واسعة جداً . وقد أيد الشعب الفرنسي هذا التدبير .

٢ - عهد القنصلية

وبعد ان تولى نابليون السلطة واصبح قنصلاً اهتم بدفع الخطر عن فرنسة . فقد ذكرنا ان الدول الاوروبية ، وخصوصاً النمسا ، استرجعت اثناء وجوده في مصر جميع الاراضي ، تقريباً ، التي كان قد غنمها منها . فجهز نابليون في السر جيشاً قوياً واجتاز به جبال الألب ، كما فعل هنيبعل الفينيقي من قبل ، فوصل الى شمال ايطالية وفاجأ النمساويين وانتصر عليهم في معركة «مرنجو» سنة ١٨٠٠ فاضطرت النمسا ان تعيد الى فرنسة ما كسبته منها وان توافق على التدابير التي اتخذتها فرنسة من اجل تأمين سلامتها .

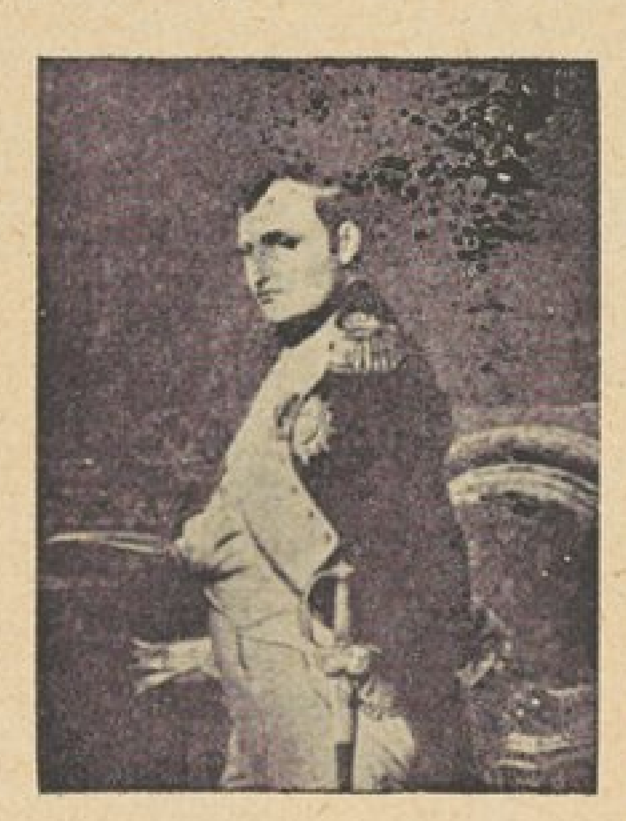
وبعد انتهاء هذه الحرب مع النمسا ساد السلم فترة من الزمن في اوروبة . فقد تصالح نابليون مع جميع اعدائه تقريباً حتى بريطانية . ثم انصرف الى تحقيق الاعمال العمرانية وحل بعض المشاكل التي كانت معلقة منذ ايام الثورة ، فأنهى الخلاف مع الكنيسة واصدر عفواً عن المهاجرين وألغى بعض القوانين المتطرفة التي كانت الثورة قد اقرتها .

وعلى الجملة فقد كانت هذه الفترة من السلم من اخصب ايام نابليون وانفعها لفرنسة وللحضارة العالمية . ولكنها لم تدم طويلاً لان الحرب تجددت بين فرنسا وبريطانية في اواسط سنة ١٨٠٣

٣ - عهد الامبراطورية

(أ) اعلان الامبراطورية

عندما اصبح نابليون سيد فرنسة بدون منازع ألغى نظام القنصلية وتوج نفسه امبراطوراً في سنة ١٨٠٤ في كنيسة «نوتر دام» بباريس بحضور البابا. وكان اول ما عني به بعد ان اصبح امبراطوراً مسألة الحرب مع بريطانية. فقد عزم على غزو بريطانية وأعد العدة لذلك. ولكن انتصار الاميرال نلسن البريطاني



الامبراطور نابليون بونابرت

على الاسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر في سنة ١٨٠٥ جعل نابليون يدرك عجز قواته البحرية وعدم تمكنه من الوصول الى بريطانية لمحاربتها في عقر دارها.

(ب) الحروب مع النمسا ونتائجها

بينما كان نابوليون يتهيأ لغزو بريطانية كانت حكومتها تقنع

الدول الاوروبية بالدخول معها في حلف لمحاربة فرنسة . ولما قبلت النمسا عرض بريطانية زحف نابوليون عليها فهزم جيشها في معركتي « أولم » و « اوسترليتز » ودخل عاصمتها فيينا في سنة ١٨٠٥ ، وفرض عليها شروطاً قاسية للصلح .

وكان للتغييرات الاقليمية التي اجراها نابوليون نتيجة لهذه الحرب وما سبقها من حروب مع النمسا تأثير كبير في تاريخ اوروبة الوسطى ، لانه ساعد على توحيد المانية . فبعد ان كانت قبل نابوليون تتألف من حوالى ثـلاثمئة ولاية اصبحت في ايامه تتألف من ثمانٍ وثلاثين ولاية فقط .

(ج) نابوليون يخلق دويلات جديدة

وفي العام التالي ١٨٠٦ وقـع خلاف بـين نابوليون وبروسية . فتقدمت الجيوش الفرنسية بسرعة خاطفة وهزمت البروسيين في معركة « يينا » واحتلت عاصمتهم برلين . فانسحب فريدريك وليم الثالث ملك بروسية الى ناحية الشرق لكي ينضم الى حليفته الروسية التي ارسلت جيشاً لنجدته . ولكن نابوليون لحقهم الى بروسية الشرقية وهـزم الروس والبروسيين معاً في معركة فريدلند سنة ١٨٠٧ . فعامل النمسا بقسوة اذ اقتطـع بموجب نصوص معاهدة تلزيت جميع اراضيها التي تقع غربي نهر الألب وجميع الاراضي التي غنمتها في التقسيمين الثاني والثالث من بولندة ، وصنع من ذلك دويلات جديدة نصب على عروشها بعض اقربائه واصدقائه .

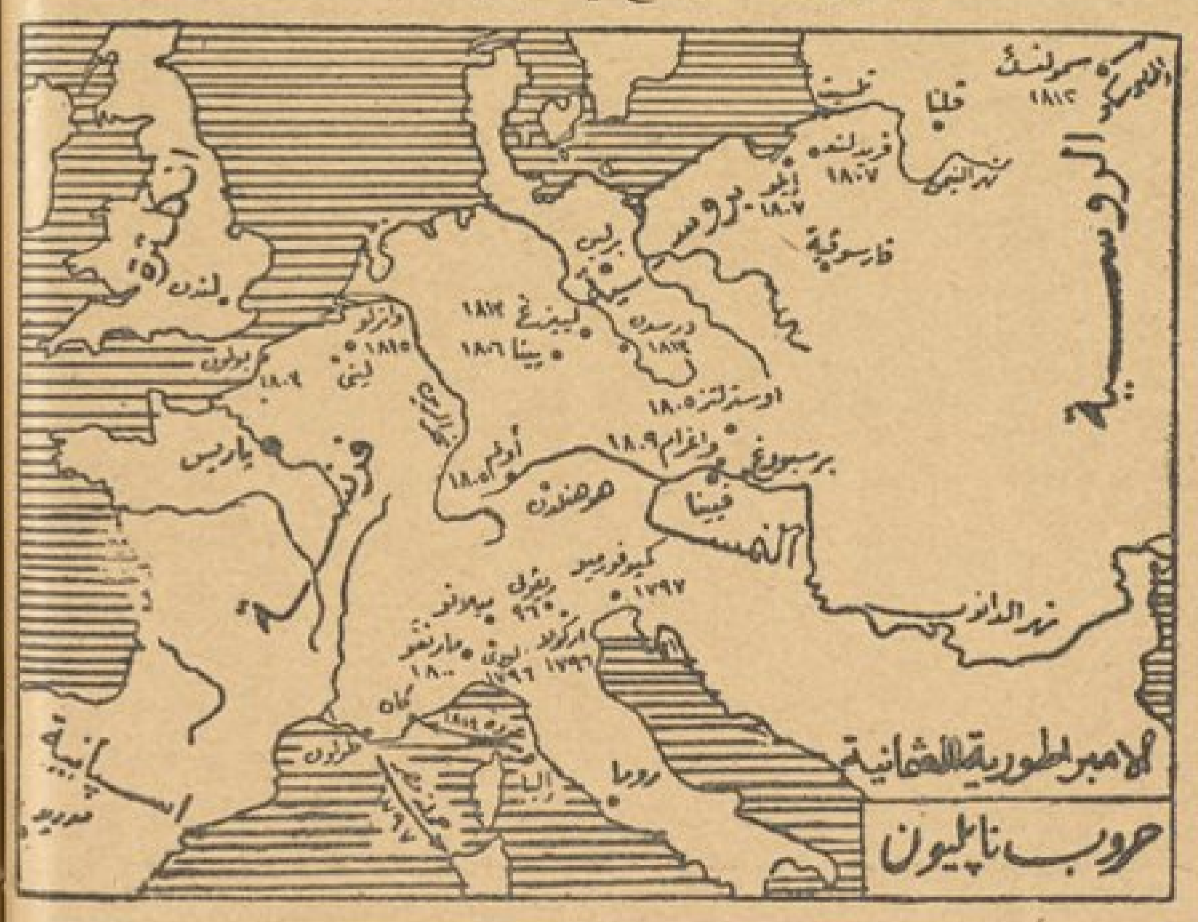
(د) الحصار القاري والحرب الاسبانية

لما اخضع نابوليون اوروبة كلها تقريباً لسيطرته وعجز عن

بريطانية عمد الى محاربتها اقتصادياً . فحرّم على جميع الدول الاوروبية المتاجرة معها . وردت عليه بريطانية بالمثل فمنعت المتاجرة مع فرنسة وضربت حصاراً على القارة الأوروبية .

وكانت البرتغال صديقة بريطانية فلم تنقطع عن التعامل معها . فاتفق نابليون مع حليفته اسبانية على غزوها واقتسامها بينهما . وفي سنة ١٨٠٧ نفذا هذه الخطة بنجاح .

ولكن نابليون كان يطمع في اسبانية نفسها،فابقى جيشه فيها



حروب نابليون

واجبر ملكها على التنازل عن العرش وتوّج اخاه جوزيف ملكاً

عليها في سنة ١٨٠٨ . فأثار هذا التصرف شعور الشعب الاسباني الذي هبّ لمحاربة الفرنسيين . لم تنته هذه الحرب بسرعة ، بل استمرت عدة سنوات بشكل حرب عصابات وكلفت فرنسة ثمناً باهظاً ، وكانت اول خطوة نحو انهيار نابوليون .

(ﻫ) بريطانية تثير النمسا والروسيا على نابوليون

عندما كان نابوليون منهمكاً في اخضاع الثورة الاسبانية هبت النمسا للانقضاض عليه بتحريض من بريطانية . فترك اسبانية وتوجه اليها فقهر جيشها في معركة « واغرام » سنة ١٨٠٩ ودخل عاصمتها فينا حيث املى شروط الصلح التي قضت بسلخ اجزاء مهمة أخرى من الامبراطورية النمساوية .

وبعد النمسا تحركت الروسية لمقاومة نابوليون . فجهز نابوليون جيشاً ضخماً وزحف به على الروسية في صيف سنة ١٨١٢ . ومع انه نجح في الوصول الى موسكو فان نتيجة تلك الحملة كانت فشلاً ذريعاً وإخفاقاً تاماً . فقد تعاون البرد القارس والمرض والعدو على افناء الجيش الفرنسي المتراجع فلم يسلم منه الا عدد قليل .

(و) حرب التحرير الالمانية وتنازل نابوليون

عاد نابوليون الى باريس فجهز حملة جديدة وحاول ان يعود بها الى الروسية . وعرف البروسيون ما حل بنابوليون في الروسية وادركوا ان الفرصة سنحت لتحريرهم فتحالفوا مع الروسية وبريطانية والسويد والنمسا وواجهوا نابوليون بجيوشهم فانتصر عليهم اول الامر ولكنه عاد فأصيب بهزيمة كبيرة في معركة « ليبزغ » او « معركة الامم » في تشرين الأول سنة ١٨١٣ .

فعاد الى فرنسة وحاول ان يقاوم ولكن معظم الدول التي كانت خاضعة له انقلبت عليه . ولما دخلت جيوش الحلفاء باريس اضطر نابليون الى ان يتنازل عن العرش ، فنفوه الى جزيرة صغيرة تدعى « البا » قريبة من شاطىء ايطاليا الغربي .

وبعد ذهاب نابوليون عادت الملكية الى فرنسة واصبح لويس الثامن عشر (اخ لويس السادس عشر) ملكاً .

٤ ـ نهاية نابوليون

اجتمع المنتصرون في مدينة فينا لاعادة تنظيم اوروبة ، ولكنهم اختلفوا واوشكت الحرب ان تقع بينهم. وعلم نابوليون بذلك فهرب من منفاه في آذار سنة ١٨١٥ وعاد الى فرنسة . فتناسى الحلفاء اختلافاتهم وجمعوا جيوشهم لمقاتلة نابوليون . وفي ١٨ حزيران وقعت بين الفريقين معركة « واترلو » المشهورة التي هُزم فيها نابوليون شر هزيمة. وحاول الهرب الى اميركا ولكنه لم ينجح فاستسلم الى البريطانيين الذين نفوه الى جزيرة القديسة هيلانة حيث بقي حتى وفاته ودُفن سنة ١٨٢١ . وفي سنة ١٨٤٠ نقل رفاته الى فرنسة ودُفن في ضريح فخم في باريس .



قبر نابوليون

١٠ - منشآت نابوليون

واعماله العمرانية

●

ليس من الأنصاف لنابوليون ان نقصر حديثنا على وصف الحروب التي خاضها ونهمل ذكر الاعمال العمرانية العظيمة والمنشآت المهمة التي حققها والتي كانت نتائجها لفرنسة وللعالم اجمع أجزل فائدة واعمق اثراً من جميع الانتصارات الباهرة التي فاز بها . ومن اهم اعماله في هذا الحقل ما يلي :

١ - المحافظة على مبادىء الثورة ونشرها

صحيح ان نابوليون الغى كثيراً من التدابير الخاصة التي املتها ظروف الثورة والتي لم يكن لها اهمية كبيرة . اما المبادىء الاساسية التي ارتكزت عليها الثورة والاعمال العظيمة التي قامت بها فقد حافظ عليها نابوليون في فرنسة وعمل على نشرها والنسج على منوالها في جميع البلدان التي دخلت تحت حكمه . ومن اجل ذلك اطلق عليه بعض المؤرخين لقب « ابن الثورة » .

٢ - اعادة التفاهم بين الدولة والكنيسة

كانت العلاقات الودية بين الدولة الفرنسية والكنيسة

الكاثوليكية قد انقطعت ابان الثورة . ولما تولى نابوليون الحكم في عهد القنصلية رأى ان المصلحة تقضي باعادة التفاهم بين الكنيسة وفرنسة . وبعد مفاوضات استمرت عدة اشهر عقد مع البابا معاهدة « الكونكوردا » في سنة ١٨٠١ . فاعترف نابوليون في هذه المعاهدة بالبابا رئيساً للكنيسة وازال بعض القيود التي فرضتها الثورة على رجال الدين . ومقابل ذلك اعترف البابا بمصادرة املاك الكنيسة على ان تدفع الدولة رواتب رجال الدين . ووافق كذلك على ان يختار نابوليون الاساقفة وان يعين هؤلاء رجال الدين الذين هم دونهم . وبهذا الاتفاق عادت المياه الى مجاريها بين فرنسة والبابا .



نابوليون يوقع اتفاقية الكونكوردا سنة ١٨٠١

٣ ـ وضع القانون المدني

كان في فرنسة قبل الثورة ما يقرب من ثلاثمئة قانون يختلف الواحد منها عن الآخر . وكانت جميعها نافذة في المناطق الفرنسية المختلفة . فالف نابوليون لجنة من كبار رجال القانون وطلب اليهم توحيد الشرع الفرنسي . وبعد بضع سنوات من العمل الشاق اخرجت تلك اللجنة للعالم في سنة ١٨٠٤ « القانون المدني » المعروف باسم « قانون نابوليون » Code Napoléon . وهو ينص على حقوق الافراد وواجباتهم وعلى امور الزواج والطلاق والميراث وغير ذلك . وقد اعجب هذا القانون حكومات كثيرة فاقتبسته وطبقته في بلدانها .

٤ ـ انشاء مصرف فرنسة

انشأ نابوليون في سنة ١٨٠١ « مصرف (بنك) فرنسة » ومنحه حق اصدار الاوراق المالية . فاستعاد النقد الفرنسي قيمته وثقة الناس به بعد ان كانت تلك الثقة قد تزعزعت خلال الثورة . ولا يزال « مصرف فرنسة » الى الآن من اعظم المؤسسات المالية في العالم .

٥ ـ انشاء جوقة الشرف

قضت الثورة على نظام الطبقات وجعلت الناس متساوين . ولكن نابوليون انشأ طبقة جديدة من اصحاب الامتيازات لا ترتكز على الحسب والنسب كالسابق بل على الخدمات الجليلة

الشأن التي يقدمها الفرد لوطنه. وتكون هذه الامتيازات على شكل اوسمة والقاب تمنح لمستحقيها من رجال العلم والادب والسياسة والفن وغيرها . ولا يزال نظام جوقة الشرف معمولاً بـه في فرنسة حتى الوقت الحاضر .

٦ - القيام بالمشاريع العمرانية

ان مشاغل نابوليون الكثيرة لم تصرفه عن الاهتمام بالمشاريع العمرانية العامة . فانشأ شبكة طويلة من الطرق وعبدها وبنى الجسور وحفر الاقنية وجفف المستنقعات ووسع المرافىء الكبيرة ونشط الزراعة والصناعة والتجارة بمختلف الوسائل .

هذه هي اهم المنشآت والأعمال التي تحققت في ايام نابوليون . وهي تدل على ان مشاكل فرنسة الداخلية وحروبها مع الدول الأخرى لم تمنعه من القيام ببعض الاصلاحات العظيمة التي خلدت ذكره في التاريخ .

١١ . التطور الصناعي
وتأثيره الاجتماعي

●

١ ــــ الثورة الصناعية

كان الطابع الزراعي يغلب على الحياة الاوروبية حتى اواسط القرن الثامن عشر . فكانت الارض أهم مورد للعيش والثروة ، وكان معظم الناس يشتغلون في الزراعة ويقطنون وسط مزارعهم او بالقرب من حقولهم . فكانت الارياف مزدهرة وعامرة بالسكان ، وكانت المدن الكبيرة قليلة العدد صغيرة الحجم اذا ما قيست بمدن هذه الايام. فمانشستر وبرمنغهام وليون وغيرها كانت مدناً صغيرة في مطلع القرن التاسع عشر . وكان سكان باريس ، مثلاً ، لا يزيدون على سبعين الف نسمة .

وكان سكان الثغور البحرية ، على الاخص، يتعاطون التجارة مع المستعمرات الاوروبية في آسية وافريقية واميركة . وقد اصاب بعضهم نجاحاً عظيماً واسس الشركات التجارية الكبرى التي كانت تجني من تجارتها ارباحاً طائلة . وكان التجار يستعملون وسائل النقل البرية والبحرية البطيئة كالحيوانات والسفن الشراعية

وما شابهها ، لانه لم يكن يوجد اسرع منها في تلك الايام .

وكان الفلاحون واصحاب الصناعات يتبعون الطرق القديمة في اعمالهم فيحرثون الحقول ، ويحصدون الغلال ، وينسجون الثياب ، ويقطعون الاخشاب بايديهم مثلما كان يفعل المصريون قبل ذلك ببضعة آلاف من السنين . وفجأة اختُرعت في بدء الثلث الاخير من القرن الثامن عشر بعض الآلات التي ضاعفت الانتاج وسجلت تقدماً محسوساً في الحقل الصناعي . وبعد بضعة اجيال من السعي الحثيث للاختراع والاستنباط كثرت الآلات الحديثة وتعددت انواعها ، فانقلب نظام الانتاج القديم رأساً على عقب ، وحلت الآلة محل اليد البشرية في العمل . ان هذا الانقلاب التدريجي الذي احدثه اختراع الآلات الحديثة هو ما نسميه « الثورة الصناعية » .

٢ ـ الآلات الحديثة تظهر الى الوجود

(أ) تقدم وسائل الغزل

ان الغزل بالطريقة القديمة المعروفة عملية بطيئة جداً لأن المغزل لا ينتج اكثر من خيط واحد في الوقت نفسه . لذلك كانت الخيوط قليلة وكان الطلب عليها كبيراً .

وفكر بعضهم في تحسين وسائل الغزل ، فاخترع رجل بريطاني سنة ١٧٦٧ جهازاً يستطيع العامل ان ينتج بواسطته ثمانية خيوط دفعة واحدة .



المغزل القديم

وبعد سنة اخترع بريطاني آخر جهازاً يسير بقوة الماء . ثم ادخلت تحسينات اخرى على صناعة الغزل . وقبل انتهاء القرن الثامن عشر صار يوجد اجهزة آلية ينتج الواحد منها مئتي خيط في وقت واحد .

(ب) تقدم وسائل النسيج

دفع هذا التقدم في صناعة الغزل المخترعين الى التفكير في تحسين صناعة النسيج والحياكة . وكان النساجون يستعملون النول القديم الذي لا يزال بعض اللبنانيين يستعملونه حتى اليوم .

نول قديم

وفي سنة ١٧٨٥ اخترع رجل بريطاني نولاً آلياً يسير بقوة المياه ويقوم من تلقاء نفسه بمعظم الاعمال التي كان يقوم بها الحائك . ثم أدخلت تحسينات كثيرة اخرى على وسائل النسيج حتى اننا نجد اجهزة آلية في الوقت الحاضر تنتج من البضائع في اليوم الواحد ما يحتاج نسجه بالطريقة القديمة الى ثلاثمئة حائك .

(ج) اختراع المحرك البخاري

كانت الآلات الجديدة التي تحدثنا عنها تسيّر بقوة المياه الجارية . ولكن استخدام الماء لم يكن هيناً ومتيسراً في جميع الاحوال فرأى بعض العلماء ان عليهم ان يكتشفوا قوة أخرى ليسخروها في تسيير الآلات . وكان احد الانكليز قد لاحظ ان للبخار قوّة عظيمة . فصنع في مطلع القرن الثامن عشر آلة بخارية

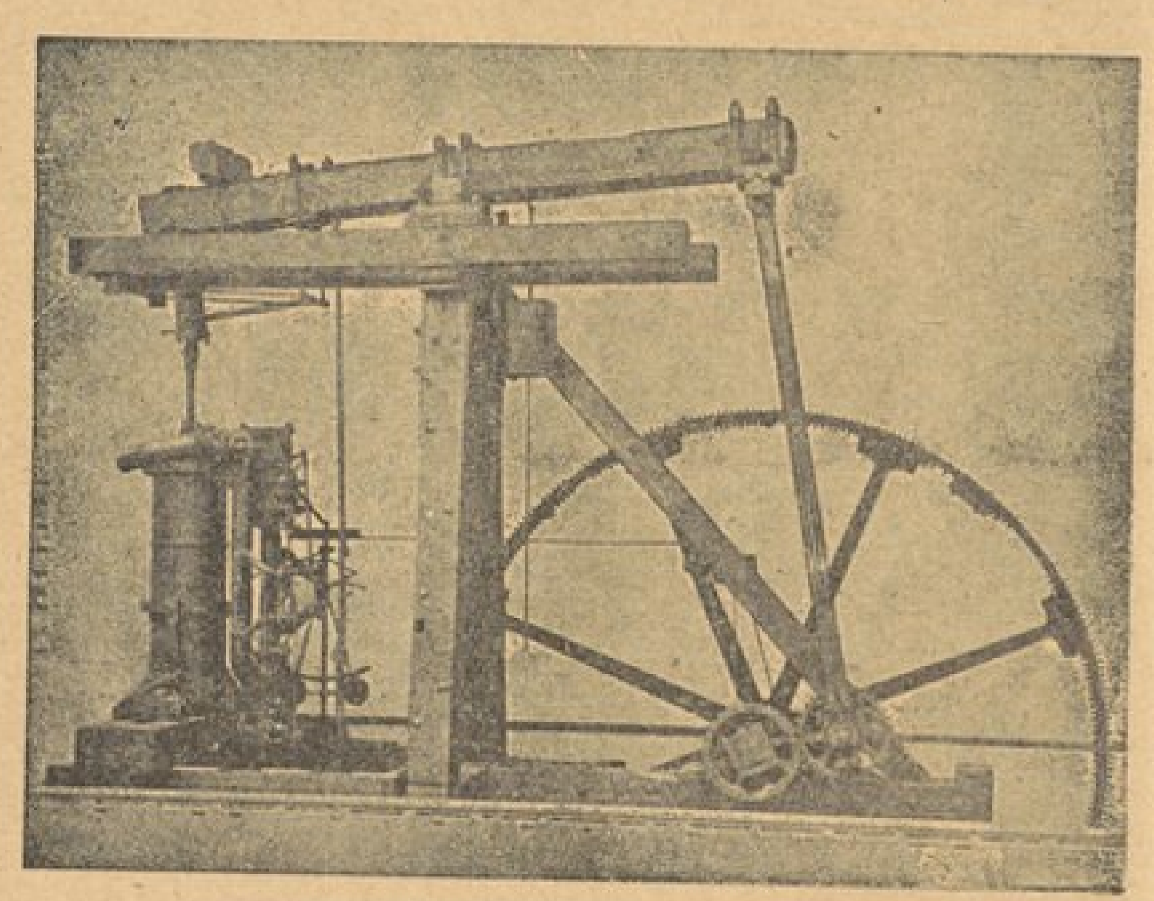


جايمس واط

واستعملها في الاعمال البسيطة . وبعد نصف قرن تقريباً اخذ مخترع انكليزي آخر اسمه جايمس واط تلك الآلة وأدخل عليها تحسينات مهمة جداً سنة ١٧٦٩ . فصارت قوتها كبيرة وصار بالامكان استخدامها لتسيير مختلف الآلات . ولما اقتنع اصحاب الآلات بفائدتها اقبلوا على شرائها اقبالاً عظيماً . وما انقضى القرن الثامن عشر حتى كان معظم مصانع الغزل والنسيج في انكلترة يُسيّر بقوّة البخار . وكان لاختراع المحرك البخاري تأثير عظيم في تقدم الصناعة والعلم لأنه ساعد على تحقيق عدد كبير من الاختراعات الاخرى.

واخترع احد البريطانيين طريقة جديدة لصهر الحديد وتنقيته

من الاوساخ ، فصارت الآلات تصنع بعد ان كانت تصنع من الخشب . ويُعدّ هذا الاختراع من اهم العوامل التي ساعدت على تقدم الصناعة تقدماً سريعاً .



محرك بخاري من صنع واط في سنة ١٧٨٨

٣ - تأثير الثورة الصناعية الاجتماعي

لما دخلت الآلات الحديثة الى الصناعة وصارت تنتج الاحذية والثياب وغيرها بكميات وافرة واسعار مخفضة لم يعد بامكان اصحاب الصناعات البيتية مزاحمتها ، فاضطروا مكرهين الى ترك العمل في بيوتهم والذهاب الى المعامل ، وهكذا زالت الصناعات

البيتية تدريجياً وحلت محلها المعامل الصناعية الكبيرة .

وسيطر الجشع والطمع على نفوس اصحاب المعامل حتى صار الحصول على اوفر نصيب من الارباح همهم الاول وغايتهم الكبرى . لذلك صاروا يرهقون العمال ويدفعون لهم اجوراً زهيدة ويعاملونهم معاملة قاسية . ثم صاروا يستخدمون النساء والاولاد لانهم يقنعون باجور اقل من الاجور التي يتطلبها الرجال . فاوجدت هذه المزاحمة ازمة بطالة بين الرجال ، واغلقت ابواب العيش في وجوه عدد من ارباب العائلات واصحاب المسؤوليات .

وكان بعض الاولاد الذين هم دون العاشرة من عمرهم يجبرون على العمل في المصانع من اثنتي عشرة الى خمس عشرة ساعة يومياً ، فيحرمون النوم والراحة والعلم ويشبون جهالاً ضعفاء .

وصارت النساء تترك البيوت في الصباح الباكر الى المعمل ولا ترجع اليها الا في المساء . ومعلوم ان غياب المرأة عن بيتها والأم عن ابنائها يشوّش حالة البيت ويؤثر في تربية الاولاد ويضعف الروابط العائلية نفسها .

وشرّ من هذا كله ان اولئك العمال كانوا بالرغم من الوقت الطويل الذي يقضونه في العمل والاجهاد الكبير الذي يتحملونه يعيشون عيشة فقر وبؤس في اكواخ حقيرة او بيوت صغيرة تحيط بها الاوساخ وتكثر فيها الامراض . وكانت تقوم الى جانب هذه الاكواخ قصور اصحاب المعامل الفخمة ودورهم الجميلة .

وقد تولد في نفوس العمال بسبب هذا التفاوت الكبير بين حالة

الطبقتين شعور قوي من الكراهية والبغضاء والعداء نحو الرأسماليين. فنظموا صفوفهم في جمعيات تسمى « نقابات العمال » . وكانت النقابات تنطق باسمهم وتقدم مطالبهم كرفع الاجور وتخفيض ساعات العمل وتدعو الى اعلان الاضراب واستعمال العنف عند الضرورة . ونشأ عن ذلك حالة سيئة تهدد الامن وتضر بمصلحة البلاد . فقام بعض المعتدلين يطالبون بايجاد حل وسط يستفيد منه الطرفان . ويكون ذلك بأن يجعل الرأسماليون شروط العمل وظروفه ملائمة لحالة العمال مقبولة لديهم ، وبأن يدفعوا قسماً من ارباحهم الصافية للدولة بشكل ضرائب ، والدولة تنفق هذه الاموال على تأسيس المدارس والمستشفيات والحدائق والملاهي وغيرها من المشاريع العامة المجانية التي يستفيد منها العمال والطبقات الفقيرة اكثر من سواهم . وقد لاقت هذه السياسة الحكيمة القبول عند الكثيرين من قادة الدول وأصحاب الحكم والنفوذ ، وهم يحاولون تطبيقها في بلدانهم بالمقدار الذي تسمح به الظروف .

١٢ . الوحدة الايطالية

•

١ - ايطالية قبل الوحدة

(أ) سيطرة النمسا على ايطالية

كانت ايطالية في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجزأة الى عدة ولايات تؤلف كل واحدة منها كياناً سياسياً خاصاً . وكانت النمسا منذ سقوط نابوليون في سنة ١٨١٥ تسيطر على معظم ايطاليا وتوجه سياستها كما تريد . فبعض الولايات الايطالية كانت تحت الحكم النمساوي المباشر ، والبعض الآخر كانت تربطه بالنمسا روابط متينة تجعله تابعاً لها ، مقيداً بارادتها . وكانت سياسة النمسا في ايطالية تتلخص بأمرين : اولاً ، القضاء على كل حركة ترمي الى تنوير الشعب الايطالي . وثانياً ،محاربة الاستقلال ومنع كل محاولة تهدف الى المطالبة بالاستقلال والوحدة. ولم يكن متحرراً من النفوذ النمساوي غير مملكة سردينية . ولكن سردينية الصغيرة الضعيفة لم تكن تستطيع ان تأتي عملاً بمفردها ضد النمسا .

(ب) محاولات فاشلة

ولكن تعسف الحكومة النمساوية لم يستطع ان يخنق

الروح الوطنية في صدور الشبان الايطاليين المستنيرين امثال الشاعر مازيني . فقد اسسوا الجمعيات السرية ، مثل جمعية « الكربوناري » وجمعية «ايطالية الفتاة» ، التي كانت تنشر الآراء الاستقلالية وتدعو الى الوحدة .

وحاول الوطنيون ان يصلوا الى اهدافهم عن طريق القوة فثاروا عدة مرات ضد النمسا وضد حكامها في سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ ، ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل لأن النمسا كانت تتدخل فوراً وتخمد الثورات بالقوة . وبقيت الحال كذلك حتى قيض الله لايطالية رجلين ذكيين حازمين هما الملك فكتور عمانوئيل الثاني ورئيس وزرائه كافور .

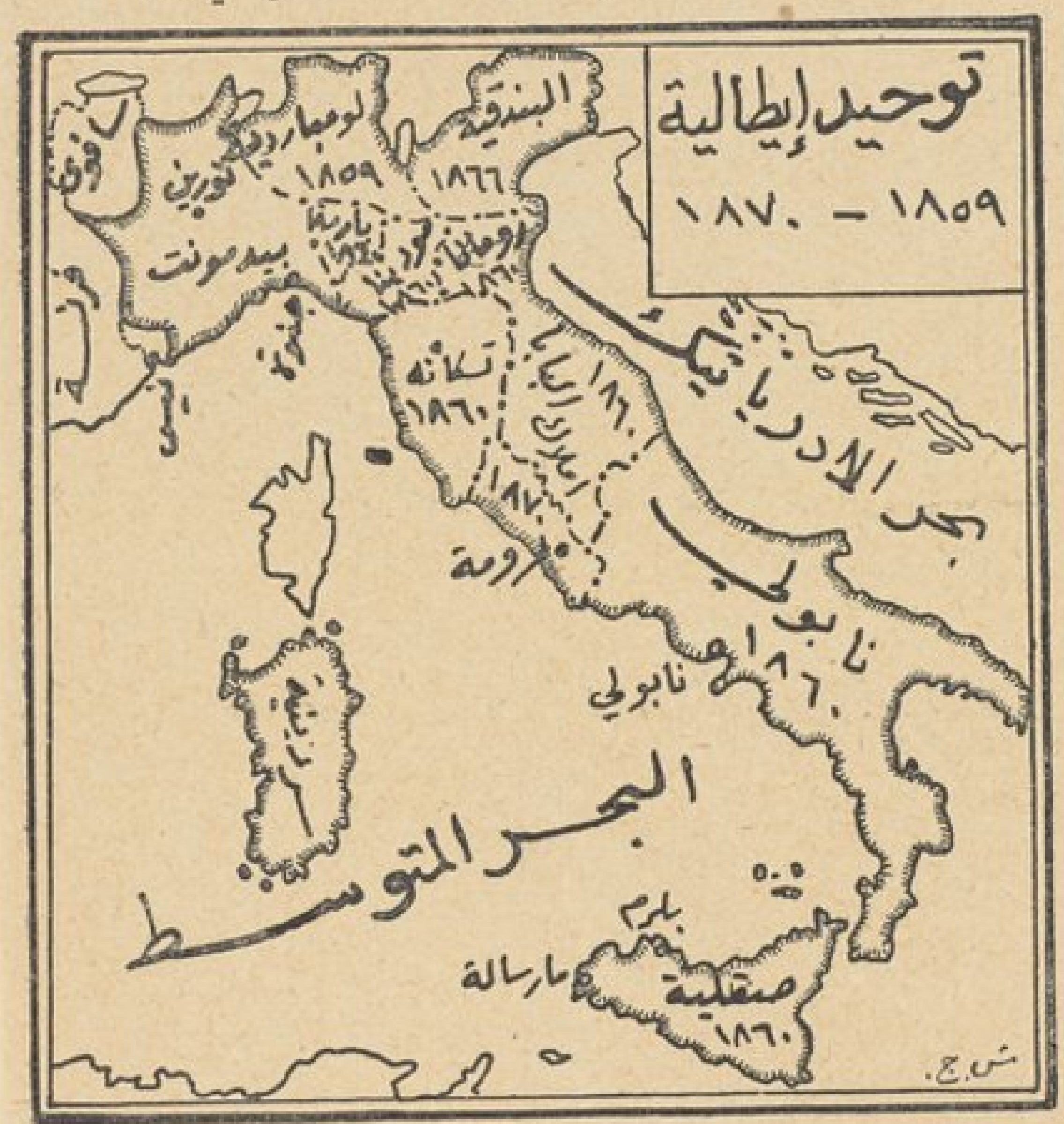
٢ - كافور يبدأ بتوحيد ايطالية

(أ) اعمال سنة ١٨٥٩


كافور

تقرب كافور من جارته فرنسة وتمكن من عقد معاهدة سرية مع امبراطورها نابوليون الثالث تقضي على فرنسة بوجوب مساعدة سردينية اذا هاجمتها احدى الدول . ولما اطمأن كافور الى هذه الناحية أخذ يتحرش بالنمسا ويستفزها حتى اعلنت الحرب على بلاده في سنة ١٨٥٩ ، فاضطرت فرنسة

الى ارسال جيشها لنجدة حليفتها سردينية ، فاحـــرزت جيوش سردينية وفرنسة انتصاراً مهماً على القوات النمسوية في معركة



ماجنتا Magenta الى الغرب من مدينة ميلانو . ثم اندفعت وراء الجيش النمساوي المتراجع نحو الشرق وأحرزت عليه انتصاراً آخر في معركة سولفارينو Solfarino قرب جدود ولاية البندقية .

عندئذ عقد نابوليون الثالث صلحاً مع النمسا بدون استشارة حليفه كافور الذي لم يرض عن هذا الصلح الذي مُنحت سردينية بموجبه ولاية لومباردية ولم تظفر منه فرنسة بشيء . ويبرر المؤرخون تصرف نابوليون بعدة اسباب ، من اهمها : اولاً ، انه خشي ان توغلت جيوشه نحو الشرق وطالت خطوط تموينها ان تصاب بهزيمة من النمساويين . وثانياً ، انه خشي بعد ما رأى من حماسة الوطنيين الايطاليين ودعوتهم الى الوحدة والاستقلال التام ان تقوم دولة ايطالية قوية وتصبح خطراً على فرنسة نفسها .

(ب) اعمال سنتي ١٨٦٠ و ١٨٦١

عندما كانت الجيوش النمساوية تتراجع منهزمة امام جيشي فرنسا وسردينية في سنة ١٨٥٩ ثار الشعب في ولاية رومانة وفي الدوقيات الثلاث «بارمة» و«مودينة» و«توسكانة» على حكامه وطالب بالانضمام الى دولة سردينية . وكان البابا والنمسا يعارضان في ذلك ولكن كافور طلب من نابوليون الثالث ان يوافق على انضمام هذه الولايات الى سردينية مقابل تنازل سردينيـة عن منطقتي نيس وسافوى . فقبل نابوليون هذا العرض ، وانضمت رومانة وبارمة ومودينة وتسكانة الى سردينية في ربيع سنة ١٨٦٠ .

وكان الايطاليون في جنوبي ايطالية لا يقلون رغبة في الوحدة عن اخوانهم في المناطق الشمالية والوسطى . وشجع كافور القائد غاريبلدي سراً على غزو جزيرة صقلية فاستقبله معظم اهلها بالفرح والترحاب . ثم عبر غاريبلدي مضيق مسينـا ونزل الى الارض الايطالية في شهر آب سنة ١٨٦٠ . فاعلن شعب نابولي الثورة على

ملكهم فرنسيس الثاني واستقبلوا غاريبلدي بالترحاب . ولم يطل الامر حتى فر الملك من عاصمته فدخلها غاريبلدي دخول الفاتحين واصبح جنوبي ايطالية باكمله تحت سلطته .



غاريبلدي

ونشبت الثورة ايضاً في املاك البابا في وسط ايطالية. وكانت الجنود المرتزقة الاجنبية تخضع الثورة بوحشية وقسوة. ولما رفض البابا ان يصغي لنصائح كافور عبرت جيوش سردينية الحدود واستولت على املاك البابا ، باستثناء رومة وما حولها ، وعندئذ تم الاتصال بين ايطالية الشمالية والوسطى التي سيطرت عليها سردينية وبين ايطالية الجنوبية التي كان يسيطر عليها غاريبلدي .



فكتور عمانوئيل ملك ايطالية

ولما جاء فكتور عمانوئيل الى جنوبي ايطالية في خريف سنة ١٨٦٠ ليتسلمها استقبله غاريبلدي مرحباً مهنئاً ودخلا معاً مدينة نابولي

وسط عاصفة من التصفيق والهتاف .

وفي آذار ١٨٦١ اجتمع المجلس الجديد الذي يمثل المناطق المختلفة وأطلق على الدولة الجديدة اسم « المملكة الايطالية » وعلى فكتور عمانوئيل لقب « ملك ايطالية » . واتخذت مدينة تورين عاصمة موقتة . وهكذا لم يبق خارج المملكة الجديدة من الاراضي الايطالية غير رومة والبندقية . وتوفي كافور بعد هذه الاحداث بفترة قصيرة .

٣ - اتمام الوحدة بعد كافور

(أ) ضم البندقية

في سنة ١٨٦٦ وقعت حرب بين النمسا وبروسية . فحالفت ايطالية بروسية ودخلت الحرب معها . وقد غُلب الايطاليون ولكنهم نجحوا في إلهاء قسم كبير من الجنود النمسويين وصرفهم عن محاربة البروسيين . ولما انتهت الحرب بفوز بروسية انسحبت النمسا من البندقية فاحتلها الايطاليون وضموها الى مملكتهم بعد موافقة اهلها إثر استفتاء عام .

(ب) ضم رومة

بقيت رومة وحدها خارج المملكة الايطالية . وقد ارسلت فرنسة اليها فرقة من جيشها لحمايتها . وكان الايطاليون يعتقدون ان الفرصة ستسنح يوماً ما لضم رومة الى المملكة بأهون السبل . وقد سنحت تلك الفرصة فعلاً في سنة ١٨٧٠ . ففي تلك السنة

نشبت الحرب الفرنسية البروسية ، واصيبت فرنسة فيها بهزيمة منكرة ، فاضطرت الى سحب قواتها من رومة . وما ان اخلتها القوات الفرنسية حتى دخلتها القوات الايطالية في ايلول وضمتها الى المملكة . واصبحت رومة منذ ذلك التاريخ عاصمة ايطالية كما كانت في العصور الغابرة . وسارت الدولة الايطالية بسرعة بعد توحيدها في طريق التقدم والازدهار حتى اصبحت قبل نهاية القرن التاسع عشر في عداد الدول الكبرى .

١٣ . الوحدة الالمانية

١ - المانية قبل الوحدة

●

كانت حالة المانية في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر تشبه حالة ايطالية من عدة وجوه . فالمانية كايطالية كانت مقسمة الى عدد من الولايات المستقلة التي يحكمها ملوك وامراء ينتسبون الى اسر مختلفة . وكانت بروسية من اكبر الدويلات الالمانية واقواها . وكان الشعب الالماني يرغب في الوحدة ولكن النمسا ، من جهة ، والملوك والامراء والحكام الالمان من جهة اخرى كانوا يعارضونها ويعملون على عدم تحقيقها في السر والعلانية حرصاً على مصالحهم الخاصة .

وقد قام الشعب الالماني ببعض المحاولات لتوحيد البلاد ولكنه لم ينجح ، وبقيت المانية مجزأة . ولكن هذه المحاولات لم تذهب كلها هدراً . فقد تأسس في سنة ١٨٣٤ اتحاد جمركي (Zollverein) بين بروسية وبعض الولايات المجاورة لها . فالغيت الحواجز وفتحت الحدود تسهيلاً للتجارة . ثم انضمت ولايات اخرى الى هذا الاتحاد الجمركي بعد ان اقتنعت بفائدته . وكان هذا الاتحاد الاقتصادي خير ممهد للاتحاد السياسي الذي تحقق فيما بعد .

٢ - كيف تمت الوحدة

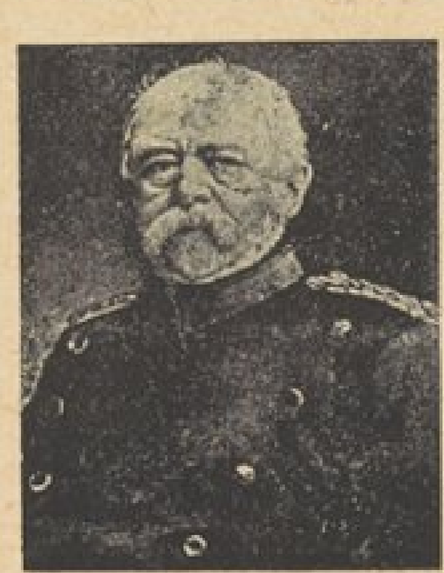
أتيح لألمانية ، مثلما أتيح لأيطالية من قبل ، رجلان عظيمان كان لدهائهما وحزمهما ابعد الأثر في تاريخ المانية الحديث ، وهما وليم ملك بروسية ورئيس وزرائه بسمارك .

(أ) تقوية الجيش

ادرك هذان الرجلان ان العقبة الاولى في طريق الوحدة الالمانية هي النمسا . ولما كانت النمسا تعتمد على قوة جيشها فقد رأى الرجلان ان يقويا جيش بروسية حتى يفوق في تنظيمه وقدرته جيش النمسا .ولم يكن هذا امراً سهل التحقيق . ولكن الرجلين تعاونا على تذليل جميع العقبات التي اعترضت سبيلها .

(ب) بروسية تهزم النمسا

لم يعدم بسمارك ، بعد ان اطمأن الى قوة جيشه ، سبباً لاثارة النمسا والدخول ضدها في الحرب . فقد استغل الخلاف النمساوي البروسي على الولايتين الالمانيتين الشماليتين « شلزفيك » و «هولشتين» واعلن ان بروسية ستخوض الحرب ضد النمسا دفاعاً عن نفسها .



بسمارك

ابتدأت الحرب في حزيران سنة ١٨٦٦ ولم تدم غير سبعة

اسابيع لان الجيش البروسي احرز انتصاراً كبيراً على النمسا في معركة «سادووه» Sadowa واجبرها على التسليم . وكان من نتائج هذه الحرب ان أخرجت النمسا من المانية وقضي على نفوذها فيها.

(ج) الحرب البروسية الفرنسية ١٨٧٠ – ١٨٧١

كانت فرنسة تأمل ان تطول الحرب بين بروسية والنمسا لكي تضعف الدولتان ويتعزز مركز فرنسة فتفرض ارادتها وتغنم بعض الاراضي الألمانية التي كانت تطمع فيها . ولكن لما خرجت بروسية من الحرب منتصرة قوية ادرك نابوليون ان الحرب مع بروسية اصبحت لا مفر منها .

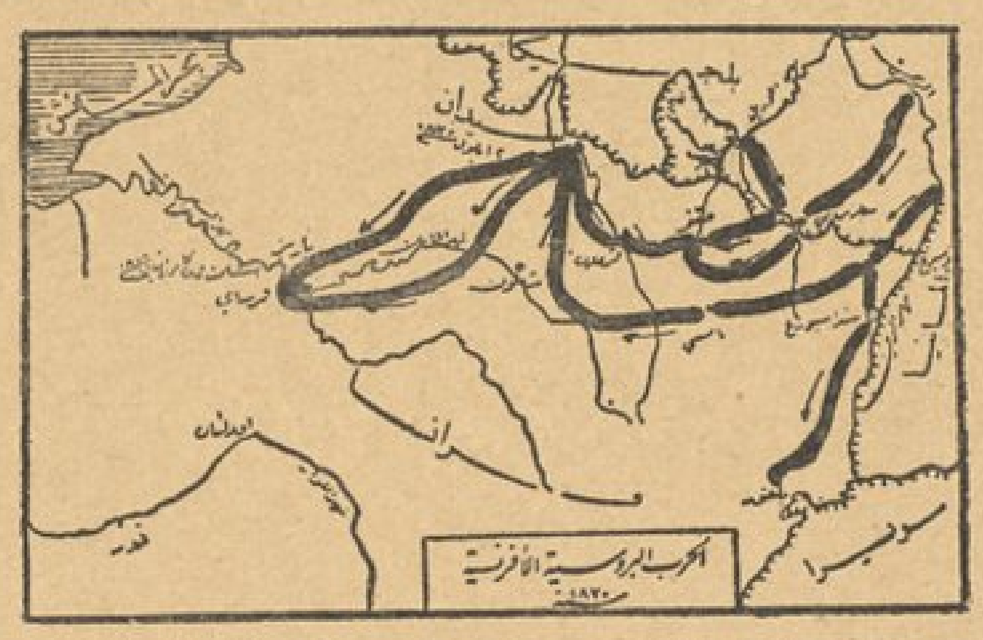
ولم يكن بسمارك اقل رغبة في الحرب من نابوليون . فقد كان يريدها اولاً ، لان ثقته بجيش بروسية كانت قوية ، وثانياً ، لان كان يعتقد ان الحرب مع فرنسة انجع وسيلة لتحقيق الوحدة الالمانية ، وذلك لعدة اسباب منها ان النزعة القومية القوية عند الالمان تجمعهم تحت لواء بروسية وتدفعهم الى محاربة العدو المشترك.

وعزل بسمارك فرنسة سياسياً اذ عقد اتفاقات ودية مع معظم الدول الكبرى ومع جيرانه وجيران فرنسة بشكل خاص . فقوّى بروسية بهذا العمل واضعف مركز فرنسة كثيراً .

لما تمت جميع هذه الاستعدادات اتخذ بسمارك من اختلاف الدولتين على مسألة وراثة عرش اسبانية ذريعة لاثارة شعور الفرنسيين وحملهم على اعلان الحرب على بروسية .

ابتدأت الحرب في اواسط تموز سنة ١٨٧٠ ، وتحركت

الجيوش من الجانبين نحو الحدود . ثم تقدم الالمان نحو الغرب يحطمون المقاومة الفرنسية بسهولة ادهشت العالم . فاحتلوا منطقتي الالزاس واللورين . وفي اندفاعهم نحو باريس حاصروا قوة فرنسية كبيرة في موقع متز Metz . فتقدم نابوليون الثالث على رأس



جيش كبير لفك الحصار عن متز فاطبقت عليه الجيوش الالمانية في «سيدان» وحاصرته واجبرته على الاستسلام مع مئة الف جندي في ٢ أيلول سنة ١٨٧٠ . ولما وصلت اخبار هذه الهزيمة الى العاصمة ثار الشعب والغى الامبراطورية واعلن الجمهورية الثالثة ، وشكل حكومة موقتة لمواصلة القتال ضد الالمان . وقد نقلت هذه الحكومة العاصمة الى تور ثم الى بوردو لان باريس كانت قد اصبحت محاصرة. وبالرغم من المقاومة الضارية التي ابدتها الحكومة والارادة الصلبة التي اظهرها سكان باريس ، فقد اضطر الفرنسيون الى القاء السلاح في اواخر كانون الثاني سنة ١٨٧١ .



(د) شروط الصلح

كان بسمارك شديداً متصلباً مع فرنسا . فقد اقتطع منها منطقتي الالزاس واللورين وضمها الى المانية ، وفرض عليها غرامة حربية باهظة ، وابقى الجيش الالماني محتلاً فرنسة حتى تدفع هذه آخر فرنك من الجزية .

٣ ـ تأسيس الامبراطورية الالمانية

كان بسمارك قبل تسليم فرنسة وقبل فرض شروط الصلح قد جنى ثمرة النصر الحقيقية التي كان يسعى اليها ، ألا وهي الوحدة الالمانية . فالولايات الجنوبية كانت قد انضمت الى بروسية في الحرب . وفي نشوة النصر وفورة الحماسة القومية استطاع بسمارك ان يقنع ملوك وامراء الولايات بفائدة الاتحاد واهميته في تعزيز مركز الامة الألمانية . فتنازلوا عن جزء من سيادتهم ودخلوا الاتحاد الالماني الذي اصبح يضم المانية كلها . وفي الثامن عشر من كانون الثاني وقف رجال الامة الالمانية وملوكها وامراؤها في قاعة المرايا في قصر فرساي ، بفرنسة ، واعلنوا تأسيس الامبراطورية الالمانية ونادوا بوليم الاول امبراطوراً فتحققت في تلك الساعة امنية بسمارك الكبرى .

١٤ - الحرب الكبرى

•

١ - اسبابهـا

الحرب الكبرى او الحرب العالمية الاولى هي التي نشبت في سنة ١٩١٤ وامتدّت الى سنة ١٩١٨ ، وكانت أعظم حرب عرفها العالم حتى ذلك التاريخ . واسبابها ، كأسباب معظم الحروب الاخرى ، تقسم الى قسمين رئيسيين همـا : الأسباب الحقيقة والأسباب المباشرة . والأسباب الحقيقية كثيرة متنوعة يعود بعضها الى ما قبل نشوب الحرب بعشرات السنين، وأهمها ما يلي :

(أ) الاستعمار

الاستعمار بمعناه العام هو سيطرة الدول القوية الغنيـــة على البلدان الضعيفة المتأخرة لأجـــل استثمار مواردها الطبيعية او الانتفاع بمركزها الحربي أو غير ذلك . ونزعة الدول الكبرى الى الاستيلاء على البلدان الضعيفة قديمة في التاريخ، والامثلة عليها متوفرة في جميع العصور . ولكن تقـدم الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر جعل هذه النزعة تتطور تطوراً خطيراً وتتخذ

شكلاً حاداً عنيفاً ، لأن تصريف البضائع في الاسواق والحصول على المواد الأولية للصناعة وتوظيف رؤوس الاموال أصبحت من القضايا الاوروبية الكبرى، التي لم يجد الساسة حلاً لها الا عن طريق المستعمرات . فانكلترة كانت تطلب المزيد من المستعمرات بالرغم من انها كانت في مطلع القرن العشرين تحكم ربع الكرة الارضية. وفرنسة كانت تسعى لاتمام سيطرتها على افريقية الشمالية الغربية مع ان ممتلكاتها الاخرى كانت منتشرة في مختلف انحاء العالم . والروسيا كانت تمد احدى يديها نحو الشرق الادنى والاخرى نحو الشرق الاقصى لتستولي على خيراتها ولتصل منهما الى المياه الدافئة. ولما توحدت ايطالية والمانية واستدعى تطورهما الصناعي الاستيلاء على بعض المستعمرات وجدتا ان معظم المناطق الغنية في العالم قد اصبحت في حوزة الدول الاستعمارية القديمة ، ولكن ذلك لم يمنعهما من التصميم على انشاء امبراطوريات واسعة . ولما كانت رقعة الارض محدودة ومطامع البشر لا حدود لها اصبح من المحتم ان تتصادم مصالح الدول الاستعمارية وان يقع النزاع بينها .

(ب) الفوضى الدولية

في ذلك العهد الذي كان فيه التنافس الاستعماري على أشده لم تكن في العالم هيئة دولية تعنى بتسوية الخلافات وصون السلم ومنع الحروب . فجميع الجهود التي بذلت من اجل إنشاء هيئة كهذه باءت بالفشل لأن مبدأ السيادة المطلقة للدولة كان لايزال مقدساً محترماً . وكانت الدول تتذرع بهذا المبدأ

للوصول الى اهدافها ومآربها ، فتسلك جميع السبل ، وتستخدم جميع الوسائل ، وتضرب بالمقاييس الأخلاقية عرض الحائط ، ولا تحفل بالضرر الذي يُلحقه عملها الفردي بالدول الاخرى ما دامت قوية قادرة على الدفاع عن نفسها . وعلى الجملة ، كانت علاقات الدول بعضها ببعض في مطلع القرن العشرين شبيهة بعلاقات الافراد عندما كان الانسان لا يزال همجياً متوحشاً يسرح ويمرح في الغاب .

(ج) السباق في التسلح

كانت القوة ، في عهد تسوده الفوضى الدولية التي وصفنا ، السبيلَ الوحيد امام الدولة للدفاع عن نفسها او لتحقيق مطامعها واغراضها . لذلك راحت الدول تعنى بتنمية جيوشها وتدريبها وتسليحها بأحدث المعدات وأشدها فتكاً . وكانت بروسية اول دولة طبقت نظام الخدمة العسكرية الالزامية في زمن السلم على جميع الرجال القادرين على حمل السلاح . وكانت تدربهم على افواج فلا ينتهي فوج ويسرح ليعود الى اعماله العادية حتى يحل مكانه فوج جديد . وبهذه الطريقة يصبح جميع رجال الامة ملمين بفنون الحرب مستعدين للالتحاق بالجيش عند اول اشارة . ولما ظهرت فائدة هذا النظام في الحرب الفرنسية البروسية اقتبسته معظم الدول الاوروبية ، وفي طليعتها فرنسة . وراحت تتبارى في زيادة جيوشها ومضاعفة استعداداتها الحربية .

وقررت المانية في اواخر القرن التاسع عشر ان تبني اسطولاً

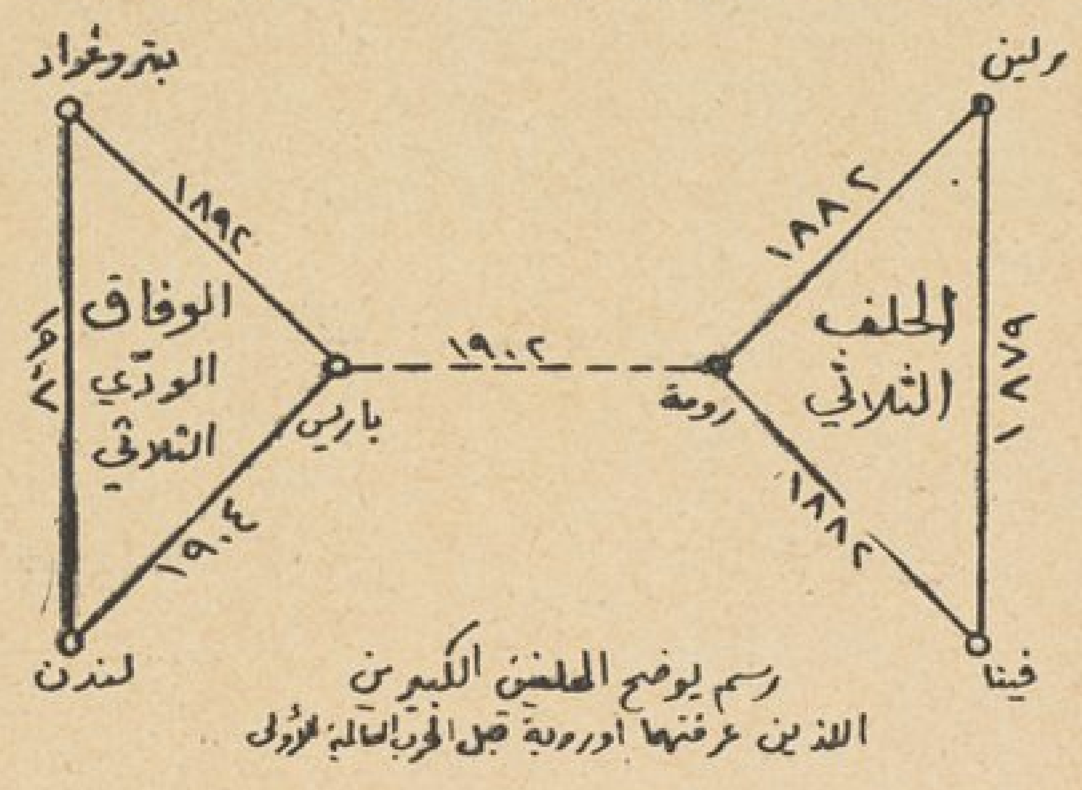
كبيراً ، فهال هذا الامر بريطانية وحملها على الاسراع في بناء البوارج والمدمرات الجديدة ليبقى اسطولها محافظاً على تفوقه . وحذت حذو هاتين الدولتين فرنسة والروسيا وغيرهما .

وفي سنة ١٩١٤ كانت الجيوش والاساطيل الاوروبية قد اصبحت تقريباً ضعفي ما كانت عليه في سنة ١٨٧٠ . ومعلوم ان هذا السباق في التسلح كلف الدول مبالغ باهظة وزاد حالة التوتر والذعر وعدم الثقة سوءاً . ولما اصبحت الدول غارقة بالسلاح الى ما فوق اذنيها وخاضعة لنفوذ الرجال العسكريين لم يعد من السهل الوقوف في وجه التيار الذي كان يدفعها بقوة نحو الحرب.

(د) المحالفات العسكرية

كان الخوف من وقوع الحرب يحمل كل دولة على التفتيش عن حلفاء اقوياء حتى لا تضطر الى خوض القتال بمفردها . وكانت المحالفات تعقد في اغلب الاحيان في السر كي لا يعلم الخصم بها . وقد خطت المانية الخطوة الاولى في عقد تلك المحالفات بعد انتصارها في الحرب الفرنسية البروسية ، وذلك لان بسمارك اراد أن يقوي موقف المانية سياسياً كما قواه عسكرياً . فعقد « حلف الاباطرة الثلاثة » من المانية والروسيا والنمسا في سنة ١٨٧٢ ولما انسحبت الروسيا حلت ايطالية محلها سنة ١٨٨٢ واصبح هذا الحلف يعرف باسم « الحلف الثلاثي » . واعتبرت فرنسة هذين الحلفين موجهين ضدها . وفتشت عن حلفاء فلم تجد في اول الامر ، لان انكلترة كانت متربصة تنظر الى الحالة من دون ان تنضم الى جهة معينة . وفي سنة ١٨٩٤ دخلت فرنسة

والروسيا في تحالف ثنائي . ولما رأت انكلترة ان المانية ماضية في تقوية اسطولها تقربت من فرنسة وعقدت معها في سنة ١٩٠٤ « الوفاق الودي » ، ثم تقربت من الروسية في سنة ١٩٠٧ واصبح « الوفاق الودي » ثلاثياً يجمع انكلترة وفرنسة والروسيا ، وبهذا اصبحت الدول الاوروبية الكبرى منقسمة الى معسكرين متعادلين ،



رسم يوضح الحلفين الكبيرين
اللذين عرفتهما اوروبة قبل الحرب العالمية الاولى

وكانت كل دولة تشعر بانها ملزمة بمساعدة حلفائها وتأييدهم في جميع الامور سواء أكانت لها مصلحة فيها ام لا ، خوفاً من ان تفقدهي تأييدهم وتصبح منعزلة في عالم متوتر ينذر جوه المتلبد بقرب هبوب العاصفة . من أجل ذلك كان وقوع حادث بسيط بين المعسكرين كافياً لجرّ جميع الاعضاء الى الحرب .

(ه) الروح القومية

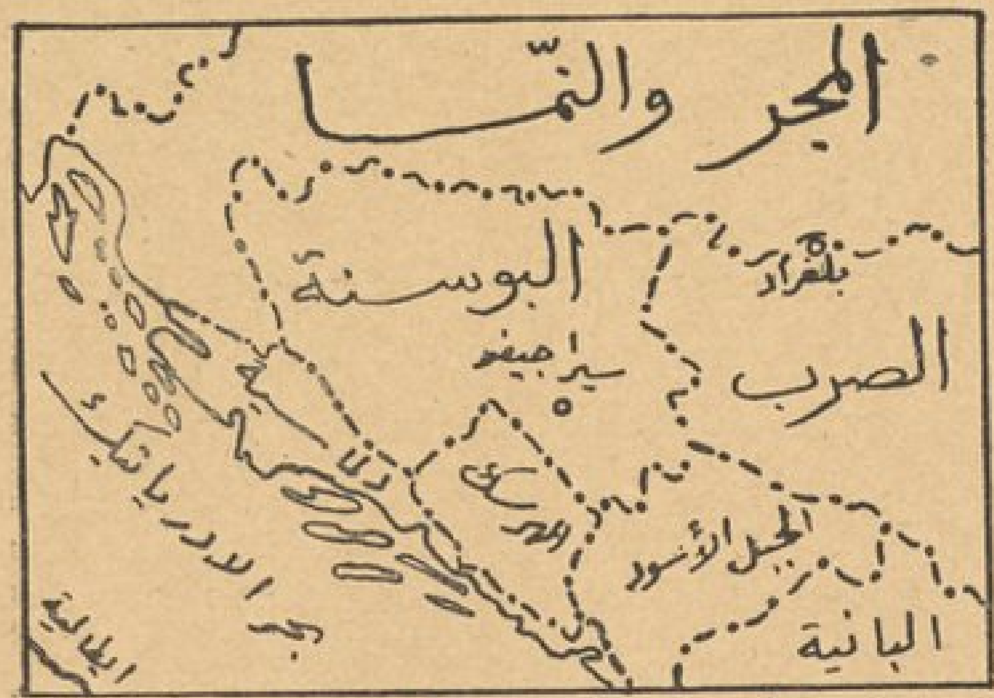
ابتدأت الروح القومية تنمو وتشتد في عهد نابوليون ، ثم بلغت ذروتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين . ومن اهم ميزاتها وفضائلها انها تفرض على المرء ان يحب وطنه وقومه وان يبذل مايستطيع من جهد في سبيل إسعادهما واعلاء شأنهما . ولكن الخطر في القومية انها متى اشتدت وتطرفت عند شعبين متجاورين او متصلين ببعض الاسباب حركت الكره والبغضاء واوقعت المنافسة والنزاع بينهما . وهذا ما وقع فعلاً في اوروبة قبل سنة ١٩١٤ . ويمكننا ان نمثل على ذلك بالعداء القومي المشهور بين الفرنسيين والالمان الذي خلفته حرب سنة ١٨٧٠ ، فقد بقي الفرنسيون طيلة اربع واربعين سنة يوغرون صدور ابنائهم بالحقد على الالمان حتى تمكنوا في نهاية الحرب الكبرى من الثأر لشرف وطنهم وكرامة امتهم ، ومن استعادة منطقتي الالزاس واللورين من المانية .

وكانت شبه جزيرة البلقان تغلي كالمرجل ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٤ بسبب المشاحنات والمنازعات بين القوميات المختلفة . ومن هناك انطلقت الشرارة الاولى التي كانت السبب المباشر لاشعال نار الحرب كما سيجيء .

٢ ـ كيف ابتدأت الحرب

قرر مؤتمر برلين الذي عقد في سنة ١٨٧٨ لتسوية بعض

المشاكل البلقانية تكليف النمسا « باحتلال وتولي الادارة » في الولايتين العثمانيتين البوسنه Bosnia والهرسك Herzegovina اللتين تشكلان اليوم جزءاً من الدولة اليوغوسلافية . ولم يكن يجوز للنمسا ان تعتبر هاتين الولايتين جزءاً من اراضيها او ان تضمها اليها . فلم ترضَ دولة الصرب بهذه التسوية أولاً ، لانها كانت تطمع في ضم الولايتين اليها . وثانياً ، لان سكانها وسكان الولايتين كانوا من جنس واحد هو الجنس السلافي . وكذلك سكان الولايتين ، فان معظمهم لم يرضَ عن الوضع الجديد وراح يطالب بالانضمام الى الصرب .



البوسنة والهرسك

وفي سنة ١٩٠٨ نشبت ثورة في تركية فاستغلت النمسا تلك الفرصة واعلنت ضم الولايتين اليها . فكان رد الفعل عنيفاً جداً

في الصرب والولايتين . فقد قام الشعب بظاهرات صاخبة وطالب باعلان الحرب على النمسا . ولم تكن الروسيا مستعدة للحرب في ذلك الوقت فنصحت الصرب بالسكوت .

سكتت دولة الصرب على مضض ولكن الوطنيين الصربيين المتحمسين لم يسكتوا ، وخصوصاً بعد ان رأوا ان النمسا تتعمّد اضطهادهم وحملهم بالقوة والارهاب على قبول الانضمام اليهـــا . فتشكلت جمعيات سرية كثيرة كان الغرض منها اذكاء روح المقاومة في نفوس ابناء الولايتين والرد على اعتداءات النمسا باغتيـــال رجالها وباثارة الفتن والاضطرابات ضدها .

في هذا الجو المحموم قام ولي عهد النمسا فرانسوا فردينانـد وزوجته بجولته في البوسنه . ولما وصلا الى عاصمتها مدينـــة سيراجيفو اغتالها فيها شاب بشناقي في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤ .

لم تحرك النمسا ساكناً في أول الأمر ولكنها عادت فوجهت في ٢٣ تموز انذاراً مدته ثماني واربعون ساعة الى حكومة الصرب تطلب منها فيه : أولاً ، ان توقف الدعاية ضد النمسا التي تقوم بها الجرائد والمدارس والجمعيات وغيرها . ثانياً ، ان تصرف من الخدمة في الجيش والحكومة والدوائر الرسمية الاخرى جميـــع الموظفين المعادين للنمسا . ثالثاً ، ان تقبل بان يحضر الى الصرب قضاة وموظفون نمسويون ليسهروا على تنفيذ هـــذه الشروط وليساعدوا في معاقبة المجرمين المتهمين بتدبير المؤامرة .

قبلت الصرب الشرطين الأولين واقترحت ان يحال الشرط الثالث على محكمة العدل الدولية في لاهاي لتقول كلمتها فيه . ولكن

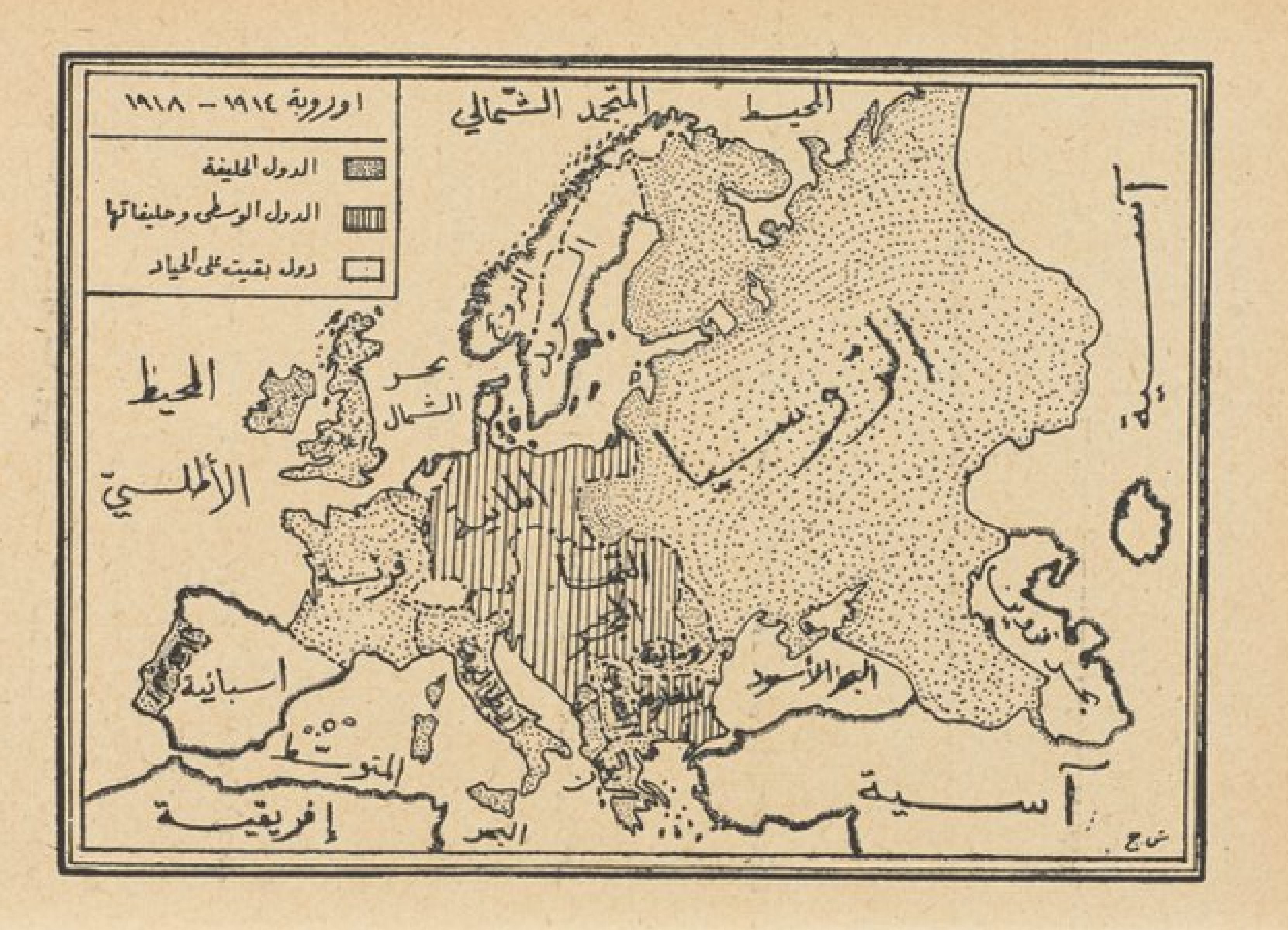
النمسا اعتبرت هذا الجواب غير مرض . وفي ٣٠ حزيران شهرت الحرب على الصرب فاعلن قيصر الروسيا التعبئة العامة في بلاده فوراً . فاعتبرت المانيا التعبئة الروسية تهديداً مباشراً لها بوصفها حليفة للنمسا ، وارسلت انذاراً الى الروسيا تطلب منها فيه وقف التعبئة . وارسلت في الوقت نفسه تطلب من فرنسة بوصفها صديقة الروسيا ان تعلن موقفها لالمانية حالاً . ولما لم تتلق اجوبة مرضية من الطرفين اعلنت المانية الحرب على الروسيا في ١ آب وعلى فرنسة في ٣ منه . وبقي الرأي منقسماً في انكلترة حول دخول الحرب حتى هاجمت المانيا بلجيكة .

كانت المانية وانكلترة وبعض الدول الاخرى قد اتفقت على ضمان حياد بلجيكة . ولكن المانية لم تحترم هذا الحياد وغزت بلجيكة لتمر منها الى شمالي فرنسة . فتذرعت الحكومة البريطانية عندئذ بهذا الامر واعلنت الحرب على المانية في ٤ آب .

وبعد ثلاثة شهور تقريباً من ابتداء القتال كان الفريقان المتحاربان يتألفان على الوجه التالي : الدول الوسطى ، وهي النمسا والمانية وتركية ، ضد الحلفاء : وهم الصرب والروسيا وفرنسة وبلجيكة وبريطانية والجبل الاسود واليابان .

٣ ـ جبهات الحرب وسيرها

يروي المؤرخون قصة الحرب الكبرى بطرق مختلفة ، فمنهم من يقسمها الى مراحل عامة ، ومنهم من يسرد حوادثها بحسب السنين ، ومنهم من يعالجها بطرق اخرى . ولكل طريقة حسناتها


اوروبة ١٩١٤ – ١٩١٨
الدول الحليفة
الدول الوسطى وحليفاتها
دول بقيت على الحياد
المحيط المتجمد الشمالي
المحيط الأطلسي
بحر الشمال
الروسيا
فرنسا
اسبانية
البحر الأسود
البحر المتوسط
آسية
إفريقية

وسيئاتها . وقد رأينا نحن ان نأخذ جبهات القتال جبهة جبهة ونتحدث عن اهم ما جرى فيها خلال سنوات الحرب . وقد اخترنا هذه الطريقة لانها ، في رأينا ، تمكن الطالب من فهم قصة الحرب بسهولة ودقة وجلاء اكثر من اية طريقة اخرى . ولا بد من تنبيه الطالب الى ان تلك الجبهات لم تكن منفصلة مستقلة كما قد يبدو لاول وهلة بل كانت متصلة مترابطة ، وان ما كان يجري في الجبهة الواحدة كان يؤثر على سير الحرب في الجبهات الاخرى بالنسبة الى اهميته الخاصة . وسنحاول في حديثنا الآن ان نظهر هذا الترابط ونبين اثره .

(أ) الجبهة الغربية

كانت خطة الالمان الحربية ترمي الى مقابلة كل خصم من خصومهم بمفرده . وقد ظنوا ان الروسيا لن تتمكن من تنظيم جيشها ومباشرة الهجوم في الشرق قبل مرور بضعة شهور . لذلك قرروا أن يغزوا فرنسة بسرعة ويقضوا عليها اولاً . فهاجموها عن طريق اللوكسمبورغ وبلجيكة فقاومهم البلجيكيون مقاومة عنيدة وصمدوا في وجههم مدة ثمانية عشر يوماً . فاتاح هذا التأخير فرصة ذهبية للفرنسيين والانكليز لكي يستعدوا لمجابهة العدو . وانقضّ الالمان من بلجيكة على شمالي فرنسة فدفعوا الجيوش الحليفة الى الوراء وتقدموا حتى اصبحت باريس على مرأى منهم.

وفي اوائل ايلول سنة ١٩١٤ قام الفرنسيون بهجوم مضاد عنيف في منطقة نهر المارن Marne فانقذوا العاصمة الفرنسية من

السقوط وأكرهوا الألمان على التراجع قليلاً الى الوراء . وبعد معركة المارن حفر جنود الفريقين الخنادق واعتصموا فيها . وقد امتدت جبهة الخنادق هذه من نيوبورت على الشاطىء البلجيكي الى الحدود السويسرية . وقد وقعت بلجيكة كلها والقسم الشمالي من فرنسة في أيدي الالمان .



حرب الخنادق

ولم يطرأ اي تعديل اساسي على هذه الجبهة حتى سنة ١٩١٨ بالرغم من الهجمات العديدة والمعارك الطاحنة التي دارت بين الفريقين ولم تؤد الى نتيجة تذكر . واشهر تلك المعارك معركة فردون Verdun التي شنّها الالمان في النصف الاول من سنة ١٩١٦ ومعركة السوم Somme التي شنّها الحلفاء في النصف

الثاني من السنة نفسها . واستخدم الانكليز الدبابة لاول مرة في هذه المعركة . وقد هلك في هاتين المعركتين فقط ما يقرب من مليون جندي .

(ب) الجبهة الشرقية

مثلما أخطأ الالمان في تقدير قوة الحلفاء في الغرب كذلك أخطأوا في تقدير مدى استعداد الروسيا في الشرق . فقد نظم الروس جيشهم بسرعة وشنوا في الاسابيع الاولى من الحرب هجوماً قوياً . فبينما كان الالمان يحطمون حصون بلجيكة ويدحرون القوات المتحالفة في الجبهة الغربية كانت جحافل الروس الجرارة في الجبهة الشرقية تتقدم ظافرة وتحتل بروسية الشرقية وقسماً من غاليسية النمسوية . وأخاف تقدم الروس المفاجىء السريع الالمان فاضطروا الى نقل بعض فرقهم من الجبهة الغربية الى الجبهة الشرقية ليصدّوا زحف الروس . فكان هذا التدبير في جملة الاسباب التي ساعدت على فشل الالمان في معركة المارن ، في الغرب .

وكان القائد العام في الجبهة الشرقية الجنرال هندنبرغ ،فدحر الروس في معركة تننبرغ Tannenberg (٢٦ - ٣٠ آب ١٩١٤) واسترجع بروسية الشرقية من ايديهم . ولكن هذه الهزيمة المحلية لم تمنع الروس من الاستمرار في هجومهم بنجاح ضد النمسا.

وفي سنة ١٩١٥ قام الالمان والنمسويون بحملة مشتركة ضد الروس فاسترجعوا غاليسية منهم وطردوهم من بولندة، واحتلوا

قسماً كبيراً من السواحل الروسية الغربية على بحر البلطيق والتي اصبحت بعد الحرب دول استونية ولاتفيا وليتوانية . وكانت خسارة الروس بالمعدات والارواح فادحة جداً تقدر بثلاثة ملايين جندي بين قتيل واسير وجريح . وحاول الروس القيام بهجوم جديد في سنة ١٩١٦ ولكنهم اخفقوا .

لما اعلنت الروسيا الحرب تناسى الروس خلافاتهم الداخلية وايدوا الحكومة بحماسة شديدة . ولكن لما اصيب الجيش الروسي بالهزائم المتتابعة عادت المعارضة الى الظهور واعتبرت نظام الحكم القيصري الفاسد مسؤولاً عن الكارثة ، وقالت ان الاصلاح اصبح ضرورياً ملحاً اكثر من اي وقت مضى . وفي آذار سنة ١٩١٧ اعلن الشعب والجيش الثورة وارغما القيصر نقولا الثاني آخر قياصرة سلالة رومانوف على التنازل عن العرش . وفي تشرين الثاني من السنة نفسها قام الشيوعيون بثورة ثانية انتهت باستلامهم الحكم في الروسيا . وكان اشهر زعماء الثورة في ذلك الحين لينين Lenin وتروتسكي Trotsky .



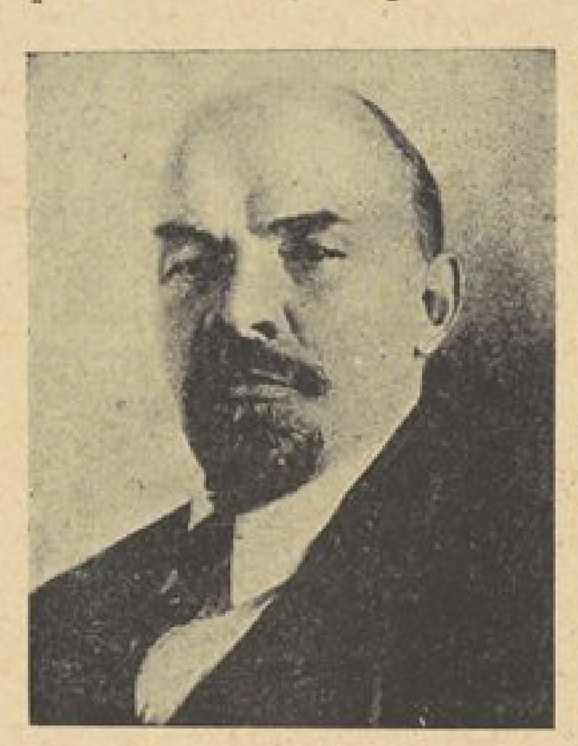
القيصر نقولا الثاني

قررت الحكومة الشيوعية الانسحاب من الحرب فاتصلت

بالدول الوسطى وعقدت معها صلح برست ليتوفسك Brest Litovsk في آذار سنة ١٩١٨ . وكان هذا الصلح صدمة عنيفة للحلفاء لانه افقدهم حليفاً واقفل جبهة للألمان .

(ج) جبهة البلقان

لم ترتدِ هذه الجبهة طابعاً من الاهمية إلا بعد دخول تركية الحرب الى جانب المانية والنمسا في تشرين الثاني سنة ١٩١٥ . ووجه الاهمية فيها ان تركية بموقعها الجغرافي المهم فصلت الروسيا عن حلفائها وقطعت عنها المدد الذي كان يمكن ان يأتيها عبر البوسفور والدردنيل . وهذا كان من جملة الاسباب التي ادت الى انهيار الروسيا العسكري في سنة ١٩١٥ وما بعدها .



لينين

وادركت انكلترة خطورة هذا الوضع فانزلت في سنة ١٩١٥ حملة عسكرية في شبه جزيرة غاليبولي لتستولي على المضايق وتفتحها لملاحة الحلفاء . ولكن الحملة باءت بالفشل وانسحبت بعد ان تكبدت خسائر جسيمة . اما القوة التي نزلت في سالونيك فقد

استطاعت ان تحتفظ بهذا المرفأ في يديها حتى نهاية الحرب .

وانقسمت الدول البلقانية بين المعسكرين . وفي سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ قامت المانية والنمسا وبلغارية بحملات مشتركة واخضعت رومانية والصرب الموالبتين للحلفاء ، وسيطرت على شبه جزيرة البلقان كلها باستثناء اليونان . وكان لهذه السيطرة اهمية مزدوجة ، فقد ربطت جبهة الدول الوسطى ربطاً محكماً وجعلتها خطاً متماسكاً يمتد من بحر الشمال الى شبه الجزيرة العربية . كما قطعت كل امل للحلفاء بالوصول الى الروسيا عن طريق تركيا والبلقان .

(د) الجبهة الجنوبية

في نيسان سنة ١٩١٥ انضمت ايطالية الى الحلفاء واعلنت الحرب على النمسا . ولما لم يكن لهذه الجبهة تأثير مهم في سير الحرب فاننا نكتفي بهذه الاشارة الخاطفة اليها .

(ه) الجبهة العربية

لما دخلت تركيا الحرب في تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ارسلت بعض جيوشها الى البلاد العربية التي كانت خاضعة لها . وكان أهم تلك الجيوش الجيش العثماني الرابع الذي أتى الى سورية وفلسطين تحت قيادة جمال باشا ليشنّ هجوماً على ترعة السويس فيستولي عليها ويطرد الأنكليز من مصر ويقطع عليهم الطريق الى الهند عبر البحر الاحمر . وفشل الهجوم الاول الذي شنه هذا الجيش على الترعة في مطلع سنة ١٩١٥ ، ولكن قائده لم ييأس وراح

يعد العدة لشن هجوم جديد .

وتنبه الانكليز الى الدور الخطير الذي يمكن ان يمثله العرب في هذه الجبهة ، فاتصلوا بالحسين شريف مكة واتفقوا معه على



فيصل بن الحسين

ان يمنح الحلفاءُ العربَ استقلالهم اذا ثاروا ضد العثمانيين . فقبل الحسين بذلك واعلن الثورة في حزيران سنة ١٩١٦ . وتألف جيش عربي بقيادة الامير فيصل نجل الحسين، وابتدأ الزحف شمالاً نحو سورية مهدداً تهديداً خطيراً مؤخرة الجيش العثماني والالماني

الذي كان مستعداً لمهاجمة الترعة. وقد ساعدت هذه الحركة الالتفافية التي قام بها العرب على تضعضع العثمانيين وتراجعهم. فتعقبهم الجيش الانكليزي بقيادة الجنرال ألنبي شمالاً في فلسطين، وتعقبهم الجيش العربي شمالاً في شرق الاردن. وبعد عدة معارك استولى الحلفاء على القدس في سنة ١٩١٧ ودمشق في سنة ١٩١٨ واخرجوا العثمانيين من سورية ولبنان.

اما في العراق فقد نزلت حملة انكليزية في البصرة في اوخر سنة ١٩١٤ وتقدمت شمالاً ببطء، فاستولت على بغداد في سنة ١٩١٧. وقبل ان تصل الى الموصل كانت الحرب مع تركية قد انتهت.

(و) الحرب البحرية

لما وقعت الحرب كانت اساطيل الحلفاء، وخصوصا الاسطول البريطاني، تسيطر سيطرة تامة على البحار. فلزمت السفن التابعة للدول الوسطى مرافئها أو التجأت الى مرافىء الدول المحايدة. ولكن بعضها وقع في قبضة الحلفاء. وتحرش الاسطول الألماني مرة في سنة ١٩١٦ بالاسطول البريطاني في بحر الشمال فجرت بينهما معركة جوتلند التي خسر فيها الطرفان خسائر كبيرة. ولم يظهر الاسطول الالماني بعد ذلك.

قطع الحلفاء تجارة المانية ومنعوا الدول المحايدة من التعامل معها في المواد التي تساعدها على متابعة الحرب وخصوصاً المواد الحربية والغذائية. فتضايق الألمان من هذا الحصار، واتهموا انكلترة

بالسعي لابادة الشعب الالماني جوعاً بغية كسب الحرب .

وارادت المانيا ان تعامل انكلترة بالمثل فالتجأت الى سلاح جديد هو الغواصة ، وضربت حصاراً حول الجزر البريطانية مهددة بنسف جميع السفن التي توجد في منطقة الحصار . وقد اغرقت الغواصات الالمانية سفناً كثيرة وبعثت الرعب في نفوس الحلفاء . وفي سنة ١٩١٥ اغرقت غواصةٌ السفينةَ البريطانية « لوزيتانية » دون انذار فهلك فيها الف شخص تقريباً ، منهم مئة اميركيون. فأثارت هذه الحادثة الرأي العام الاميركي وكانت في جملة الاسباب التي دفعت الولايات المتحدة الى دخول الحرب .

كبدت حرب الغواصات الحلفاء خسائر جسيمة ، ولكنها لم تستطع ان توقف نشاطهم البحري تماماً . فبقيت سفنهم تمخر عباب البحار وتنقل اليهم من الولايات المتحدة ومن الدول المحايدة والمستعمرات النجدات والمعدات والمواد الاولية التي مكنتهم في النهاية من احراز النصر .

(ز) دخول الولايات المتحدة الاميركية الحرب

لدخول الولايات المتحدة الحربَ اسباب عديدة منها عطف الاميركيين على فرنسة ، وروابط اللغة والجنس والثقافة التي تشدهم الى البريطانيين ، والاساليب الانتقامية القاسية التي طبقها الالمان في بلجيكة وشمالي فرنسة ، وتصرف عمال الالمان المثير في الولايات المتحدة نفسها ، ودعاية الحلفاء الواسعة ضد الدول الوسطى. ولكن السبب المباشر كان اختلاف الاميركيين والالمان

بشأن حرب الغواصات واساليبها ، والأثر السيء الذي تركه اغراق السفينة لوزيتانية .

وفي مطلع سنة ١٩١٧ أعلن الالمان للعالم انهم سيعودون الى حرب الغواصات الشاملة واغراق السفن دون تمييز أو انذار سابق . فقطعت حكومة الولايات المتحدة علاقاتها الدبلوماسية مع المانية فوراً ثم اعلنت عليها الحرب في نيسان . وكان لاعلان اميركة الحرب تأثير كبير في رفع معنويات الحلفاء وجيوشهم ، وقد حذا حذو اميركة في اعلان الحرب على المانية في سنة ١٩١٧ عدد من الدول مثل كوبا وباناما واليونان والصين والبرازيل .



الرئيس ولسن

حرص الرئيس الاميركي وُدرو ولسن Woodrow Wilson على ان يذكر في كل مناسبة اهداف اميركة من الحرب وان يؤكد انها لا تطمع في مستعمرات او تعويضات او تضمر شراً لشعوب البلدان التي تحاربها ، بل انها تسعى للقضاء على انظمة الحكم الاستبدادية العسكرية ولتعزيز الديمقراطية في العالم . وفي ٨ كانون الثاني سنة ١٩١٨ القى الرئيس ولسن خطاباً امام الكونغرس دعا فيه الدول الوسطى الى عقد صلح شريف مع الحلفاء على اساس

اربعة عشر بنداً اشتهرت فيما بعد باسم « مبادىء ولسن الاربعة عشر » وكان اهمها ما يلي :

أولاً : وجوب التصريح عن نصوص المعاهدات حين تعقد بين الدول .

ثانياً : تأمين حرية البحار في السلم والحرب .

ثالثاً : ازالة الحواجز الاقتصادية بين الدول .

رابعاً : اعادة النظر في قضايا المستعمرات بصورة عادلة تراعي مصالح جميع الفرقاء .

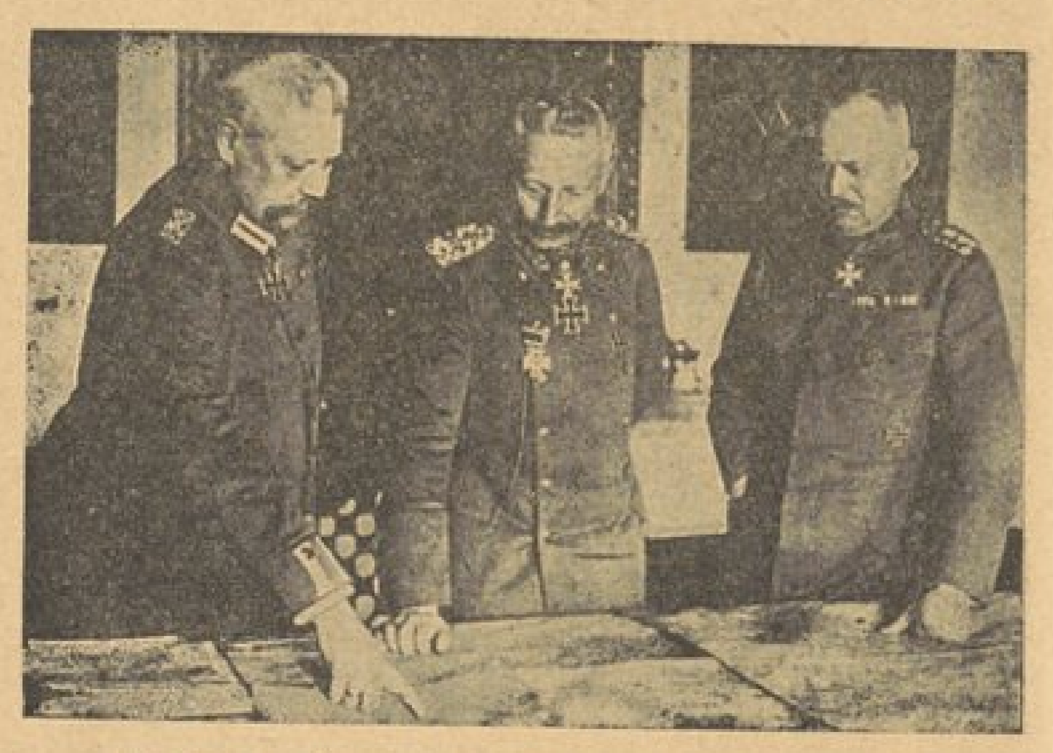
خامساً : تأسيس جامعة امم تشترك فيها جميع الدول المستقلة على قدم المساواة .

ولكن المانيا وحلفاءَها لم يردوا على عرض ولسن واستمرت الحرب في سيرها .

(ح) كيف انتهت الحرب

لم يُحدث دخول الولايات المتحدة الحرب تغييراً محسوساً في جبهات القتال في سنة ١٩١٧ لسببين : أولاً ، لان عدد الجنود الاميركيين الذين انتقلوا الى اوروبة كان قليلاً . وثانياً لأن انسحاب الروسيا من الحرب بعد ذلك بقليل مكن الالمان من استقدام قسم كبير من جيوش الجبهة الشرقية الى الغرب . ولكن الألمان قدروا ان الجنود الاميركيين سيتدفقون الى اوروبة باعداد كبيرة في سنة ١٩١٨ ، لذلك قرروا ان يقوموا بهجوم عام في الربيع من تلك السنة . ابتدأ هجومهم في آذار واستمر بنجاح ثلاثة

شهور وصلوا في نهايتها قريباً من المراكز الامامية التي وصلوا اليها في سنة ١٩١٤ على المارن. ولكنهم اخفقوا في هدفهم الرئيسي وهو خرق جبهة الحلفاء والوصول الى باريس . وتعرف هـذه المعركة بمعركة المارن الثانية .



الامبراطور غليوم والى يمينه المارشال هندنبرغ والى يساره الجنرال لودندورف يدرسون خارطة الجبهة

وفي اثناء ذلك كان الحلفـاء ينظمون صفوفهم ويستعدون لهجوم معاكس كبير يشنونه بمعاونة مليون ونصف مليون جندي اميركي كانوا قد وصلوا الى فرنسة . ومن التدابير الحكيمة التي اتخذها الحلفاء في ذلك الظرف العصيب انهم وحدوا قيادة جيوشهم وعهدوا بها الى المارشال الفرنسي فوش .

وفي تموز ابتدأ الحلفاء هجومهم فاضطر الالمان الى التراجع امام ضغط الحلفاء الذين اصبحوا يتفوقون عليهم تفوقاً محسوساً بالرجال والعتاد .

ولم تكن الحالة في الجبهات الاخرى في صيف وخريف سنة ١٩١٨ باحسن منها في الجبهة الغربية . ففي سورية والعراق كانت جيوش الحلفاء قد قضت على القوات العثمانية والالمانية وتقدمت نحو حدود آسية الصغرى نفسها .

المارشال فوش

وفي البلقان تشكلت حملة من قوات انكليزية وفرنسية ويونانية وصربية وهاجمت بلغارية فاجبرتها على الاستسلام في ٢٩ ايلول . وكان استسلام بلغارية ضربة قاضية لتركية التي اصبحت معزولة عن حلفائها ومعرضة للغزو من جبهتين ، الجبهة العربية وجبهة البلقان . وبعد محاولات يائسة طلبت الصلح والقت السلاح في ٣١ تشرين الاول . وفي ٤ تشرين الثاني استسلمت النمسا ايضاً تحت ضغط هجوم الايطاليين والثورات الداخلية التي قامت بها الاقليات المطالبة باستقلالها مثل التشيكيين والكرواتين والبولنديين وغيرهم .

وكانت المانية بعد فشل هجومها الاخير قد تحققت من انها خسرت الحرب فعرضت على الرئيس ولسن أن تتفاوض مع الحلفاء لعقد صلح شريف على اساس مبادئه الاربعة عشر . فكان لخبر طلب الصلح، ولاستسلام جميع حلفاء المانية ، وللهزائم المتتالية التي اصابت جيشها في الجبهة الغربية تأثير كبير في تطور الحالة الداخلية بسرعة . فتمرد البحارة وعصت بعض فرق الجيش ونشبت الثورة في شمالي المانية وجنوبيها . وفي ٩ تشرين الثاني انتقلت الثورة الى برلين نفسها ، فتنازل وليم الثاني (غليوم)عن العرش ثم غادر البلاد ملتجئاً الى هولندة . فانتهى بذلك عهد آل هوهنزولرن في المانية وابتدأ عهد جديد .

وبعد سقوط النظام الامبراطوري أعلنت الجمهورية في المانية وتولى الاشتراكيون الحكم وكان اول عمل هامّ قاموا به طلب وقف القتال . فأجابهم المارشال فوش الى طلبهم فارضاً عليهم شروطاً قاسية . وقبيل الظهر في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ أعلنت الهدنة فوقف القتال وانتهت الحرب العالمية الاولى .

٣ ـ معاهدة فرساي

اجتمع مؤتمر الصلح في باريس لوضع نص المعاهدة مع المانية وكان ابرز اعضائه الرئيس ولسن عن الولايات المتحدة، وكليمنصو عن فرنسة ، ولويد جورج عن انكلترة : وقد لقبوا « بالثلاثة الكبار » . وفي ٢٨ حزيران وقعت الحكومة الالمانية على المعاهدة المعروفة بمعاهدة فرساي . وقد أصر الرئيس ولسن على ان

تتضمن المعاهدة ميثاق الهيئة الدولية التي كان يقترح انشاءها .
والجدير بالذكر ان الولايات المتحدة عادت بعد الحرب الى



الكبار الثلاثة وهم من اليمين ويلسون ، كليمنصو ، لويد جورج

سياستها الانعزالية التقليدية فلم تقر معاهدة فرساي ولم تنضم الى جامعة الامم .

(أ) جامعة الامم

نصت المعاهدة على تأليف هيئة دولية تسمى «جامعة الامم» ُتقبل في عضويتها الدول المستقلة ويكون مركزها في جنيف بسويسرة . والغرض من انشائها ايجاد التعاون بين الدول ، والمحافظة على السلام والسعي لتخفيض التسلح ، ومحاربة المرض والجهل والاتجار بالرقيق والمخدرات . وتشجيع العلم ونشر المعرفة وغير ذلك من الاهداف السامية .

(ب) شروط الصلح

ان شروط الصلح التي تضمنتها معاهدة فرساي والمعاهدات الاخرى التي وقعت بعدها مع حلفاء المانية السابقين كثيرة متنوعة ، نكتفي هنا بذكر أهم ما جاء فيها :

أولاً : ُقطعت اجزاء كثيرة من المانية وضمت الى الدول المجاورة لها مثل الالزاس واللورين اللتين اعيدتا لفرنسة .

ثانياً : أخذت من المانية جميع مستعمراتها ، فاقتسمها الحلفاء – ما عدا الولايات المتحدة – بينهم .

ثالثاً : ُخفض تسليح المانية تخفيضاً لم يعد يمكنها من القيام باعمال عدوانية .

رابعاً : فرضت على المانية غرامة كبيرة جداً لم تتمكن من دفعها كلها فيما بعد .

خامساً : اعطيت بعض الدول استقلالها مثل بولندة وفنلندة وتشيكوسلوفاكية والحجاز وغيرها .

سادساً : فُصلت البلاد العربية عن الدولة العثمانية ليقرر مصيرها وفقاً للتعهدات السابقة ولميثاق جامعة الامم .

كان بعض شروط معاهدة الصلح عادلاً مقبولاً ، ولكن بعضها الآخر كان مجحفاً ظالماً املته روح الانتقام والطمع التي كانت مسيطرة على نفوس بعض اعضاء مؤتمر الصلح . وقد دفعت البشرية غالياً ثمن تلك المظالم والاخطاء التي ارتكبت في معاهدة فرساي ومعاهدات الصلح الأخرى ، لأنها مهدت السبيل لنشوب الحرب العالمية الثانية التي كانت اشد هولاً من الحرب العالمية الاولى .

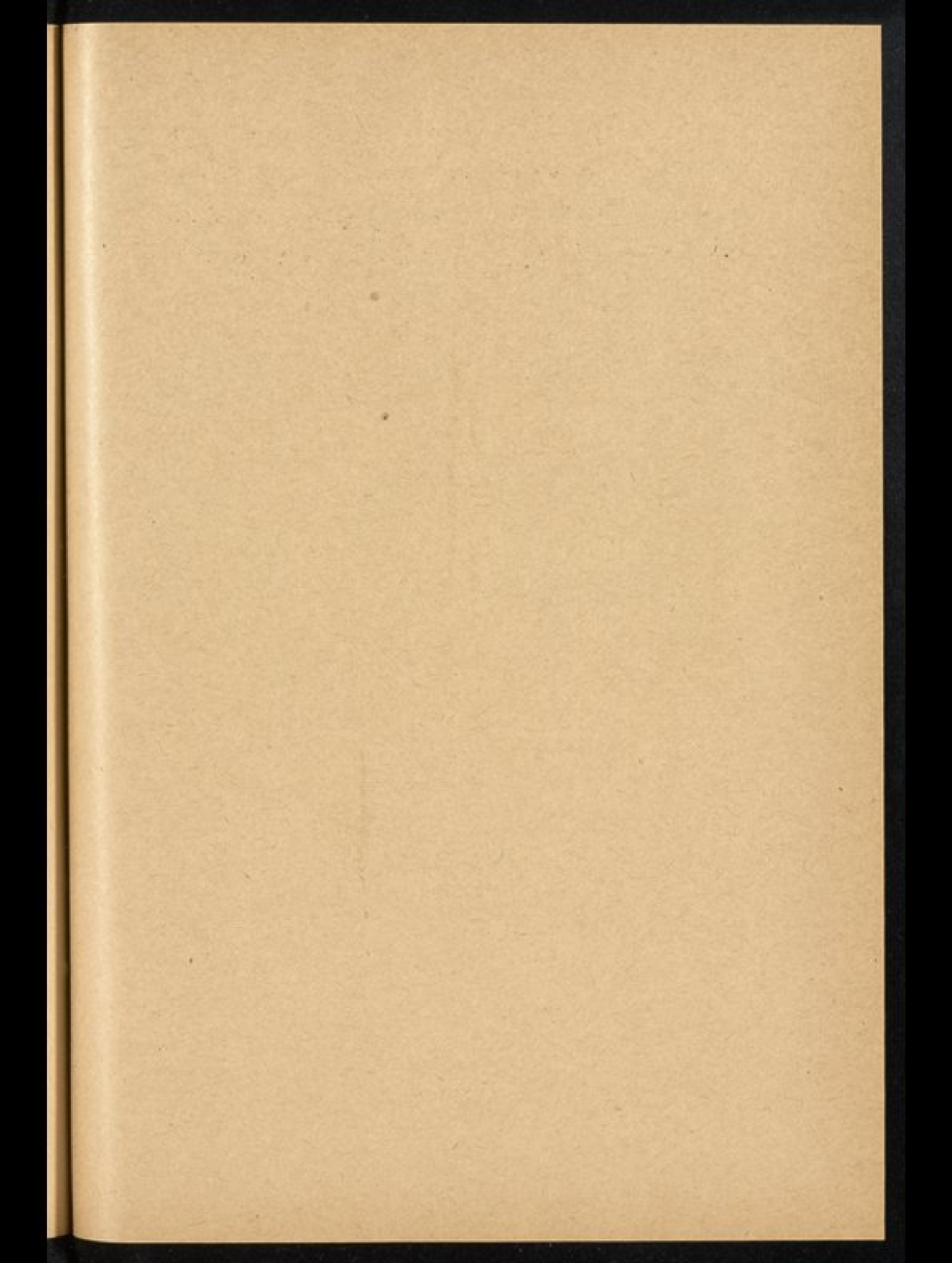
٤ ـ تكاليف الحرب

سببت الحرب كثيراً من الخراب والدمار والخسارة في العالم ، ويقدر عدد القتلى بعشرة ملايين جندي ، وعدد الوفيات الناجمة عن الحرب بعشرة ملايين من المدنيين معظمهم من الاطفال والنساء والشيوخ . اما الجرحى فقد بلغ عددهم اثنين وعشرين مليوناً ، واكثر من نصفهم تعطلوا بسبب الجراح مدى الحياة . وبلغ عدد المفقودين الذين لم يعلم شيء عن مصيرهم خمسة ملايين . ومعنى ذلك ان عدد الذين تأذوا من الحرب مباشرة يزيد على عدد سكان بريطانية أو فرنسة او ايطالية .

اما النفقات المادية التي بذلت في سبيل الحرب فتقدر بـ ١٧٣ مليون دولار اميركي يومياً لمدة اربع سنوات وثلاثة شهور وعشرة ايام . ولو أنفق هذا المبلغ على اعمال سلمية لكان كافياً لشراء بستان صغير ولبناء وتأثيث دار لكل اسرة تقطن في

الولايات المتحدة وكندا واسترالية والجزر البريطانية وفرنسة وبلجيكة والمانية والروسيا . وكان بالامكان ايضاً انشاء مكتبة ومستشفى وجامعة في كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين الفاً . ولكن الحرب حرمت العالم كل هـذا ولم تترك وراءها غير الألم والحزن والخراب .

وللحرب نتائج سيئة اخرى كثيرة لا مجال لذكرها الآن .



القسم الثاني من المنهاج

●

لبنان

في العصر الحديث

١ - الشهابيون

في القرن الثامن عشر (١٦٩٧ - ١٧٨٩)

•

١ — انتصار القيسية

أجداد الشهابيين

عرفتَ في الأجزاء السابقة من كتابنا هذا أن الشهابيين ينتمون الى مالك الملقب بشهاب بن الحارث . والحارث هذا كان اميراً على بني مخزوم الذين خرجوا مع الفتح الاسلامي من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ، فاشترك ومن معه في معارك أجنادين واليرموك ودمشق . وقام بعده ابنه مالك الذي استقر في « الشهباء » من أرض حوران . واقام ابناء « شهاب » وحفدته في حوران الى ان كان القرن الثاني عشر الميلادي ، حين رأى صلاح الدين الايوبي منهم شجاعة ومعونة في حروبه ضد الفرنج ، ورأى من اميرهم « منقذ » بلاءً حسناً ، إذ استطاع أن يخرج الصليبيين من وادي التيم في البقاع ، وان يستولي على حاصبيا وما حولها ، بعد معارك شديدة . فلم يجد صلاح الدين بداً من ان يقرّ «منقذاً» اميراً على البلاد التي استولى

عليها، مكافأة للشهابيين على بلائهم من ناحية ، وضماناً لبقاء وادي التيم في ايدٍ عربية ، وعدم وقوعه تحت سيطرة الصليبيين مرة اخرى .

وهكذا تمّ انتقال آل « شهاب » عام ١١٧٣ من حوران الى وادي التيم ، حيث توارثوا إمارته جيلاً بعد جيل .

الشهابيون في عهد المعنيين

عندما نزل الشهابيون وادي التيم ، كان المعنيون يقيمون في الشوف ، فاستقبلوا جيرانهم الجدد بترحاب وحفاوة واتصلوا بهم منذ قدومهم ، وتوثقت عرى الود والتعاون مع الايام .

ولا غرابة في قيام هذه الصلات وتوثقها ، فقد كان الشهابيون من القيسية ، كما كان المعنيون من القيسية ايضاً ،فجمعت بينهم النزعة القبلية ووحدت اهدافهم .



صلاح الدين الايوبي

وكان من نتيجة صلة الدم هذه ان تحالفت الاسرتان تحالفاً حربياً وثيقاً : يحارب ابناؤهما من يحاربهم ، وينجد بعضهم بعضاً في المعارك . وهكذا بدأ التعاون الحربي منذ السنة الاولى لقدوم الشهابيين ، فساعدهم المعنيون في حروبهم ضد الصليبيين حتى تم استقرار الشهابيين في وادي التيم .

ولما اكتسح المغول بلاد الشام واحتلوا وادي التيم عام ١٢٣٨ لم يجد الشهابيون خيراً من الالتجاء الى المعنيين في الشوف ، فنجوا من بطش المغول وطغيانهم ، ثم لم يلبث الشهابيون أن عادوا الى بلادهم اعزة بمساعدة المعنيين .

وكان الامير فخر الدين الثاني يستنجد بالامير علي الشهابي كثيراً ، فيسرع هذا بالجنود والفرسان يقدمهم بين يدي الامير المعني في حروبه ضد ابن سيفا ، كما كان الشهابيون يستنجدون بدورهم ، بالامير فخر الدين الثاني ضد حافظ باشا والي دمشق ، فيمدهم بكل ما يحتاجون اليه حتى يكفّ والي دمشق عنهم .

وعندما حارب علي باشا جانبولاد ابن سيفا — على النحو الذي درسناه في الجزء السابع من هذا الكتاب — كان المعنيون والشهابيون صفاً واحداً مع جانبولاد وضدّ ابن سيفا .

ولا شك في ان هذا التعاون الحربي بين الاسرتين قد عاد بفوائد كبيرة على المعنيين الذين يدينون باستمرار إمارتهم وطول عمرها الى حلفائهم ، وفي مقدمة هؤلاء الحلفاء : الشهابيون .

على أن الصلات بين الاسرتين لم تقف عند حد القرابة القيسية او المحالفة الحربية ، بل لقد شدتها ووثقت عراها المصاهرة المستمرة

والمتجددة ، خلال خمسمئة سنة من اقامة الشهابيين في وادي التيم .

فقد نزل الشهابيون عام ١١٧٣ في وادي التيم ، وعُقدت اول مصاهرة بين الاسرتين القيسيتين عام ١١٧٥ وذلك عندما اقترن الامير محمد بن منقذ الشهابي بابنة الامير يونس المعني ، كما اقترن في اليوم نفسه الامير يوسف بن يونس المعني بابنة الامير منقذ الشهابي .

وظلت المصاهرات بين الاسرتين تتجدد جيلاً بعد جيل ، الى ان سجلها فخر الدين الاول في تحالف وثيق بينه وبين الامير منصور الشهابي ، ووقعا صكاً كتب فيه « انهما يكونان وعيلتهما حالاً واحداً » .


الامير فخر الدين الثاني

وفي عهد الامير فخر الدين الثاني اقترن المعني الكبير بابنة الامير علي الشهابي ، كما اقترن الامير علي الشهابي بابنة الامير يونس (شقيق فخر الدين) .

ولم يتعكر جو العلاقات بين الاسرتين إلا زمناً قصيراً عندما ارغم « حافظ باشا » والي دمشق بعض الشهابيين على الانضمام اليه ضد المعنيين ، فاضطر فريق منهم الى موالاته

بعض الوقت .

وقد أصيب الشهابيون بما اصيب به المعنيون في نكبتهم ، فعندما قبض « الكُجُك » على فخر الدين الثاني واولاده الثلاثة وارسلهم الى الاستانة حيث لقوا حتفهم بأمر السلطان ، ما عدا واحداً منهم ، قبض ايضاً على خمسة من امراء بني شهاب وقتلهم فجمعت الاقدار بين الاسرتين في السراء والضراء .

والجدير بالذكر ان هذه المصاهرات هي التي اتاحت للشهابيين ان يخلفوا المعنيين في إمارة الشوف ، عندما انقطعت سلالتهم . فقد تزوج الامير حسين الشهابي امير راشيا ، ابنة الامير ملحم المعني ، فرُزقا بشيراً الاول ، وهو اول امير شهابي على الشوف . وتزوج ايضاً الامير موسى الشهابي امير حاصبيا ابنة الامير احمد آخر امراء المعنيين ، فرُزقا «حيدر» ، ثاني امير شهابي على الشوف .

الشهابيون يخلفون المعنيين

عندما انقرضت سلالة المعنيين بوفاة الامير أحمد المعني ، عام ١٦٩٧ اجتمع أعيان لبنان في مرج السمقانية بين دير القمر والمختارة لاختيار أمير لهم . وكان طبيعياً ان يقع الخيار على واحد من الشهابيين ، فهـم رأس الحزب القيسي بعد زوال المعنيين ، وهم حلفاء آل معن ، وهم ورثتهم الشرعيون ، لما بين الاسرتين من قرابة ومصاهرة .

وهكذا كان ، فقد وقع اختيار المجتمعين على الامير بشير الراشاني (امير راشيا) ابن أخت الامير أحمد المعني . ولكن

الباب العالي ، اي الحكومة العثمانية ، رأى أن يكون الامير حيدر ابن بنت الامير احمد المعني ، هو خليفة المعنيين ، ووارث إمارتهم. ويقال إن الباب العالي استشار في هذا الامر «حسين بك» الذي نجا من الاعدام من بين ابناء الامير فخر الدين الثاني، وكان قد اصبح من سفراء الدولة العثمانية ، فأشار بهذا الرأي . ولعل الباب العالي رأى ان اختيار الامير حيدر اكثر انطباقاً على نظام الوراثة المعروف ، فابن البنت أقرب من ابن الاخت . ولكن لما ظهر ان الامير حيدر لم يزل صغير السن، اذ لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة ، وافق الباب العالي على ان يلي الامير بشير الحكم بالوصاية ، حتى يبلغ الامير الصغير سن الرشد .

نهاية اليمنيين في عين داره

لم يكن ابناء لبنان جميعاً من الحزب القيسي ، بل كان هناك فريق غير قليل من الحزب اليمني ، سواء أكانوا ينحدرون حقاً من قبائل يمنية النسب ، أم كانوا من اليمنيين عاطفةً وهوى ، كبعض الاكراد الذين انضووا تحت لواء اليمنيين. وقد عانى منهم المعنيون ، وفخر الدين خاصة ، الواناً من الدسّ والمقاومة ، ولم تنجح مصاهرته لهم وإكرامه لزعمائهم ، وكذلك لم تردهم المعارك العديدة التي نشبت بين الفريقين الا تشبثاً وضراوة في تحزبهم ضدّ القيسية ، بالرغم من ان القيسيين كانوا ينتصرون على اليمنيين في اكثر المعارك التي اندلعت بينهما .

ولما خلف الشهابيون المعنيين ، وقف في وجههم اليمنيون

الذين لم يرضوا ببشير الشهابي اميراً ، ففروا الى دمشق خوفاً من بطشه وأملاً في إعادة تنظيم قواهم .

ولم يتح لليمنيين ، خلال حكم بشير الاول ، الذي استمر تسع سنوات ، ان يستعيدوا مكانتهم . فلما خلفه الامير حيدر عام ١٧٠٦ واتت الفرص اليمنيين ، فقد كان الامير حيدر قد اخضع بلاد بشارة (جبل عامل) بعد عصيان اهلها ووكل امرها الى محمود أبي هرموش ، ينوب عنه في حكمها ويجبي له الاموال منها. فلما طلبه لاداء ما جباه ، التجأ هذا الى والي صيدا ، وكان قد أغراه بالهدايا ، فساعده على الامير حيدر ، والتمس له من السلطان لقب باشا . وعندئذ عزل والي صيدا الامير حيدر وجعل مكانه الامير يوسف علم الدين اليمني . وعندما توجه الامير يوسف مع محمود باشا أبي هرموش للاستيلاء على دير القمر عام ١٧١٠ تخاذل انصار الاميرحيدر عن نصرته ، فآثر الانزواء وتوجه مع ولديه ملحم واحمد الى غزير في كسروان ، ولكن اليمنيين لحقوا به الى هناك ، فالتجأ الى الهرمل واختبأ في مغارة حصينة نحو سنة من الزمن .

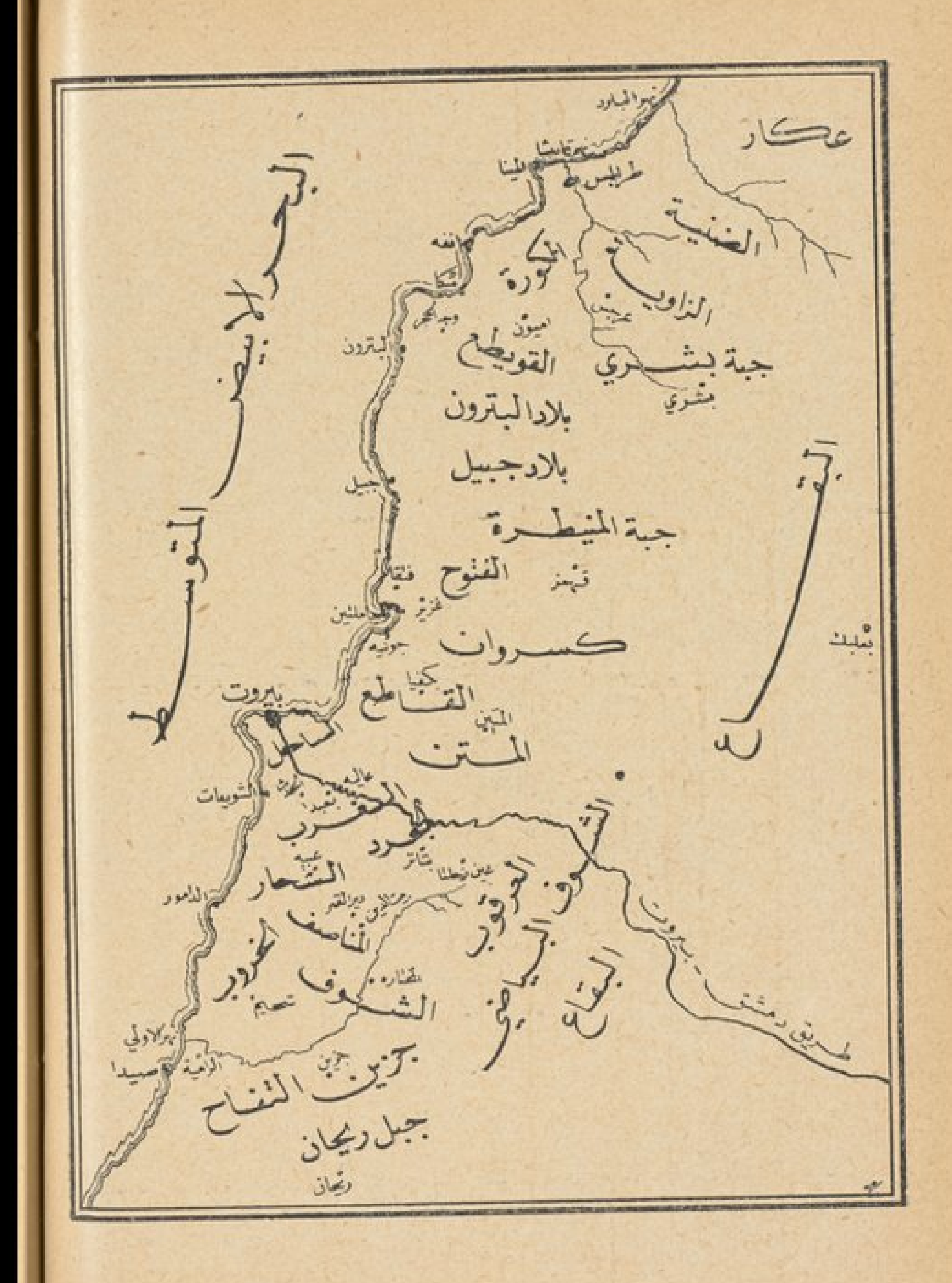
وخلال هذه السنة تولى الحكم محمود باشا ابو هرموش معتمداً على آل علم الدين اليمنيين ، ولكن ظلمه للرعية ، واضطهاده للقيسية جعلا فريقاً كبيراً من الناس ينتظرون عودة الامير حيدر بفارغ الصبر . فلما اطمأن الامير حيدر الى رغبة الناس هذه ، غادر مخبأه في الهرمل وتوجه الى رأس المتن حيث اقام عند اللمعيين ، فاجتمع اليه عدد كبير من القيسية ، ثم توجهوا الى عين دارة سنة ١٧١١ حيث كان محمود أبو هرموش يجمع صفوفه استعداداً للقتال .

ولكن الامير حيدر لم يدع له الفرصة ، بل انقض عليه بجموعه من كل جانب ،ولم يحن اصيل ذلك النهار حتى كانت ساحة المعركة قد امتلأت بجثث القتلى مؤذنة بانتصار الامير حيدر على خصومه ، ومن لم يقتل من آل علم الدين في ساحة المعركة ، وقع اسيراً بين يدي الامير حيدر ، ولكن الاسر لم يكن خيراً من القتل ،فقد امر الامير حيدر بقتل امراء آل علم الدين فانقطعت بذلك سلالتهم .
اما محمود باشا ابو هرموش فقد اكتفى الامير حيدر بقطع لسانه وإبهاميه ،ولم يقتله احتراماً للقب الباشوية الذي يحمله من السلطان.

اما من استطاع النجاة من المنتمين الى الحزب اليمني ، او من الذين لم يشتركوا في هذه المعركة ، فقد آثروا النزوح الى جبال حوران حيث استقروا في بلاد منيعة دعيت فيما بعد « جبل الدروز » .


الامير حيدر الشهابي

اصبح الامير حيدر سيد البلاد ، فخصومه اليمنيون قد انقرض امراؤهم ، ونزح جمهورهم ، ووزيرا صيدا ودمشق اللذان كانا قد قدما لمعاونة اليمنيين عليه ، قد عادا على عقبيهما مع جنودهما عندما جابهتهما هذه النتيجة الحاسمة .



البحر الابيض المتوسط
عكار
طرابلس
الضنية
الزاوية
الكورة
جبة بشري
بشري
القويطع
البترون
بلاد البترون
بلاد جبيل
جبيل
جبة المنيطرة
الفتوح
كسروان
بعلبك
بيروت
القاطع
المتن
الغرب
الجرد
الشحار
المناصف
الخروب
الشوف
جزين
التفاح
جبل ريحان
صيدا
طريق دمشق

٢ ـ تنظيم لبنان

الأمير حيدر يوزع الاقطاعات

بانتصار القيسية في معركة عين دارة ، زال الحزب اليمني عن مسرح السياسة في لبنان ، وانصرف الامير حيدر على رأس الحزب القيسي الى اصلاح شؤون ولايته وتحسين أحوال الناس فيها ، وتنظيم الادارة الداخلية في البلاد ، فجعل جميع مساعديه وعماله من الحزب القيسي .

لم يكد الامير حيدر ينصرف من عين دارة الى عاصمته دير القمر حتى خطا بضع خطوات سياسية واجتماعية ، فوزع اراضي لبنان توزيعاً جديداً على الامر القيسية التي ناصرته في كفاحه ضد الحزب اليمني ، وذلك على الشكل التالي :

أقطع الامير حيدر آلَ جنبلاط الشوف ، وولى على المناصف بني نكد ، وعلى العرقوب بني عماد ، وجعل الجُرْد لبني عبد الملك وقسم الغرب الى قسمين : فجعل على قسمه الساحلي بني ارسلان ، وعلى قسمه الجبلي بني تلحوق .

اما في كسروان فقد اقرّ ولاية المشايخ الخازنيين ، اصدقاء المعنيين والشهابيين ، وجعل الزاوية لمشايخ بيت الضاهر ، والكورة لمشايخ بيت العازار ، وجبة المنيطرة لمشايخ آل حمادة الشيعة .

وجعل اللمعيين امراء بعد ان كانوا مقدّمين ، وأباح الزواج بينه وبينهم ، فتزوج هو منهم ، كما تزوج احدهم من ابنته ،

وأقطعهم المتن .

ولما قويت سلطته في جبل لبنان ، واستقرت له الامور فيه تقرّب من زعماء جبل عامـل الشيعة ، ومشايخ بعلبك ووادي التيم ، فمالوا اليه واقروا ولايته عليهم .

وكان يدير من مركزه في دير القمر جميع هذه المناطق ، التي كانت تؤلف قديماً ، معظم إمارة الامير فخر الدين الثاني .

بيروت عاصمة الشهابيين الثانية

وفي عام ١٧٢٩ تنازل الامير حيدر عن الحكم لابنه الامير ملحم ، الذي ظل في الحكم حتى عام ١٧٥٤ . وقد كان في هذه المدة على وفاق مع والي صيدا ودمشق ، وكانا من آل العظم ، وضم الى ولايته مدينة بيروت وجعلها عاصمة ثانية لحكمه ، مع دير القمر .

فلما مرض لم يعد باستطاعته مقاومة اخويه احمـد ومنصور ، اللذين اضطراه الى ان يقلدهمـا الولاية ، فاعتزل الحكم ، وسكن بيروت الى ان توفي عام ١٧٦١ ودفن في جامع الامير منذر .

الجنبلاطية واليزبكية

علمنا ان الانقسام الحزبي في لبنان ، قد زال ، اثر معركة عين دارة ، واصبح اللبنانيون جميعـاً من الحزب القيسي ، ولكن القيسيين لم يستطيعوا أن يعيشوا يداً واحدة ورأياً واحداً اكثر من اربعين سنة ، ففي عهد الاميرين أحمـد ومنصور اللذين

كانا يحكمان معاً * ، تنازع عليّ جنبلاط وعبدالسلام عماد اليزبكي، وهما من اركان القيسية ، واشتد نزاعهما حتى انتقل الى اتباعهما ، فاذا الناس فريقان : فريق جنبلاطي يؤيد علي جنبلاط ، وفريق يزبكي يؤيد عبد السلام عماد اليزبكي ،وانتقلت عدوى النزاع الى الاميرين نفسهما،فمال الامير أحمد الى الفريق اليزبكي،وأيدّ الأمير منصور الفريق الجنبلاطيّ ، واختلف الاميران وعزم كل منهما على الانفراد بالحكم دون اخيه ، فأقام الامير احمد في دير القمر ، وأقام الامير منصور في بيروت ، ولكن أنصار الامير منصور الجنبلاطيين كانوا اوفر عدداً واكثر تكتلاً فاستطاع الاستقلال بالحكم وحده من ١٧٦٣ — ١٧٧٠

وتجاوزت فكرة الجنبلاطية واليزبكية الدروز والحكام الى الموارنة ، فانحاز آل الخازن وأتباعهم الى الجنبلاطيين ، وانحاز آل الدحداح وأتباعهم الى اليزبكيين . وهكذا زال الانقسام القيسي - اليمني ، وحل محله الانقسام الجنبلاطي - اليزبكي ، ولم يخلُ كل منهما من بعض الذين كانوا ينتمون الى الحزب اليمنيّ .

٣ ـ الامير يوسف والاهواء الخارجية

عوامل خارجية

خضعت سياسة امراء لبنان ، منذ عهد الامير منصور الشهابي

* كان اشتراك الاميرين بالحكم امراً مألوفاً في سياسة جبل لبنان ، فقد سبق ان حكم لبنان الاميران يونس وعلي ، خلال غياب الامير فخر الدين الثاني في اوروبة ، كما حكم الاميران احمد وقرقماز المعنيان مشتركين .

لعوامل خارجية وتيارات مجاورة ، حسب طبيعة العلاقات التي كانت تقوم بين هؤلاء الامراء وبين الولاة والوزراء المجاورين . فقد اضطربت الاحوال في هذه الفترة في فلسطين ودمشق، وظهر زعماء وغاب آخرون ، واعلن بعضهم العصيان على الدولة العثمانية فحالفهم التوفيق حيناً ، وخانهم حيناً آخر .. فكان اضطرار امراء لبنان الى الارتباط بهم والسير معهم ، سبباً في ارتباط عجلة السياسة اللبنانية بما جاورها ارتباطاً شديداً ، واضطرابها تبعاً لذلك .

ثورة علي بك الكبير وانقلاب أبي الذهب

اغتنم علي بك الكبير ، احد مماليك مصر ، انهاك الدولة العثمانية في حربها مع الروسيا عام ١٧٦٨ فاعلن استقلال مصر عن العثمانيين، معتمداً على معونة الروسيا ، ثم ضم اليه شبه جزيرة العرب ، وارسل قائده محمد بك أبا الذهب لفتح سورية . فلما بلغ فلسطين وجد ان الشيخ ظاهر العمر قد استغل هو الآخر ضعف الدولة العثمانية ، وأنشأ إمارة في شمالي فلسطين مركزها عكا ، فحالفه باسم سيده ضد الدولة ، وتابع سيره الى دمشق فدخلها بعد ان أخرج منها واليها السابق عثمان باشا ، وعندئذ ارسل الامير منصور الشهابي بعض الهدايا مهنئاً محمد أبا الذهب ولكن ما إن غادر أبو الذهب دمشق منقلباً على سيده علي بك الكبير ، حتى عاد اليها واليها السابق ، وحتى اصبح وضع الامير منصور حرجاً، فاضطر الى خلع نفسه من الولاية ، وتقليدها الى ابن اخيه الامير

الامير يوسف بن ملحم سنة ١٧٧٠ ، وكان هذا الامير أميراً على جبيل ، وكان على صلة طيبة مع والي دمشق ووالي صيدا .

انسحب أبو الذهب من دمشق بعد انوعده العثمانيون بولاية مصر ، فأخفقت ثورة علي بك الكبير ولم يبق في وجه الدولة العثمانية الا ظاهر العمر .

ظاهر العمر

وبينما كان ظاهر العمر يمد سلطانهويوسع حدوده ، اعلن شيعة جبل عامل انقلابهم على الامير يوسف ، فدارت معارك عنيفة بين الفريقين ،وانضم ظاهر العمر الى الشيعة ، كما انضم الولاة العثمانيون الى الامير يوسف. ولكن المعارك التي وقعت قرب صيدا انتهت بانهزام الامير يوسف ومن



ظاهر العمر

معه ، وباستيلاء ظاهر العمر على صيدا .

وقد اتصل ظاهر العمر بالروسيا ، عدوة الدولة العثمانية ، فارسلت اليه بعض سفنها ، فساعدته على الاستيلاء على صيدا كما هاجمت بيروت وضربتها ، ولم تغادرها الا بعد ان دفع الامير يوسف مبلغاً كبيراً من المال .

ولم يطل انتصار ظاهر العمر على الدولة العثمانية ، فلما فرغت من حربها مع الروسيا عام ١٧٧٤ هاجم الاسطول العثماني مدينة عكا التي كان ظاهر العمر قد اعتصم بها ،وضيق الجيش البري عليها الحصار ، فضاق جنود ظاهر العمر ذرعاً بهذه الحال فتآمروا عليه وقتلوه وسلموا عكا الى الدولة العثمانية .

أحمد باشا الجزار



احمد باشا الجزار

ودفعت هذه الاضطرابات الباب العالي الى التفكير في شخص قوي يضبط الأمن ويدين بالطاعة للسلطان،فوقع الاختيار على أحمد باشا الجزار ، احد قادة الدولة الذين اظهروا دهاء وحنكة وقوة بأس .

كان الجزار شاباً من بلاد البشناق ، الواقعة في يوغوسلافيا ، يعيش في عداد العبيد لدى احد مماليك مصر ، فكان مملوكاً لمملوك ، وقد اوصلته قوته الى ان اصبح قائداً لجيش قاتل به بعض الثائرين على الحكومة فقهرهم وذبح عدداً من زعمائهم فلقب بالجزار .

وفي عام ١٧٧٠ هرب الجزار من علي بك الكبير ، الذي امره بأن يفتك بأحد اصحابه فرفض ، ودخل في حاشية الامير يوسف الشهابي ، وتقرب منه حتى نال لديه حظوة عالية ، ظهرت عندما اختاره الامير يوسف « متسلماً » على بيروت ، ولكن الجزار الذي اصبح عارفاً بأحوال البلاد وقوة الامير ، اعلن عصيانه على الامير ، بعد ان حصّن بيروت ، وهدم منازل الشهابيين فيها ليرمم اسوارها .

ولم يجد الامير بداً من الاتصال بظاهر العمر الذي كان حليفاً للملكة كاترين قيصرة الروسيا ، فأبلغ السفن الروسية التي كانت تتجول في البحر الابيض ، فاتجهت صوب بيروت وفتحتها لقاء مبلغ من المال، ثم تسلمها الامير يوسف بعد ان هرب منها الجزار.

الجزار والي صيدا

فلما اضطربت الاحوال على النحو الذي مرّ معنا ، عيّن العثمانيون الجزار والياً على صيدا ، فاضطرب الامير يوسف لهذا التعيين الذي جعله خاضعاً للجزار بعد ان كان سيده حيناً ، وكان عدوه حيناً آخر .

وهنا رأى الامير يوسف أن يتبع عدة وسائل للخلاص من جور الجزار فكتب اليه رسالة يهنئه فيها بالولاية، وشفعها بهدايا نفيسة ثم استطاع الامير ان ينال من حسن باشا وزير البحرية العثمانية «عهداً بان الجزار لا صلة له بالامير إلا قبض الاموال الاميرية» المفروضة. ولكن هذه الوسيلة لم تنفع مع الجزار، فقد انتزع بيروت من يد الامير وضمها اليه، وشدد على الامير بطلب الاموال الكثيرة. وبينما كان الجزار عائداً مرة من بيروت الى صيدا هاجمه بعض الجنود لاغتياله، ولكنه نجا من هذه المحاولة، فاضطر الامير يوسف الى الاعتذار واعلان براءته من هؤلاء المعتدين...

وكان الجزار يزيد الفوضى في ولاية الامير، فيحرض بعض الفئات على الاخرى، ويغري بعض انصار الامير على خلعه، كما كان يضغط على الامير نفسه ويرهق كاهله بالضرائب، فاضطر الامير يوسف الى ترك الامارة والالتجاء الى عكا عاصمة الجزار الجديدة، خوفاً من نقمة الناس عليه. ولكنه لم يلبث ان عاد بنجدة من جنود الجزار فاستعاد ولايته. وكانت غاية الجزار من ذلك إظهار فضله عليه في تدعيم اركان ولايته.

ولكن العلاقات بين الامير يوسف والجزار كانت كثيرة الاضطراب والانقلاب، لان الجزار نفسه لم يكن يستقر على حال. وهكذا نستطيع ان نلخص حياة الامير يوسف مع الجزار بعد استعادته الولاية في الكلمات التالية: صفاء فحربٌ فخلعٌ ثم عودة من جديد الى الاكرام والامارة، فالى تمنع عن الدفع، فالى حروب نشبت بينهما، انتهت بانهزام الامير يوسف وتنازله عن

الولاية .

وكان الجزار خلال ذلك ، يزداد قوة على قوة . فبعد ان كان مركزه في صيدا ، انتقل الى عكا ، فجعلها معقلاً له ، ثم مد سلطانه الى طرابلس ودمشق ، فأقام في دمشق وجعل في عكا نائباً عنه . وكما قاتل الاميرَ يوسف في لبنان ، قاتل علياً بن ظاهر العمر في الجنوب ، واستولى على املاك آل حرفوش وآل شهاب في بعلبك والبقاع ، وفرّق كلمة اللبنانيين وجعل مناصب الحكم ألعوبة في يديه ، حتى اصبح كأنه ملك لا ينازعه أحد ولا يرده عن ظلمه انسان .

نهاية الامير يوسف

وبالرغم من تنازل الامير يوسف عن الولاية ، واختيار أعيان اللبنانيين للامير بشير بن قاسم بن عمر الشهابي مكانه عام ١٧٨٩ ، فان علاقاته مع الجزار ظلت خاضعة لمد وجزر عجيبين ، كما كانت في السابق : رضاً من الجزار وامان تارة ، وغضب ونقمة تارة اخرى ، وإنعام بالولاية حيناً ، وزجٌ في سجن عكا حيناً آخر ، واخيراً أمر بشنقه في سجنه ، وهنا ايضاً لم تكفَّ سخرية القدر عن العبث بخاتمة هذا الامير ، فيقال ان الجزار عاد وعفا عنه ... ولكن الامر الاول كان قد نفذ !..

ويُعتبر الامير يوسف اعظم الشهابيين في القرن الثامن عشر بالرغم مما شابَ عهده من اضطراب وفتن لم يكن له سبيل الى دفعها وإخمادها .

الامتيازات الاجنبية

وهناك عامل خارجي آخر كان له اثر بعيد في سياسة لبنان ، ولكن أثره هذا كان أكثر ظهوراً مع مرور الزمن وتوالي الايام. ذلك العامل هو «الامتيازات الاجنبية» .

كانت انظار الدول الاوروبية تتجه الى الدولة العثمانية التي كان ينتابها الضعف من اكثر من جانب ، فطمعت الروسيا والنمسا وفرنسة في الاستيلاء على بعض اراضي الدولة . كانت الروسيا ترغب في السيطرة على مضيقي البوسفور والدردنيل ،وكانت النمسا تطمع بالبلقان . اما فرنسة فان حاجتها الاقتصادية الى حرير لبنان وقطن فلسطين وقمح البقاع تستوردها من بلادنا ، وحاجتها الى اسواق مصر والشام تصدّر اليها منتوجاتها ،كل ذلك جعلها تفتح عينيها على سواحل البحر الابيض الشرقية وترنو الى البلاد القائمة فيها .

وبدأت ، في عهد المعنيين ، صلات أوروبة ببلادنا ، في قالب اقتصادي وانساني ،اذ منحت الحكومة العثمانية الاوروبيين الساكنين في اراضيها امتيازات خاصة في التجارة والقضاء دعيت «الامتيازات الاجنبية » . ولكن هذه الامتيازات التي لم تزد على بعض الحرية التجارية ،والتساهل في طريقة محاكمة الاجانب ،جدّدت ووسعت مع الايام ، الى ان اعلن لويس الرابع عشر ملك فرنسة عام ١٦٤٩ في رسالته الى اسقف طرابلس انه يضع في حمايته الرعايا العثمانيين الموارنة . وحذت الروسيا في القرن الثامن عشر حذو فرنسة فبسطت حمايتها على الروم الارثوذكس في الاقطار العثمانية .

وكانت انكلترة قد حاولت ان تحصل على امتيازات مماثلة في القرن السادس عشر ، واخذت تظهر المودة كلما سنحت لها الفرص، نحو دروز جبل لبنان، مما ستعرف بعض معالمه في حياة الامير بشير واتصاله بالسير سدني سميث قائد الاسطول البريطاني في البحر المتوسط .



لويس الرابع عشر

واتاحت هذه الامتيازات للارساليات الاجنبية ان تؤسس في لبنان مدارس لتعليم اللبنانيين، كما اثارت نشاطاً تجارياً كبيراً بين الغرب والشرق ، كان مركزه بيروت .

على ان هذه الامتيازات جعلت من لبنان مسرحاً لمطامع الدول الاوروبية ، انتهت به فيما بعد الى الانتداب الفرنسي، كما وسّعت شقة الخلاف بين الطوائف التي تعيش في ظله مما سنعرف في الفصول التالية بعض آثاره التي ما نزال ننوء بثقلها ، مع الاسف حتى اليوم .

٢٠ الامير بشير الثاني (١٧٨٩ – ١٨٤٠)

•

١ ـ علاقات بشير مع الجزار

جدول الشهابيين

الامير بشير الثاني هو ابن قاسم بن عمر بن حيدر. وحيدر هذا هو ثاني الامراء الشهابيين الذين حكموا جبل لبنان، كما تجد ذلك في الجدول التالي :

(١) بشير الاول (ابن اخت احمد المعني)
١٦٩٧ – ١٧٠٦

(٢) حيدر (ابن بنت احمد المعني)
١٧٠٦ – ١٧٣٠

(٣) ملحم
١٧٢٩ – ١٧٥٤

(٤) احمد
١٧٥٤–١٧٦٣

(٥) منصور
١٧٦٣–١٧٦٤ (بالاشتراك مع اخيه)
١٧٦٣–١٧٧٠ (وحده)

عمر

(٦) يوسف
١٧٧٠–١٧٨٩

قاسم

قاسم

(٨) بشير الثالث
١٨٤٠–١٨٤١

(٧) بشير الثاني
١٧٨٩–١٨٤٠

قبل الامارة

ولد الأمير بشير الثاني سنة ١٧٦٧ في غزير ، حيث كان والده متوطناً . وفي شهره الرابع مات والده، ولم تلبث والدته أن تزوجت فاحتضنته مربية كانت في خدمة أبيه ، فعاش يتيم الأب ، بعيداً عن عطف الأم . ولكن هذا اليتم الذي رافقه شيء من الفقر والضيق جعل منه ، فيما بعد ، رجلاً لا تزعزعه العواصف ولا تضعضعه الصعاب .

وبعد أن قضى فترة من صباه في برج البراجنة في بيت مربيته وبالقرب من الحدث حيث كان يزور أمه المتزوجة بين الحين والحين ، انتقل الى دير القمر ، عاصمة الامارة . وهناك قام ببعض المهمات التي كلفه بها الامير يوسف من إشراف على املاكه ، او فض لخصام ينشأ او مشكلة تتعقد . وما هي الا سنوات حتى انفتحت امامه اجواء العمل التي تملأ نفسه وترضي طموحه ، فانضم اليه فريق الجنبلاطية ، وبذلك اصبح يتكىء على حزب قوي .

وعندما اقترن « بالست شمس » ارملة احد امراء بني شهاب في حاصبيا ، اتيح له ان يظفر من هذا الزواج بثروة كبيرة اشترى ببعضها بيت الدين ، واستعان ببعضها الآخر على قضاء شؤونه السياسية .

وكان الامير بشير ، الى جانب ذلك يمتاز بشخصية قوية ، وطلعة مهيبة ، وصوت جهوري ، وعزم لا يتردد ، وامل لا يعرف اليأس ، وفهم عميق لما كان يعتري السياسة اللبنانية من

قلق واضطراب بين دهاء الجزار وضعف الامير يوسف ودسائس رجال الاقطاع .



الامير بشير الثاني

وما كادعام ١٧٨٩ يطل حتى كان الامير بشير هو الرجل الذي يمكن ان يتبوأ امارة الجبل فيرضي نهم الجزار الى المال ، ويرضي الجنبلاطية التي كانت تناوىء الامير يوسف ، ويرضي الامير يوسف نفسه الذي تنازل وأيد ترشيح الامير بشير. ولم يلبث الامير بشير ان توجه الى عكا وعاد منها متقلداً الولاية .

ولكن اهواء رجال الاقطاع وابناء الامراء السابقين وقفت في وجه الامير الشاب منذ ان تقلد منصب الولاية ، فما كاد يطارد الامير يوسف الذي قبض عليه الجزار كما مر معنا ، وما كاد يرسل الجباة الى القرى لجمع الاموال حتى قاومه بعض الامراء الشهابيين والمعمين واعيان المتن مقاومة شديدة وحاربوه ست سنوات استطاعوا فيها ان يخلعوه مرتين من الحكم ويعينوا مكانه بعض اقربائه من الشهابيين. . ولكن معونة الجزار والجنبلاطيين نصرته اخيراً على خصومه ، واعادته الى الحكم للمرة الثالثة .

الامير بين بونابرت والجزار

وسرعان ما انقلب الجزار على الامير بعد ان وجد من ابناء الامير يوسف مغالاة وسخاء في شراء الولاية . . ولكنه ما كاد يفعل حتى كانت انباء الجيش الفرنسي في الاسكندرية قد بلغت الجزار ، فجزع وعدل عن مخاصمة الامير .

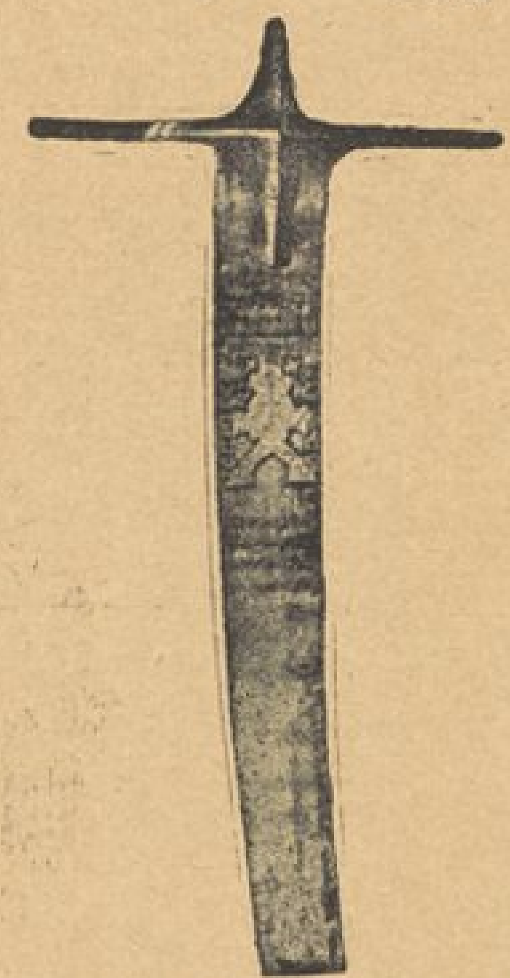
اما الجيش الفرنسي فكان قد تغلب بقيادة نابوليون بونابرت على المماليك في مصر سنة ١٧٩٨ مهدداً طريق الانكليز الى الهند.

فجهز العثمانيون جيشاً لاخراجه من مصر ، ولكن بونابرت اسرع الى فلسطين فاحتلّ غزة ويافا والرملةوحيفا وصور ،وما جاورها من الاراضي في فلسطين ولبنان.ولكن جنوده لم تستطع اقتحام حصون عكا ، لمناعتها الشديدة ، وللمقاومة الخارقة التي اظهرها رجال الجزار ، وللمساعدة الحربية التي كان الاسطول الانكليزي يقدمها للجزار بقيادة الاميرال سدني سميث .

وهنا ، لدى توازي قوى الفريقين وتربص بعضها ببعض ، التفت كل من نابليون والجزار ، الى الامير بشير ، فوجدا فيه مساعداً مرجحاً لكفة من يساعده ، فيما يقدمه من قوت ورجال واموال فكتب كل منهما اليه . اما بونابرت فقد طلب منه المساعدة ووعده برد بيروت الى ولايته وتوسيع حدود بلاده ، واما الجزار فأصر على ان يوفد الامير جيشه لمقاومة الحملة الفرنسية وكان يرفق كلامه بالوعود المعسولة ان نفذ طلبه ، والا فالوعيد والتهديد ، والويل كل الويل .

وكان موقف الأمير بشير حرجاً جداً ، وخاصة إن المعارك لم تكن تنبىء عن نتيجة واضحة او عن نجاح مقدّر لاحد الفريقين. فسكت عن اجابة بونابرت على رسالته ،وان كان قد غض الطرف عن بعض ما أرسل من لبنان الى جيش الفرنسيين من مؤن وذخائر وتين مجفف ودبس وخمر . وردّ على الجزار معتذراً لعدم انقياد اهل البلاد له بعد ان بلغهم محاولة الجزار تنحيته عن الحكم وتولية ابناء الامير يوسف مكانه ، فكان وقع هذا الاعتذار في نفس الجزار اقسى من الرفض . ومن حسن حظ الامير ان رسالة

بونابرت الثانية وقعت في يد « متسلم » صيدا فارسلها هذا الى رئيسه الجزار ، وفيها عتاب من بونابرت الى الامير لعدم رده على رسالته الاولى .



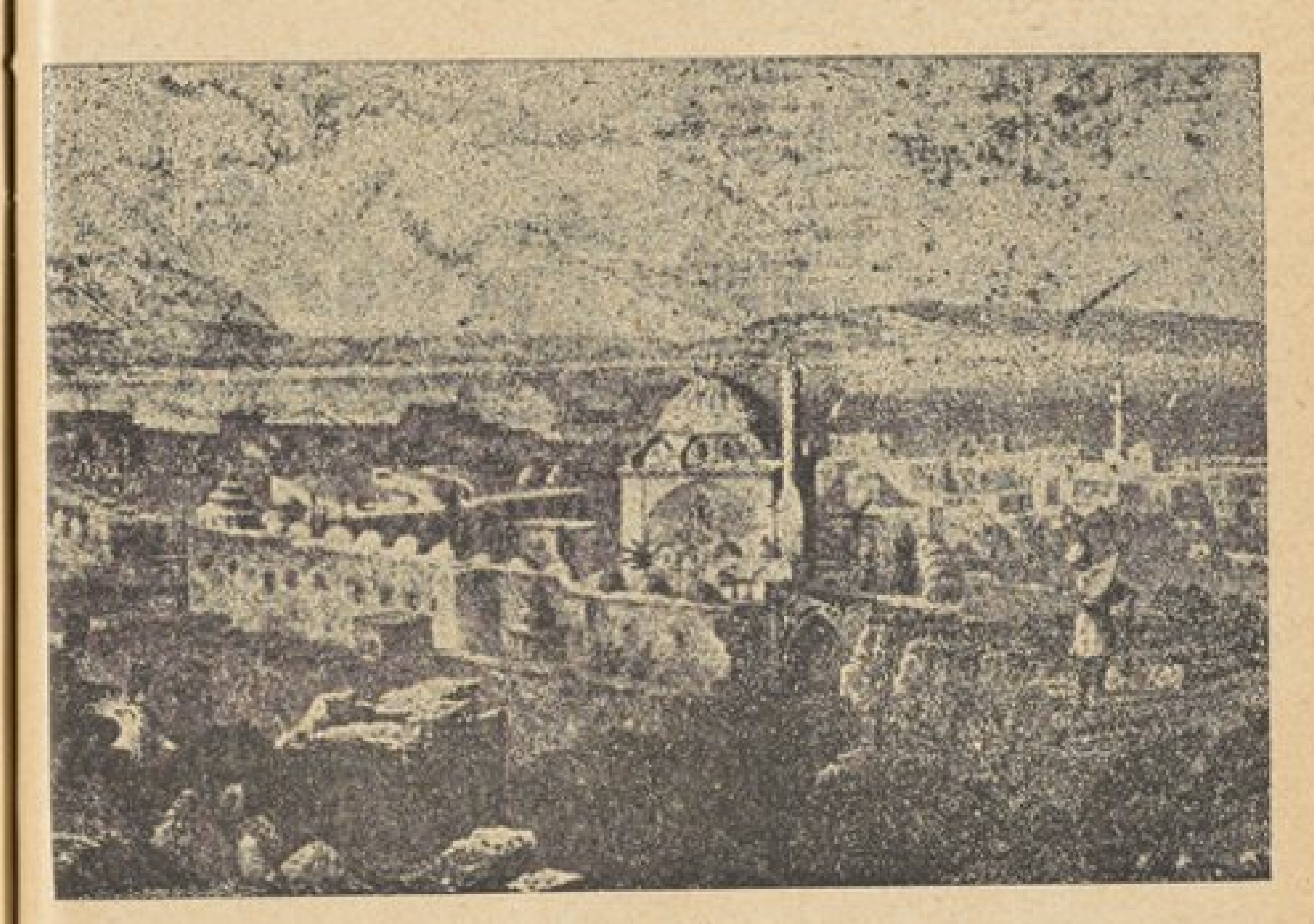
السيف الذي اهداه نابوليون الى الامير بشير

فاطمأن الجزار بعض الاطمئنان الى موقف الامير ، ولم يدر ان الامير قد اهدى القائد الفرنسي بندقية ثمينة فأهدى اليه نابوليون سيفاً تاريخياً نادراً .

ونشأت خلال ذلك ، صلات بين الامير بشير والاميرال الانكليزي سدني سميث ، أدت الى اجتماعهما في قرية عين عنوب ودرسهما في هذا الاجتماع علاقات الامير بالجزار وقد تبادلا الهدايا النفيسة دليلاً على الصداقة والتفاهم .

ولم ينجح حصار نابوليون بونابرت لعكا ، فقد انتشر بين جنوده وباء الملاريا ، ثم هاجمهم داء الطاعون ، ففتك بهم فتكاً ذريعاً ، فاضطر الى العودة الى مصر ، حيث سافر منها الى فرنسة بعد ان ترك القيادة للجنرال كليبر . ولم يلبث الفرنسيون ان خرجوا من مصر عام ١٨٠١ تاركين فيها وفي الاقطار المجاورة

اثراً محموداً في الحياة العلمية ، لما رافق الحملة من علماء وادوات علمية ، ولما أنشأت هذه الحملة من مؤسسات ثقافية كالمعاهد ، والمطبعة التي كانت اولى المطابع في مصر ، والصحيفة التي كانت أولى الصحف ايضاً .



عكا في القرن التاسع عشر

جبهة ثلاثية ضد الجزار

ولما بدت بوادر هزيمة الحملة الفرنسية في حصار عكا، ناصر الامير بشير جيش العثمانيين، الذي كان يجتاز البقاع بقيادة الصدر الاعظم « يوسف باشا ضيا » لمحاربة الفرنسيين في مصر ، فاغتنم الامير هذه الفرصة واراد ان يتخلص من الجزار وسطوته، فرغب الى الصدر

الاعظم في ان يجعل لبنان مستقلاً عن حكم ولاة عكا او دمشق او صيدا وان يخوله الاتصال بحكومة الباب العالي رأساً ، وارسال الاموال الاميرية اليها دون وساطة والي عكا . فوعده الصدر الاعظم بتحقيق رغباته ، غير ان الجزار كان بالمرصاد لكل حركات الامير ، فما كاد الصدر الاعظم يصل الى حدود مصر ، حتى أثار خصومَ الامير عليه وأمدهم بالجند والذخيرة فتغلبوا عليه واجبروه على الهرب الى الكورة فالهرمل . وبينا كان يحاول التوجه الى حوران بلغته دعوة القائد الانكليزي «سميث» الى مصر ، فعاد إلى طرابلس حيث حملته منها سفينة انكليزية الى «عريش مصر» . وهناك قابل الصدر الاعظم ، بحضور القائد الانكليزي ، واتفق ثلاثتهم على مقاتلة الجزار بعد ان يكون الفرنسيون قد خرجوا من مصر .

غير أن الامير بشير لم يشأ أن ينتظر كثيراً ، فعاد سنة ١٨٠٠ الى لبنان فبطش بمناوئيه من ناحية وارضى الجزار من ناحية ثانية ، وجدّد توطيد اركان حكمه ، ولكن قلقه لم يَزُلْ الا عام ١٨٠٤ عندما مات الجزار فاستراح الامير واطمأن الى اريكة الأمـارة .

٢ ـ بشير وخصومه من الشهابيين والاقطاعيين

قتل الشهابيين المنافسين

لما امن الامير جانب الجزار بموته ، وجانب الوالي الذي حل مكانه بارضائه ، التفت الى تثبيت قدميه في الامـارة ، وذلك

بالتخلص من اقربائه الشهابيين الطامحين الى الحكم ، ومن مستشاريهم الذين يحركونهم ويمهدون لهم السبل ، وكان في مقدمة هؤلاء الذين كانوا يقضون مضجع الامير ، ابناء الامير يوسف الثلاثة ومدبراهم (مستشاراهم) جرجس وعبد الاحد باز ، اللذان كانا واسطة الاتصال بين ابناء الأمير يوسف وبين الجزار ، كما كانا مثيري الفتن على الامير في عدة مناسبات .

وعندما سنحت له الفرصة ورضخت له البلاد ، اغتال جرجس وعبد الاحد باز ، وقبض على ابناء الامير يوسف الثلاثة وسمل عيونهم . وكان لجرجي باز انصار في دير القمر فأرهق كواهلهم بالضرائب . ولم يطمئن الى آل الخازن فعزلهم عن حكم كسروان.

اضعاف الاقطاعيين

ورأى الامير ان الاقطاعيين يقاسمونه الحكم ويقفون عقبة بينه وبين الاتصال بالشعب كما يشاء ، فأضعف من نفوذهم وجردهم من السلطة القضائية . ومن عانده منهم بطش به وهدده فأخلد الى السكينة ، كبني تلحوق وآل ارسلان وعماد .

وظن الامير انه قد استراح واطمأن ، ولكن ليس في وسع الامير ، ولا في وسع غيره ، ان يرضي هؤلاء الولاة . فما كاد سليمان والي عكا يموت حتى خلفه عبد الله باشا — وكان اكثر طمعاً من الجزار — وبدأت مطالبه تتوالى على الامير : إنه يريد مالاً ، دون ان يسأل كيف يُجبى هذا المال ، فاضطر الامير الى ان يضغط على الشعب ، ولكن الشعب لم يعد يتحمل فثار في

انطلياس وللحقد . فانسحب الامير من الحكم . ليعود بعد قليل ويبطش بالثائرين بطشاً دموياً عنيفاً .

واخيراً ... زعيم الجنبلاطية وانصاره

وكان الامير بشير يستعين في اعماله هذه، بصديقه الحميم الشيخ بشير جنبلاط زعيم الجنبلاطية .غير ان صداقة ثلاثين سنة انقلبت فجأة الى عداوة مرة، فقد ظهر للجنبلاطي ان الامير لم يعد يطمئن الى انسان، بعد ان رأى ما رأى خلال المحن التي اجتازها ،ثم اذا به الآن يفرض على الجنبلاطي مبلغاً كبيراً من المال. فرفض دفعه وجمع حوله جموعاً من كل مكان ، وزحف بهم الى بيت الدين حيث اشتبكوا مع انصار الامير في معركة انتهت بتشتّت الجنبلاطيين، وهرب الشيخ بشير جنبلاط الى حوران حيث قبض عليه وارسل الى عكا فشنق هناك .

اما الامراء الشهابيون الذين كانوا على تفاهم مع الشيخ بشير جنبلاط ، وهم الامراء سيد أحمد، وفارس ، وعباس، فقد وقعوا بين يدي الامير بشير فانتقم منهم بسمل عيونهم وقطع رؤوس ألسنتهم .

قسوة وعنف ...

قد يُنكر من يدرس هذا الجانب من حياة الأمير السياسية إقدامه على الاغتيال السياسي ، والبطش الذي لا يرحم ، وسمل العيون .. من اجل تدعيم كيان امارته وتثبيت نفوذه . وقد

يكون من انكر ذلك على شيء من الحق ، ولكن علينا ان لا ننسى في الوقت نفسه ان الامير بشير قد أبعد عن الامارة ست مرات : يستقيل حيناً ، ويثور به الشعب حيناً آخر ، ويخلعه الوالي أحياناً ، فيخرج في كل مرّة مقهوراً الى ان تسمح له الظروف فيعود .. وان خصومه ما كانوا ليتورعوا عن البطش به وتعذيبه لو حالفهم الحظ ووقع بين ايديهم.

وقد يكون في طبيعة الحياة السياسية في لبنان خلال القرن التاسع عشر ، وما اكتنفها من دسائس وفتن ومؤامرات ، ما يبرر اضطرار الامير ، أيّ أمير ، إلى ان يكون حازماً وعلى شيء من القسوة ... ولكن ليس الى الحد الذي انتهى اليه الامير بشير مع خصومه السياسيين واقربائه الصغار .

ولعل في الأمن الذي ساد البلاد بعد ان خلص له الجو ، وفي الازدهار الذي رافق عهده في شتى مناحي الحياة ، ما يغطي هذا الجانب القاتم من حياة الامير !..

٣. عهد الازدهار : بيت الدين

العمران

بعد ان تخلص الامير من زعماء بني باز رأى ان من الخير ان يبتعد عن دير القمر حيث كان يقيم انصارهم ، فانتقل الى بيت الدين . واراد ان يجر المياه اليها، كما سبق للجنبلاطيين ان جروا المياه الى قصرهم في المختارة ، فعهد الى خليل عطية (الدمشقي) بتصميم ذلك ، فجر مياه نبع الصفا ، التي صبت في بيت الدين عام



جانب من قاعة في قصر بيت الدين

١٨١٢ بعد عمل اثنين وعشرين شهراً .

واحضر الامير بعض المهندسين من اوروبة ، وعـــدداً من البنائين اللبنانيين . ومنهم رستم ويوسف مجاعص من الشوير . والرخامين من الآستانة وحلب ودمشق فبنوا قصره الكبير الذي يخلب الالباب بنقوشه الدقيقة وزخرفته البارعة ، وطرازه العربي الجذاب ، واضافوا اليه بعدسنوات حمامات ودواوين ومقصورات وأحواضاً ودوراً للنساء .

الحياة الفكرية

ولم يكن قصربيت الدين تحفة عمرانية وحسب ، اومركزاًللحكم والسياسة فقط ، بل كان بيئة ممتازة للنشاط العلمي والمجالس الادبية والمناقشات التي كانت تدور بين كبار رجال الامير و كبار الزائرين من الوطنيين والاجانب ، فاذا القصر يصبح بعد قليل من الزمن مقصد السياح المأخوذين بعظمة الشرق .

ومن اكبر رواد هذا القصر من الادباء بطرس كرامة ، ونقولا الترك ، والشيخ ناصيف اليازجي ، وامين الجندي . وقد زاره الشاعر الفرنسي الكبير لامرتين عندما مرّ بلبنان .

ولو لم يكن الامير نفسه محباً للعلم ، لما قرّب رجاله اليه ، وعهد الى بعضهم في ادارة ديوانه ، وانشاء رسائله ، وتدوين حساباته .

وفي عهد الامير بشير دخلت لبنان البعثة الاميركية عام ١٨١٨ فأسست مدرستها الاولى في عبيه ، قبل ان تنتقل الى بيروت ، وقدمت بعد ذلك البعثة اليسوعية الثانية عام ١٨٣١ وكانت البعثة

اليسوعية الاولى قد جاءت في عهد الامير فخر الدين الكبير .

ومن المدارس اللبنانية التي انشئت في عهد الامير مدرسة عين ورقة في غوسطا التي انشئت سنة ١٧٨٩ ، وقد تخرّج منها بعض اعلام العربية كالمؤرخ المطران يوسف الدبس ، والمعلم بطرس البستاني ، والاديب احمد فارس الشدياق . وكانت هذه المدرسة تعلّم العربية والسريانية واللاتينية والايطالية .

وكثر عدد المطابع في عهد الامير ، فسهلت تداول بعض المخطوطات التي خرجت مطبوعة للمرة الاولى .



جندي من الحوالة

الجيش

كان الجيش اداة الامير بشير الاولى في تثبيت قدمه في الحكم وفي اخماد الفتن . وقد علمته الاحداث التي وقعت في مراحل حكمه ان يعتمد على جيش كبير ، فكان جيشه لا يقل عن خمسة عشر الف مقاتل ،

ويتألف من فرق متعددة لكل منها مهمة، فخيالة الامير ، وهي تتألف من خمسمئة فارس خاصة بالامير ترافقه وتحافظ على حياته، و « عسكر الحوّالة » وهي فرقة كان عليها ان تجبي الضرائب في أقصر وقت ممكن، ولو اضطر افرادها الى الاقامة في بيوت المكلفين، يأكلون ويشربون حتى يدفع المكلفون ما يُفرض عليهم . وسائر الفرق لصيانة الحكم واخماد الفتن واخضاع الثائرين وحماية الحدود..

وقد اشترك هذا الجيش في معارك عديدة ، قاوم في بعضها الاقطاعيين كما رأينا . وسنرى فيما يلي ، كيف ساعد هذا الجيش الولاةَ العثمانيين في دمشق وفلسطين ، وما أداه من المعونة للمصريين ، حلفاء الامير .

٣٠ الامير بشير
والبلدان المجاورة

٥

١ ـــ حليف الولاة العثمانيين

كان جيش الامير ، باستعداده للطوارىء ، وعدده الوافر ، يشكل قوة مرجحة في كل خلاف ينشب بين الولاة في البلاد المجاورة ، وفي إخماد الثورات التي تندلع تمرداً وعصياناً .

مساعدة الوالي على تبوء منصبه

عندما عين سليمان باشا والي عكا، والياً على دمشق سنة ١٨١٠ أبى الوالي السابق ان يرضخ لهذا التعيين، وامتنع عن تسليم المدينة إلى الوالي الجديد. فاستنجد سليمان باشا بالامير بشير، الذي لبى طلبه وزحف معه على رأس جيشه، فحاربا الوالي المتمرد في نواحي الجديدة وقطنا قرب دمشق ، فاضطر الى الفرار وتسلّم سليمان باشا دمشق .

وقد قررت الدولة العثمانية مساعدة الامير ، فأنعمت على ابنيه قاسم وخليل بالولاية، فجعلت الاول على جبيل، والثاني على البقاع .

خلاف بين واليين

وفي سنة ١٨٢١ اختلف درويش باشا والي دمشق ، وعبدالله

باشا والي عكا على ولاية البقاع، وزعم كل منهما أنه الوالي الشرعي، وتطور هذا الخلاف الى الحرب بين الواليين ، واستعان عبدالله باشا بالأمير بشير ، فاسرع الى نجدته وحارب جنود درويش باشا وطردهم من البقاع ، وحاربهم ثانية في المزة ، وهزمهم واكرههم على الخروج من دمشق . ولم يدخل الامير بشير بعسكره الى دمشق حفظاً لحرمتها وجوارها ، بل اقام في سهل المزة .

اخضاع الثائرين في سانور

وامتنع اهالي « نابلس » سنة ١٨٢٩ عن دفع الضرائب لعبدالله باشا والي عكا . ولما توجه الوالي الى النابلسيين اعتصموا في قلعة « سانور » ، الواقعة قرب نابلس . وكاد يرجع عنها مخذولاً ، كما سبق للجزار أن عاد عدة مرات دون ان يتمكن من اقتحامها . ولكنه استنجد بالامير بشير ،فزحف الامير بخمسة آلاف مقاتل، وقاتل النابلسيين حتى هزمهم وعندئذٍ رضخوا لأمر عبدالله باشا .

لمدرك الامير ان جيشه قوة لا يُستهان بها ،وأنه يستطيع أن يغتنم فرصة ضعف الحكومة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني، فيتخلص من جور الولاة وطغيانهم ، ورأى في خروج مصر عن طاعة السلطان جوّاً مؤاتياً لتحقيق رغباته بالتعاون مع حاكمها محمد علي باشا .

٢ — محالفة المصريين

محمد علي والي مصر

ينتمي محمد علي باشا إلى أصل ألباني ، فقد ولد عام ١٧٦٩ في

قـوّله على الساحل اليوناني . وعندما وجهت الدولة العثمانية عـام ١٧٩٩ بضع سفن محملة بالجنود الى مصر لاخراج الفرنسيين منها، كان محمد علي مستشاراً لقـائد الكتيبة الألبانية فيها . ولم تكـد الحملة العثمانية تبلغ مصر ، حتى كان محمد علي قد تولى قيادة الكتيبة الألبانية ، ومنها قفز الى القيادة العامة على الحملة ، بعد أن ابدى ألواناً من الشجاعة والبراعة في المعارك التي اكـرهت الفرنسيين على الجلاء عن مصر .

وكانت حال والي مصر – وكان من المماليك – واستهتاره بمنصبه ، وزهده فيه ، وتشتّت جنوده ، عوامـــل قوية دفعت بمطامح محمد علي الى ان تحقق سريعاً ، بعد ان اثار على الوالي المماليك انفسهم ، وبعـــد ان اعلن ، بواسطة علماء الازهـر ، أنه صاحب الحق الشرعي في ولاية مصر سنة ١٨٠٥ . ولما رأى الباب العالي ان محمد علي قد أصبح سيد البلاد الفعلي ، اضطر الى الاعتراف به ، والياً على مصر سنة ١٨٠٦ .

القضاء على المماليك

وكان قد ترك بعض المماليك يحكمون قسماً من مصر ، لقاء جزية ضخمة يدفعونها اليه ، فلما رأى انهم حـاولوا الاتصـــال بالانكليز وفاوضوهم . . عــزم على الخلاص منهم ، فـدعا زعماءهم الى القاهرة عام ١٨١١ زاعماً انه يريد استشارتهم في امر حملة عسكرية . فلما حضروا اقطع رؤوسهم جميعاً وكان عددهم نحو ثلاثمئة رجـــل . وهكذا دانت له مصر من اقصاها الى اقصاها.

اصلاحات محمد علي

وجند محمد علي باشا جيشاً كبيراً ، وزوده بالسلاح الاوروبي ودربه على الاسلوب الفرنسي باشراف الكابتن سيف Sève الذي أصبح اسمه فيما بعد سليمان باشا الفرنساوي . وبهذا الجيش اخضع محمد علي السودان المصري والحجاز ونجد .

والتفت فيما بعد الى الناحية الاقتصادية فاكثر من البناء ، واتم انشاء مرفأ الاسكندرية ، وحسن زراعة القطن والكتان والنباتات الزيتية ، ثم انشأ اسطولاً كبيراً ، ومدارس للتعليم على الاسلوب الاوروبي .

محمد علي باشا

وكانت حكومة الآستانة تنظر الى توسع محمد علي وقوته المتزايدة بقلق ، ولكن محمد علي عرف كيف يزيل هذا القلق ، فقدم للسلطان مساعدة عسكرية بحرية لمقاومة الثوار اليونان ، وجدد بقايا الاسطولين العثماني والمصري بعد ان حطمتهما السفن الانكليزية والروسية في « ناوارين » سنة ١٨٢٧ ، وقدم مبلغاً من المال مساهمة منه في تسديد الديون التي فرضتها الحرب الروسية على السلطان . وعندئذ أقطع السلطان جزيرة « كريت » لمحمد علي ، تقديراً لصنيعه معه .

اسباب تحالف المصريين والامير بشير

كانت سورية محط أنظار محمد علي ، منذ ان بدأت قوتـــه تتعاظم . وقد وعده السلطان نفسه بان يمنحها له جزاء مساعدتـه في الحرب اليونانية ، ولكنه اخلف الوعد .

وكان محمد علي قد ساعد عبدالله باشا والي عكا على استعادة منصبه واعاره مبلغاً من المال ، فلما طلب اليه ان يكون عـلى استعداد لضم ولايته الى محمد علي ومعاونته عـلى فتح سائر بلاد الشام ، ابى عبدالله باشا. عندئذ طالبه محمد علي بان يعيد اليه المال الذي سبق أن استدانه منه ، وان يعيد الفلاحين المصريين الفارين من الضرائب ، والخدمة في الزراعة ، فماطـــل عبدالله ورفض ... فـكان ذلك ذريعة كافية للهجوم على سورية ، لاستعادة مـاله ، وإرجاع الهاربين ، وتأديب والي عكا ... وفتح سورية .

وهنا وافقت أطماع محمد علي هوى في نفس الامـير بشير . الذي كان مديناً لمحمد علي باستعادة إمارته عام ١٨٢٢ ، ذلك أنه على اثر الخلاف الذي نشب بين والي عكا ودمشق : عبد الله باشا ودرويش باشا ، وانضمام الامير الى جانب عبدالله باشا ، عُزِل الامير عندما اقر السلطان ولاية درويش باشا ، واضطر الى السفر الى مصر حيث احتفى به محمد علي واتفقا على التعاون معاً . ولما كان محمد علي يومئذ على وفاق مع السلطان ، فقد استطاع ان يسترضي السلطان ويعيد الامير الى امارته .

وكان الامير بشير قد لقي مـــن الولاة العثمانيين : الجزار

ودرويش باشا وعبدالله باشا ، اشد الوان المضايقة والارهاق، فهم يريدون أموالاً متواصلة لاتنقطع، وجنوداً يدافعون عن مناصبهم ويخضون لهم الثائرين ... ومع ذلك فهم لا يكفون عن اثارة الفتن وتشجيع الخصوم ضد الامير .

فالخلاص من هؤلاء الولاة اذن ، كردّ الجميل لمحمد علي، كان رغبة من رغبات الامير بشير الملحة . وإذا اضفتَ الى ذلك كله فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية ، التي كانت أملاً راود الامير بشير، كما راود من قبله الامير فخر الدين، علمتَ لماذا تحالف الامير مع محمد علي وتعاهدا على السير معاً في حربهما ضد الدولة العثمانية ، في هذا الوقت الذي بلغت فيه الدولة حداً من الضعف يغري باغتنام الفرصة .


ابراهيم باشا

حملة ابراهيم باشا

في خريف سنة ١٨٣١ سيّر محمد علي جيشاً بقيادة ابنه ابراهيم باشا الى فلسطين ، فاخضعها بمساعدة الامير بشير ، ثم طوّق عبدالله باشا في عكا ، فلم تسقط الا بعد سبعة اشهر ، وكان الساحل قد اصبح في حوزة الجيش المصري ، حتى طرابلس . وبسقوط عكا وقع عبدالله باشا بين يدي ابراهيم فأرسله هذا الى والده في مصر .

وتابع ابراهيم باشا زحفه نحو دمشق، ومعه الامير بشير وجيشه، فاحتلها وتقدم الى حمص حيث كان الجيش العثماني قد وصل اليها بقيادة بعض الوزراء العثمانيين ، فاشتبكا في قتال شديد كانت نتيجته النصر التام لابراهيم باشا. وسار ابراهيم شمالاً حتى بلغ مجاز بيلان ، بين حلب والاسكندرونة ، فدارت معركة حاسمة انتصر فيها ابراهيم باشا وحلفاؤه ايضاً . واستمر في تقدمه وحده الى قونية فهزم الاتراك ايضاً سنة ١٨٣٢ واسر قائدهم الصدر الاعظم محمد رشيد باشا ، فانفتحت امامه الطريق الى الآستانة نفسها . ولكن الروسيا قلقت من توسع محمد علي باشا فاسرعت الى مساعدة السلطان، وارتابت انكلترة وفرنسة من تدخل الروسيا، وكانت فرنسة حتى ذلك الوقت تعطف على توسع محمد علي وتشجعه ، فتوسطتا بين السلطان وابراهيم باشا الذي قبل بان يعقد سنة ١٨٣٣ معاهدة صلح دعيت معاهدة «كوتاهية» نسبة الى المكان الذي عقدت فيه، حيث كان مقر قيادة ابراهيم باشا . وقد أقرت هذه المعاهدة ضم سورية الى ولاية محمد علي .

وهذا احبطت السياسة الاوروبية مطامح محمد علي، ووضعت حداً لامتداد اكتساحه الى عاصمة الخلافة العثمانية .

لبنان في ظل الحكم المصري

استقبلت قوات ابراهيم باشا استقبال المحرر المنقذ ، من قبل الاهلين الذين كانوا رازحين تحت نير الولاة العثمانيين ، فقد خفف ابراهيم باشا من الضرائب الباهظة ، وأعاد الى حليفه الامير مكانته

واحترامه واخضع مناوئيه .

وقد احسن ابراهيم ، بصورة عامة ، معاملة الاهلين ونظم الادارة والقضاء ، وكان متسامحاً في الامور الدينية .

وكان موقف الجنبلاطيين منه موقف معارضة بسبب من تدخل والده في قتل زعيمهم الشيخ بشير ، فاضطر الى انزال جيش في دير القمر وبيت الدين ليراقبهم ويساعد الامير عليهم .

ولما بدأ بتجريد السكان من السلاح ، وكان حمل السلاح بين رجال الجبل تقليداً متوارثاً ، حلّ الاستياء مكان الترحيب ، ورأى اللبنانيون ان الجيش المصري لم يزد على ان حل محل العثمانيين، دون اي تغيير في الوضع السياسي والاداري .

وكان تخوف ابراهيم باشا من عـودة العثمانيين الى سورية ولبنان شغله الشاغل ، فاضطر الى ان يكون على قدم الاستعداد للحرب ، ففرض التجنيد الاجباري ، وزاد في قيمة الضرائب ، و « سخّر » اللبنانيين في شق الطرق وإقامة الجسور وبناء الحصون واستخراج المعادن . ولا تزال آثار استغلال ابراهيم باشا للفحم في قرنايل والحديد في مرجبا في المتن ظاهرة حتى اليوم . ثم صادر الدواب والخيل ، وحجز الصابون وغيره مـن ضرورات الحياة اليومية .

ثورات ضد الحكم المصري

نفّرت هذه الاعمال السكان من حكم ابراهيم باشا بعـد مضي ثلاث سنوات ، وكان عمّال العثمانيين يغذون هـذا الشعور

بين الجماهير .

وبينا كان أهل لبنان يحسون هذا الضغط من ابراهيم باشا من أجل تأمين وسائل الدفاع ، أشتعلت نيران الثورة ضده في فلسطين ، فقد اعلنها زعماء جبل نابلس وصفد وجبال الخليل ثم انتقلت شرارتها الى الكرك والسلط . وكان ابراهيم باشا يتولى إخمادها بنفسه ، ولكنه لم يفلح فأقبل اليه والده محمد علي باشا على رأس جيش كبير . ولما اخفقت كل هذه القوى، استعمل ابراهيم باشا سلاحاً جديداً فوعد الزعماء الثائرين وعوداً شتى ، حتى إذا هدأت حركتهم تملص من الوفاء بها .

واراد ابراهيم باشا ان يفعل بدروز حوران ما فعل بأبناء لبنان ، من نزع سلاحهم ، وتجنيدهم ، ولكنهم رفضوا الاستغناء عن سلاحهم ، ووافقوا على دخولهم في جيشه على شرط ان يكوّنوا في الجيش فرقة خاصة بهم لا يكون فيها سواهم ، ولما لم يقبل ابراهيم باشا بهذه الشروط ثاروا عليه فأفنوا اول حملة أرسلت لاخضاعهم ، وشتتوا الحملة الثانية ، وهزموا الحملة الثالثة ، وكادوا يهزمون الحملة الرابعة التي كان يقودها ابراهيم باشا بنفسه ، لولا ان لوّث لهم مياه الشرب ليموت الثوّار عطشاً .. فاضطروا عندئذ الى الهدوء والاذعان على مضض .

وفي هذه الاثناء ثار شبلي آغا العريان في وادي التيم ، انتقاماً لدروز حوران ، وانضم اليه فريق من دروز الشوف . وقد قاوم هؤلاء جنود ابراهيم باشا مقاومة عنيدة وقهروهم في عدة معارك ، ولكن تسميم مياه الشرب وتفرقة الثائرين بالدسائس والاماني ،

كانا كفيلين باخماد الثورة .



ولم يكد ابراهيم باشا يخمد هذه الثورات التي تتابع اندلاعها في سورية ولبنان حتى كان الجيش العثماني الذي ارسله السلطان محمود الثاني قد شارف الحدود الشمالية، مترقباً اغتنام الفرصة إثر هذه الثورات ولكن ابراهيم باشا انقضّ على هذا الجيش فمزقه شر تمزيق سنة ١٨٣٩ .

السلطان محمود الثاني

٣ ـــ نتائج المحالفة المصرية

انسحاب المصريين

لم تستطع الثورات المتتابعة ان تجبر ابراهيم باشا على النزوح عن سورية ولبنان .

ولم تستطع ، كذلك ، قوى الدولة العثمانية ان تزحزحه ولكن اهواء الدول الاوروبية هي التي لعبت بأحوال الشرق

العربي ووجهت أوضاعه وجهة خاصة .

كانت انكلترة تخشى على طريق الهند من أية دولة قوية يتم لها توحيد سورية ومصر . ولذلك ما كادت تجد أن ثمة محاولة للتفاهم بين ابراهيم باشا والسلطان العثماني عبد المجيد الاول ، الذي خلف محموداً الثاني ، حتى حملت الدول الاربع الكبرى على القيام بعمل مشترك ضد محمد علي . وعُقِد في لندن سنة ١٨٤٠ مؤتمر يعرف بالتحالف الرباعي (انكلترة ، والروسيا ، وبروسية ، والنمسا) . ولم تحضره فرنسة لانها عارضت خروج محمد علي من سورية ولبنان.

وقد تعهدت الدول المشتركة بهذا التحالف بان تكره محمد علي على التخلي عن سورية ولبنان ، ولو اضطرت الى استعمال القوة ، وتوافق ، لقاء ذلك ، على ان يبقى حكمه على مصر ، فيتوارثها ابناؤه من بعده . غير ان محمد علي رفض هذه التسوية ، فكان رفضه ايذاناً باستعمال القوة المسلحة لتنفيذ الاتفاق . وفعلاً ، فقد اقبلت الى الساحل اللبناني وحدات من الاساطيل الحليفة ، وعددها اثنتان وعشرون سفينة حربية كبيرة ، وقد ضم اليها الباب العالي بارجتين وعدداً من بواخر النقل عليها ستة آلاف من جنود البر . فلم تكد هذه الوحدات البحرية تبلغ ثغر بيروت حتى جدد اهل كسروان الثورة على ابراهيم باشا ، وكانوا قد ثاروا عليه من قبل وردّهم الى طاعته . وضرب الاسطول بيروت وصور وصيدا وجبيل وطرابلس، ثم نزلت في جونية قوة عسكرية عثمانية ترافقها فرقة انكليزية بحرية ، فقدمت الى اهل كسروان البنادق وزحفت معهم نحو ابراهم باشا ، الذي كان مرابطاً في

بحرصاف قرب بكفيا ، فاضطر الى التراجع نحو البقاع فدمشق ، ثم الانسحاب اخيراً الى مصر .

وتم الاتفاق بعد ذلك بين محمد علي وبين الدولة العثمانية ، بوساطة الدول الاوروبية ، على أن تقتصر ولاية محمد علي على مصر والسودان وان تكون وراثية في سلالته ، على ان يطبق قوانين الدولة العثمانية ، وأن يخضع للمعاهدات التي كان الباب العالي يعقدها مع الدول الاجنبية .

نهاية الامير بشير

عندما نزل الانكليز والعثمانيون سنة ١٨٤٠ الى الساحل اللبناني خيروا الامير بين احد امرين : إما أن يعاونهم او ينسحب من البلاد ، فآثر الانسحاب . وقد هبط مع أسرته الى صيدا ، فنقلته بارجة انكليزية الى مالطة . وبعد ان قضى في هذه الجزيرة نحو سنة نُقل الى قرية « زعفران بول » الواقعة شرقي الآستانة ، ثم الى « قاضي كوي » في الآستانة حيث توفي سنة ١٨٥٠ ودفن في كنيسة الأرمن الكاثوليك .



نموذج من خط الامير بشير وتوقيعه

وفي اواخر سنة ١٩٤٧ ،اي بعد سبع وتسعين سنة من وفاته ،

ُنقل رفاته من الاستانة الى بيت الدين حيث دفن قرب ضريح زوجته « الستّ شمس » .

النتائج السياسية للمحالفة المصرية

انتهت حملة ابراهيم باشا على سورية ولبنان ، بعودته الى مصر بعد مضيّ تسع سنوات على بدء حملته ، دون أن يحقق الاهداف التي سعى اليها والده من توجيه الحملة ، فلم يستطع ضم هذه البلاد الى مصر ، ولم يستطع أن يقتطع من الدولة العثمانية مناطق جديدة ولكنه ، على كل حال ، ضمن حكم مصر ، فقد أقرت الدولة العثمانية محمد علي على ولايته فكان بذلك مؤسس الاسرة العلوية المالكة ، وجدّ ملوك مصر الذين توالوا بعده ، على عرش مصر ، حتى سنة ١٩٥٢ .

واما الدولة العثمانية ، فبعد ان خسرت سورية ولبنان عادت فاسترجعتها على اهون سبيل .

وكان اثر ذلك في لبنان ان اميره ، بعد ان كان قبل الحملة تابعاً لوالي عكا التركي ، اصبح تابعاً لابراهيم باشا المصري ، فلما انسحب ابراهيم عائداً الى مصر ، كان لبنان قد عاد الى الدولة العثمانية ، بعد أن خسر اميره بشيراً الثالث الذي نُفي ،وبعدان تراكمت النكبات عليه ، فاذا به بعد قليل يضيع منصب الامارة، ويصبح ولاية تابعة للدولة العثمانية ، لها نظامها الفريد ، وإدارتها الخاصة .

هذا هو الحصاد الذي حصدته كل من مصر وتركية ولبنان

من اخفاق حملة ابراهيم باشا . ولكن ثمة أثراً كان سيئاً عليها جميعاً ، ذلك هو التدخل الاجنبي الذي اخفق في حملة نابليون ، ولكنه نجح في مقاومة ابراهيم باشا، فبدأ يطل برأسه في كل معاهدة تعقد او قرار يتخذ حول الشرق العربي. لقد اصطدمت مصالح الدول الاوروبية واهواؤها في هذه المنطقة . ومنذ ذلك الحين ، اشتد تدخل بريطانية وفرنسة واصبح اثر هذا التدخل واضحاً وقوياً في الاحداث التي عقبت هذه الفترة .

النتائج الاجتماعية

وترك العهد المصري في لبنان آثاراً اجتماعية شتى . فقد ازداد الاهتمام بالناحية الصحية ، فبعد ان كان الامير بشير قد ادخل التلقيح ضد مرض الجدري عام ١٨١٠ وعمم استعماله في المناطق التي كانت تصاب بالمرض ، انشأ ابراهيم باشا اول محجر صحي في سورية ولبنان ، واكره جميع المراكب الاجنبية على ان تأتي الى بيروت لتجري المراقبة عليها .

وقد ارسل الامير بشير بضعة شبان لدراسة الطب في مدرسة قصر العيني ، فعادوا اطباء قانونيين ، وعالجوا المرضى على الطرق العلمية الحديثة . وكانوا بذلك اول بعثة علمية لبنانية تتخرج في مدارس مصر .

وللحكم المصري آثار حميدة في نظام القضاء . فقد كان القضاء في مطلع عهد الامير بشير محصوراً في ايدي رؤساء الطوائف ولا يقضي الامير الا في الجرائم الخطيرة . وقد رأى الامير ان في ذلك

اشتراكاً من رجال الدين في الحكم والنفوذ، فنزع السلطة الزمنية من الكهنة والمطارين والمشايخ، وعين ثلاثة قضاة يحكمون حسب قانون واحد مستمد من الشريعة الاسلامية ، احدهم شيخ درزي في محكمة دير القمر وبيت الدين، والثاني اسقف ماروني في غزير، والثالث شماس ماروني في زغرتا .

وفي عهد الحكم المصري ، انشأ ابراهيم باشا مجالس المشورة لضبط اموال الحكومة، التي كانت تُلزّم تلزيماً ، وللبت في الدعاوى الحقوقية بين الافراد .

وكان اعضاء هذه المجالس يمثلون أعيان البلاد وكبار تجارها ويختلف عددهم حسب سكان المدينة . فكان عدد اعضاء مجلس بيروت اثني عشر . وكان متسلم البلد لا يستطيع ان يبت في مسألة الا بعد موافقة هذا المجلس الذي كان اشبه بمجلس بلدي .

وكانت قرارات مجالس المشورة في المدن الصغيرة تستأنف عند الاقتضاء لدى مجلس مشورة عكا او دمشق .

وانتشرت في عهد ابراهيم باشا الطرابيش المصرية ، فلبس الامير بشير طربوشاً مصرياً ، كما كان يلبس ابراهيم باشا . ولم يلبث هذا الزي ان عمّ استعماله في جميع الاوساط .

وبالرغم من مضي اكثر من مئة سنة على مضي نزوح المصريين على لبنان وسورية ، فان الناس لا يزالون يطلقون كلمتي « مصاري ، ومصريات » على النقود ، نسبة الى المصريين ، الذين دام حكمهم تسع سنوات في لبنان .

وهكذا نجد ان الحملة المصرية قد اخفقت في تحقيق اهدافها

التي فكر بها محمد علي باشا ، والتي توقعها الامير بشير ، كما ان تدخل الايدي الاوروبية أفقد لبنان كثيراً من مظاهر استقلاله التي حققها الاميران فخر الدين المعني وبشير الشهابي .

اما الاصلاحات الاجتماعية ، من صحية ، وادارية ، وعمرانية ، فلا يستطيع المؤرخ ان ينكر فضلها ، او يتجاهل ما ادته من خدمات .

٤ . القائمقاميتان

عهد الفتن والفوضى

•

١ ـ بشير الثالث : آخر امير شهابي

بعد نفي الأمير بشير الثاني الكبير ، عَيّن العثمانيون خلفاً له الأمير بشير بن قاسم بن ملحم الشهابي ، سنة ١٨٤٠ ، وعُرف ببشير الثالث . غير ان لبنان ، منذ تعيين هذا الامير ، لم يعرف الاستقرار ، فالعثمانيون نظروا اليه نظرة ريب وحذر بعد تحالف اميره السابق مع المصريين ، والاهلون تذمروا من دفع الضرائب الفادحة بعد عهد من الحروب المضنية . وبدلاً من ان يكون الأمير بشير الثالث عاملاً من عوامل التهدئة ونشر الامن ، أثار النار الكامنة ، بسياسته الضعيفة الحمقاء . لقد اساء استقبال زعماء الدروز العائدين من المنفى ، واقصى الاقطاعيين دون تقدير لنفوذهم ، ومالأ فريقاً على فريق ، مما فسح المجال لتدخل الانكليز مع الدروز ، والفرنسيين مع الموارنة ، والعثمانيين بين هؤلاء واولئك ...

وكان الباب الذي دخلت منه الفتن الى لبنان ، شجار وقع سنة ١٨٤١ بين درزي من بعقلين ومسيحي من دير القمر ، ما لبث

ان انضم الى كل منهما ذووه وانصاره ، فكانت معركة دامية ، تلتها معارك عديدة في دير القمر والغرب والشحار وزحلة والمتن . ثم زحف شبلي العريان ، زعيم راشيا ، على زحلة ، فصدّه أهلها ، ولكنّ بعض القرى المسيحية المجاورة لم تنج من هجومه عليها واحراقه زرعها .

وعمّت الفوضى اكثر الانحاء ، دون أن يوفق العقلاء الى اخمادها . ولم يكن في وسع الامير بشير الثالث ، الذي كان ضعيف العزم ، عاجز الشخصية ، ان يحول دون استفحال الامر . فلم يجد بداً من الاستقالة من منصب الامارة ، فأرسله الاتراك الى الآستانة سنة ١٨٤١ دون أن يعينوا مكانه شهابياً آخر . فكان آخر الامراء الشهابيين .

٢ . عمر باشا النمسوي

ولم تلبث الدولة العثمانية أن عينت مكان الامير الشهابي، حاكماً تركياً هو عمر باشا النمسوي . وكان من كبار قواد الجيش العثماني الذين أبلوا بلاءً حسناً في الحرب ضد الروسيا ، وفي دحر قوات ابراهيم باشا المصري واخراجها من سورية ولبنان . وقد قصدت الدولة العثمانية من اختيار هذا القائد العسكري ووضع قوى كبيرة من الجند تحت تصرفه ، ارهاب اللبنانيين ، ولكن عمر باشا رأى ان يلجأ الى سياسه السخاء واللين ، فأغرى الزعماء بالمنح والهدايا وأرضاهم بالمناصب ، وتودد الى رجال الدين وتقرب منهم .

ولكن كل هذه الوسائل لم تُجدِ الوالي التركي نفعاً ، فقد ثار في وجهه النصارى في كسروان ، والدروز في الشوف ، وابى



عمر باشا النمساوي

الجميع ان يخضعوا لسلطانه . فاضطر الباب العالي الى عزل عمر باشا النمساوي في ايلول ١٨٤٢ بعد ان مضى على تعيينه ثمانية اشهر .

٣ - انشاء القائمقاميتين

وحاولت الدولة العثمانية ان تعين مكان عمر باشا حاكمين اثنين غريبين عن الجبل ، احدهما على المسيحيين ، والآخر على الدروز يكون مرجعهما متسلم بيروت التركي . ولكن مترنيخ

مستشار امبراطور النمسا والمجر الذي توسط لدى حكومة الآستانة ، استطاع ان يقنعها بان يكون هذان الحاكمان من ابناء البلاد . وهكذا اختار اسعد باشا والي صيدا الجديد سنة ١٨٤٢ الامير حيدر اسماعيل ابي اللمع قائمقاماً على المسيحيين ، والامير أحمد ارسلان قائمقاماً على الدروز . ولما كان ثمت بعض القرى التي يقطنها سكان من النصارى والدروز معاً ، فقد اختلف القائمقامان على حكم هذه القرى المختلطة ، فراجعا بشأن هذا الخلاف حكومة الآستانة ، فقررت قسمة البلاد الى قائمقاميتين يفصل بينهما طريق دمشق — بيروت ، وجعلت الامير حيدر ابي اللمع حاكماً على القائمقامية الشمالية ، وكانت


الامير حيدر ابي اللمع

عاصمتها بكفيا في اول الامر ، والامير احمد ارسلان على القائمقامية الجنوبية ، وقد جعل مقره في بيت الدين . ويخضع لكل منهما سكان منطقته جميعاً مهما اختلفت مذاهبهم الدينية .

ومن الطبيعي ان يزيد هذا التقسيم شقة الخلاف اتساعاً ، بين

العنصرين الرئيسيين من سكان الجبل : الموارنة والدروز . فقد اصبح في القائمقامية الشمالية أقلية درزية ، كما اصبح في القائمقامية الجنوبية اقلية مارونية ، وكان اخف احتكاك بين هذين العنصرين كفيلاً بان يشعل نار الفتنة الطائفية ، وذلك لان عهد الامراء العظام الذين كانوا يسعون الى توحيد القوى ، ويمتازون برحابة الصدر ، قد ولى ، فبعد ان كان الامير فخر الدين منذ قرنين يمد ظل دولته الى اطراف سورية شمالاً وجنوباً معتمداً على ابناء لبنان جميعاً ، تقلص ظل هذه الدولة الكبيرة الى ان اصبحت قائمقاميتين صغيرتين تحمل كل منهما طابعاً طائفياً ، ومن ورائهما أيدٍ اجنبية تحرك الضغائن وتثير النعرات .

ومنذ عهد القائمقاميتين بدأ تنظيم الجهاز الحكومي على اساس طائفي ، فتألف في كل قائمقامية مجلس يضم قضاة ومستشارين يمثلون الدروز والموارنة والسنة والشيعة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك .

وبدلاً من ان يرضي هذا التنظيم الطائفي جميع الاتجاهات والمذاهب ، فقد كان سبباً في عرقلة الاعمال وإثارة الاحقاد ، فما يرضي هؤلاء يغضب اولئك ، وما لبث الخلاف ان انقلب الى عراك مؤلم جرت فيه دماء بريئة .

٤ ـــ الفتن في الجنوب والشمال

اشتبك نصارى الدامور مع دروز الناعمة سنة ١٨٤٥ في معركة وقع فيها بعض القتلى ، ثم ما لبث بعض الجهلاء ان نقلوا الأنباء

مضخمة الى قرى الفريقين ، فاذا كل منهم يهاجم قرى الآخر في الشوف واقليم جزين وحاصبيا والمتن ، فينشب القتال وتخرب البيوت ، وتنهب الاموال ، وتحرق المزروعات ، حتى عمّت الفوضى نحو مئة وخمسين قرية. وتدارك الموقف المؤسف زعماء الطائفتين في حزيران سنة ١٨٤٥ فاتفقوا على تهدئة الحال وإعادة الصفاء الى القلوب .

ترتيبات شكيب افندي

واوفد السلطان عبد المجيد الى لبنان شكيب افندي وزير الخارجية العثمانية « لتهدئة الخواطر » ولوضع نظام يعيد الامن الى نصابه ، فجاء ومعه جيش كبير ، ووزع جنوده في مختلف انحاء الجبل ، فجمعوا الاسلحة من الاهلين . ثم دعا الزعماء الى اجتماع عقده في بيت الدين ، ابلغهم فيه انه وضع نظاماً جديداً لجبل لبنان. وبعد ان عزل القائمقامين اعاد الامير حيدر اللمعي الى منصبه ، وعين الامير امين ارسلان عوضاً عن اخيه الامير احمد. واراد أن يرضي بعض الزعماء فاعتبر حموداً النكدي مسؤولاً عن بعض ما جرى من المعارك ، وارسله الى الاستانة للمحاكمة .

ويقضي النظام الجديد ، المعروف بترتيبات شكيب افندي ، بتشكيل مجلس نيابي في كل قائمقامية ، للمحافظة على حقوق الاقليات . وقد عين اعضاء المجلسين تعييناً حسب هواه ، بعد ان ضيّق من صلاحيات الاميرين ، وجعلهما خاضعين لوالي صيدا .

ثورة الفلاحين على الاقطاعيين

وكان نظام شكيب افندي علاجاً موقتاً ، استقرت به

الاحوال ثلاثة عشر عاماً. فما كاد الامير حيدر ابي اللمع يموت حتى اشتد تذمر الناس من الاقطاعيين ، واتخذ هذا التذمر في القائمقامية الشمالية شكل عصيان ضد آل الخازن ، وهم في مقدمة مشايخ الاقطاع ، ثم لم يلبث ان اصبح هذا العصيان ثورة شعبية قادها بعض شيوخ الشباب في كسروان ، وفي مقدمتهم « طانيوس شاهين » ، وهو بيطار من ريفون .



طانيوس شاهين

وقد شجع هؤلاء على الثورة «الفرمان» الذي اصدره السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦ معلناً فيه « المساواة بين جميع رعاياه » والغاء الامتيازات السياسية والاجتماعية التي كان يتمتع بها فريق دون فريق او طائفة دون طائفة . فاساء بعض الناس استعمال هذه الحرية التي منحها لهم «الفرمان» ، كما استغلها الامير بشير احمد ابو اللمع ، الذي حل محل الامير حيدر في حكم القائمقامية الشمالية ، فعامل

الاقطاعيين والفلاحين معاملة واحدة ، انتقاماً من الاقطاعيين ، وآل الخازن خاصة ، لا حباً بالمساواة ورغبة بالعدل .

ورأى « العامة » ان الوقت قد حان ليتحرروا من طغيان رجال الاقطاع ، فاجتمع شباب القرى الكسروانية ، كل قرية على حدة ، والفواجميات لم تلبث ان اتصل بعضها ببعضها الآخر ، ثم انتقلت هذه الحركة من كسروان الى المتن بقيادة طانيوس شاهين ، فهاجم جماهير الموارنة مشايخهم ، ولا سيما من آل الخازن ، فاعتدوا عليهم ونهبوا بيوتهم وقتلوا بعض نسائهم . وقد حاول طانيوس شاهين منع سفك الدم ، وقاضى بعض من خـالف اوامره ، واصدر عليهم احكاماً باسم « الجمهورية اللبنانية » ، ولعله كان قد سمع شيئاً عن الحركات الشعبية في الغرب . ولكن هذه الثورة لم تستمر طويلاً ، فقد تدخل قناصـل الدول الاجنبية بواسطة البطريركية المارونية ، فتنحى طـانيوس شاهين عن العمل سنة ١٨٥٩ واستعاد المشايخ بيوتهم واراضيهم ، بعد ان ضاعت سلطتهم الاقطاعية .

الفتنة الدامية

اذا كانت لثورة الفلاحين على الاقطاعين الذين ظلموا وطغوا ، اسباب تبرر حركتهم ، واذا كانت هذه الثورة قد انتهت بقتل امرأتين فقط ، فإن حوادث مؤلمة قد وقعت سنة ١٨٦٠ سيطر فيها الجهل ، وانتشرت الفوضى ، واستغلتها ايدٍ من وراء ستار كان من نتيجتها قتلى وجرحى في كل مكان ، وضغائن وأحقاد في الصدور

من الصعب استئصالها ، واجانب يضحكون لانهماك اللبنانيين في افناء بعضهم بعضاً ...

اختلف غلامان احدهما درزي والآخر نصراني بينما كانا يلعبان « بالكلة » واختصما ، ثم اشترك في هذا الخصام أهل كل منهما ، واذا الخصام معركة دموية ، واذا المشتركون فيها ابناء طائفتين من بيت مري ، ثم من سائر قرى المتن ، وانتقلت الشرارة لتشعل قرى الغرب والشوف والبقاع فاذا النهب والحرق والهدم في قرى كثيرة ، واذا المذابح المؤلمة في دير القمر وزحلة وحاصبيا . وكان ممثلو الانكليز والفرنسيين يشجعون الفريقين على الانتقام ، ويساعدونهم على الثأر . أما خورشيد باشا والي بيروت التركي فانه لم يفعل شيئاً لقمع هذه الفتنة الدامية الفاجعة . وهكذا لعبت الايدي الاجنبية بعواطف الانتقام والجهل ، فتغلب في النفوس الشر على الخير ، وسادت الفوضى على الامن ، فكان لا يقع هجوم درزي في قرى الشوف ، إلا ويكون صداه هجوماً مارونياً في قرى كسروان .

أسباب الفتنة

والواقع ان اسباب هذه الفتنة الأليمة ، ليست خصاماً بين غلامين ، لان هذا الخصام التافه لم يكن اكثر من شرارة اشعلت الفتنة التي كانت تنتظر الهبوب . فان الحذر الذي حل محل الوئام بين الفريقين اللذين يتألف منهما سكان الجبل ، وفقدان سلطة الاقطاعيين الذين كانوا يستطيعون ان يحدوا من حمق اتباعهم ،

وزوال حكم الامير الواحد الذي كان يجعل من مواطنيه قلباً واحداً : كل هذه اسباب عملت في وقوع هذه الكارثة . أضف الى ذلك ان الدولة العثمانية كان يهمها ان توجد اسباباً ومبررات لتتدخل في شؤون الجبل الداخلية .

وكان من وراء الدولة العثمانية دولتان تعملان على إزالة السلطة العثمانية عن البلاد السورية جميعاً وعن جبل لبنان خاصة . فكان الفرنسيون في جانب ، وكان الانكليز في جانب آخر .

وهكذا لم تمض عدة أشهر حتى اصبح هذا الجبل - الذي كان ملاذاً للأمن وملجأ للنساك - تحت رحمة الفوضى والقتل والنهب ، وبعد أن كان خالياً من السلاح الذي نزع عدت مرات من السكان اذا به يضبح مستودعاً للبنادق والرصاص ينفجر ليقضي على كثير من ابنائه . ومن الطبيعي ان هذا السلاح كان يستورد من الخارج ، ولا يمكن ان يرد كله دون علم السلطات العثمانية او الهيئات الاجنبية الاخرى .

انتقال الفتنة الى دمشق

وكان لأنباء الفتنة صداها في دمشق ،فشجع واليها أحمد باشا بعض المسلمين على قتل عدد من المسيحيين انتقاماً منهم لان السلطان عبد المجيد ساواهم بالمسلمين في فرمانه المشهور الصادر سنة ١٨٥٦ .

عوامل الخير تتدخل

غير أنّ بعض ذوي الحكمة والمروءة من الفريقين كانوا عوناً

للمنكوبين في هذه الفتن ، كما كانوا عاملاً في تخفيف الهياج ، فقد دافع بنو تلحوق عن الرهبان وآووهم في بيوتهم ، وظل بعض المسيحيين في حمى مشايخ الدروز في أمان من اي أذى يصيبهم .



الامير عبد القادر الجزائري

وفي دمشق حمى الامير عبد القادر الجزائري النصارى ، فآواهم في بيته وفي القلعة ، وكذلك فعل سليم آغا في حي الميدان. وفتح زعماء الشيعة بيوتهم في جبل عامل للمنكوبين من النصارى .

وكانت مروءة ذوي النفوس الشريفة ، من الفريقين ، كفيلة بان لا يزيد عدد ضحايا الفتن على عشرة آلاف قتيل .

التدخل الأجنبي

كانت سياسة بريطانية في الشرق ان تمنع اي تدخل اوروبي في سورية ولبنان . من اجل ذلك حاولت كثيراً التقليل من أهمية الفتن ومن هولها لئلا تتدخل فرنسة - وهي منافستها الاقتصادية

والسياسة الاولى في الشرق – في شؤون لبنان . فاقترحت بريطانية ترك حلّ هذه المسألة للسلطان العثماني الذي تخوله معاهدة باريس المنعقدة سنة ١٨٥٦ ان يضع الحل المناسب .

ولما خشي السلطان عبد المجيد ان تؤدي هذه الفتنة الى تدخل الدول الاجنبية ، اوفد الى لبنان وزير خارجيته فؤاد باشا ، الذي عُرف بالدهاء والحزم ، وخوله سلطات مطلقة .

وكتب السلطان الى نابوليون الثالث امبراطور فرنسة والى الملكة فكتوريا ملكة انكلترة رسالتين يستنكر فيهما حوادث لبنان ويعد بانزال اشد العقوبات بالمسببين .

وما كاد فؤاد باشا يصل الى لبنان حتى كانت الفتنة قد خمدت خموداً تاماً .

وعدَ فؤاد باشا بمعاقبة مسببي الفتنة ، مهما علت منزلتهم ، كما وعد بالتعويض على المنكوبين. وقد توجه الى دمشق اولاً فأعدم عدداً كبيراً من المسلمين ونفى عدداً آخر ، واعتبر الوالي أحمد باشا مسؤولاً عن المذبحة التي جرت في دمشق،فحكم عليه بالاعدام.

وقبل ان ينتقل فؤاد باشا الى لبنان ، كان نابوليون الثالث قد ارسل اسطولاً فرنسياً بقيادة الجنرال دي بوفور دوتبول فدخل مياه بيروت في ايلول ١٨٦٠ . وكانت الدولة الانكليزية تعارض في مجيء هذا الاسطول ، ولكنها ما لبثت هي ايضاً ان وجّهت اسطولها الى سواحل لبنان . فلما وصل فؤاد باشا الى بيروت كان عليه ان يرضي جميع تيارات السياسة الخارجية، وان لا يؤذي مصالح حكومته . لقد ارضى الانكليز بان ألف محكمة

لمحاكمة المتهمين الدروز، ولما تعذّر اثبات التهمة عليهم، إذ لم يتقدم شهود منهم (لان شهادة خصومهم غير مقبولة) برأهم ، بعد ان هرب فريق من المسؤولين منهم الى حوران . وارضى فرنسة بان اعاد بعض المسلوبات الى المنكوبين من المسيحيين ، وجمع تبرعات كثيرة انفقها على ترميم القرى المخربة .

وقد ابحر الاسطول الفرنسي عائداً الى بلاده بعد ان اقنع العثمانيون والانكليز الحكومة الفرنسية بان الأمن قد عاد فنشر ظلاله على ربوع لبنان وان الفتن قد زالت اسبابها .

اما خورشيد باشا واعوانه العثمانيون فقد برأتهم المحكمة التي عُقدت لمحاكمتهم واطلقت سراحهم .

وقد عزل فؤاد باشا القائمقامين ، وعين يوسف بك كرم عوضاً عن بشير اللمعي ، وعين مدبرين عسكريين مسلمَين بدلاً من امين ارسلان .

على ان هذا التعيين لم يدم طويلا ، فقد كانت في بيروت لجنة دولية تتابع اجتماعاتها لوضع نظام جديد لادارة لبنان ، كما سترى في الفصل التالي .

٥. عهد المتصرفية

١. المتصرفون

أعمال اللجنة الدولية

تألفت لجنة من خمس دول اوروبية لوضع نظام سياسي للبنان بالاشتراك مع الدولة العثمانية. وقد بدأت اجتماعات مندوبي هذه الدول في بيروت منذ ٥ تشرين الاول ١٨٦٠، وهم بكلار (فرنسة) اللورد دوفرين (انكلترة) كبكر (النمسا)، رهفوس (بروسية) نوفيكوف (الروسيا)، وفؤاد باشا وزير الخارجية العثمانية الذي انتخبته اللجنة رئيساً لها.



فؤاد باشا

وقد اظهرت نتائج هذه الاجتماعات ان فؤاد باشا واللورد دوفرين ، المندوبين التركي والانكليزي ، استطاعا ان يسيطرا على اتجاه المباحثات ، وان يقنعا مندوبي سائر الدول المشتركة بوجهة نظرهما ، فاشتهرا ، اثر ذلك ، بالدهاء السياسي .

اللورد دوفرين

وكان اهم ما حاوله فؤاد باشا ان يضيق مجال التدخل الاوروبي ، وان يحول دون امتداد صلاحيات اللجنة الى الادارة والقضاء ، لانه كان يرى في ذلك تجاوزاً لحقوق الدولة العثمانية ، وكان فؤاد باشا يعتمد على مساعدة المندوب الانكليزي من جهة ، وعلى المماطلة واضاعة الوقت في مناقشات لاطائل تحتها ، من جهة اخرى . وكان همه الاول ان يخفف من تبعة الموظفين العثمانيين وان يخفض التعويضات المتوجبة على الباب العالي نحو المنكوبين ، وان يتجنب جميع الحلول التي تضعف سلطة الاتراك في لبنان .

وكاد تأخر اللجنة في اتخاذ قرارات حاسمة ، يفسح المجال لعودة الفتن من جديد ، لان السلاح كان لايزال في ايدي الفريقين ، كما ان

بعض اعضاء اللجنة كانوا يغذون كلًا منهما . ولكن فؤاد باشا اسرع فاعتقل بعض الدروز وبعض الموظفين العثمانيين ، وكانت هذه الاعتقالات موضعاً لمناقشات طويلة بين اعضاء اللجنة ، فكان مندوب فرنسة يميل الى تشديد العقوبات ، ومندوب انكلترة الى الاعتدال . وفاز أخيراً رأي المندوب الانكليزي ، فلم يُعدم من المعتقلين الا القليل ، وتراوحت سائر الاحكام بين السجن والنفي .

وكانت نتيجة هذه الاجتماعات التي استمرت خمسة اشهر ونصف (اي الى ٢٠ آذار ١٨٦١) ان اتفقت الدول المشتركة فيها على جعل لبنان متصرفية ، وعلى تضييق حدوده باخراج بيروت وصيدا والبقاع ووادي التيم ، وعلى ان يكون المتصرف مسيحياً (ولم ينص القانون على جنسية هذا المتصرف لانهم لم يتفقوا على ان يكون لبنانياً) ويختاره الباب العالي بموافقة الدول الخمس .

ووُضع هذا النظام تحت التجربة ، وعين داود باشا الارمني الاصل متصرفاً لمدة ثلاث سنوات ، يقدم عند انتهائها تقريراً عن مدى صلاح هذا النظام ونجاحه .

النظام الاساسي

عندما انتهت ولاية داود باشا عام ١٨٦٤ حمل الى الآستانة تقريراً طلب فيه تعديل بعض نصوص النظام الاساسي ، فوافق الباب العالي على قسم من اقتراحاته ، وجُددت مدة ولايته خمس سنوات اخرى ، بموافقة الدول المشتركة في مباحثات بيروت ، وانضمت اليها ايطالية بعد ان وُحّدت إماراتها . ووُقع النظام الاساسي ، (او القانون الاساسي ، او بروتوكول ١٨٦٤)

بعد تعديله ونشر في ٦ حزيران ١٨٦٤ في ثماني عشرة مادة . وهذه هي أهم محتوياته :

١ً – يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحي تنصبه الدولة العلية ويكون مرجعه الباب العالي مباشرة . وعليه ان يحفظ النظام ويعين القضاة ويجبي الضرائب .

٢ً – يتألف في الجبل مجلس ادارة من اثني عشر عضواً كما يلي: « اربعة عن الموارنة ، وثلاثة عن الدروز ، واثنين عن الروم الارثوذكس ، وواحد عن كل من السنة والشيعة والكاثوليك . »

٣ً و ٤ً و ٥ً – يقسم الجبل الى سبعة أقضية هي : الكورة ، والزاوية وجبيل ، وزحلة ، والمتن ، والشوف ، وجزين . وتقسم هذه الاقضية الى نواحٍ . وتلغى جميع الامتيازات الاقطاعية ، ويصبح الجميع سواءً أمام القانون .

وتنص سائر مواد النظام الاساسي على انظمة المحاكم على اختلافها ، وطريقة تعيين القضاة ... الخ

وتنص المادة الرابعة عشرة عن ان يحفظ الامن جنود لبنانيون . أما طريق بيروت – دمشق ، وطريق الساحل بين صيدا وطرابلس ، فيحافظ عليها الجند العثماني .

هذا ، وقد كان علم المتصرفية هو العلم العثماني نفسه كما كان النقد المتداول هو النقد العثماني ايضاً .

داود باشا (الارمني) ١٨٦١ – ١٨٦٨

كان داود باشا رجلاً عالي الثقافة ، يحمل رتبة دكتوراه في

الحقوق . وله كتاب في « تاريخ القوانين الجرمانية » . وقد سبق له ان تقلد عدة مناصب سياسية وادارية في الدولة العثمانية، وسرعان ما ظهرت درايته وثقافته عندما عين اول متصرف على لبنان .

مقاومة يوسف بك كرم

لم يكد داود باشا يتسلم منصبه في دير القمر حتى قامت في وجهه معارضة بعض الاقطاعيين وبعض رجال الدين ، فاستطاع ارضاءهم . ولكن يوسف بك كرم الذي عُزل عن القائمقامية الشمالية عند تطبيق النظام الاساسي وقف في وجه داود باشا بعناد وقاومه بشدة ، ولكن اعضاء اللجنة الدولية أقنعوه بالاخلاد الى الهدوء ريثما تنتهي مدة داود باشا ، وعندئذ يعاد النظر في مطالبه بشأن اعادة الحكم الوطني . واستدرجه فؤاد باشا الى بيروت ونقله منفياً الى الآستانة .


يوسف بك كرم

وفي سنة ١٨٦٤ عاد يوسف كرم الى لبنان . فلما جددت ولاية داود باشا خمس سنوات اخرى ، كما مر معنا ، اعلن يوسف كرم معارضته لحكومة المتصرفية، وجمع حوله الرجال للمقاومة ، ودارت بينه وبين جنود المتصرف العثمانيين معارك عديدة كان ينتصر في كثير منها ، بالرغم من قلة انصاره . واخيراً حاول أن يجمع جموعه للزحف على بيت الدين

لاسقاط المتصرف وحكومة المتصرفية ، وبينما كان في طريقه الى بيت الدين ، تدخل قنصل فرنسة واقنعه بوجوب الكف عن المقاومة ، وإلا اضطرت الدول الموقعة على النظام الاساسي الى ان تساعد المتصرف عليه . عندئذٍ رأى يوسف بك كرم ان يغادر لبنان ، فسافر الى فرنسة وبلجيكة ، واستقر اخيراً في ايطالية حيث توفي عام ١٨٨٩ . وقد نُقل جثمانه محنطاً الى بلدة اهدن حيث لا يزال محفوظاً في كنيستها ضمن صندوق من الزجاج .

وفي عام ١٩٣٢ ازاحت الحكومة اللبنانية الستار عن تمثاله يمثل يوسف بك كرم على صهوة جواده .


داود باشا

أعمال داود باشا

اعتمد داود باشا في تنظيم جند المتصرفية على قادة فرنسيين ، وقد تألفت هذه القوة من نحو الف جندي ، كما أنشأ داود باشا باخرة حربية دعاها «لبنان»

وكان داود باشا في حكمه مثالاً للاداري النزيه الحازم المصلح فتودد الى اهل البلاد وتربا بزيهم ، وكان يتجول في البلاد ليستمع

الى شكاوى الجمهور . وقد مسح الاراضي واحصى النفـــوس ، واشرف على انتخابات مشايخ القرى ومختاري المدن ، وهؤلاء اختاروا اعضاء مجلس ادارة المتصرفية .

وفي حقل الثقافة ، أنشأ جريدة « لبنان » الرسمية ، باللغتين العربية والفرنسية ، واقام عدة مدارس مجانية اشهرها مدرسة عبيه التي حملت اسمه ، ولا تزال حتى اليوم تعرف باسم الداودية ، وأسس المطبعة اللبنانية في دير القمر ، وشجع على تأليف الكتب الزراعية .

واراد ان يختم اعماله بتوسيع حدود المتصرفية، وذلك بإعادة بيروت وصيدا والبقاع ووادي التيم اليه ، ولكن الباب العـالي عارضه في ذلك ، ولم يوافقه الا على ضم سهل البقاع . فلما اصرّ على رأيه أوهمه فؤاد باشا انه اذا اراد تحقيق مطالبه ، فليلوّح بتقديم استقالته من المتصرفية ، وعندئذٍ يضطر الباب العالي الى تنفيذ ما يريد . فقدم داود باشا استقالته ... ولكن جـــواب الباب العالي كان يحمل قبول الاستقالة فوراً .

فرانكو باشا [الحلبي] ١٨٦٨ ـ ١٨٧٣

عيّن الباب العالي فرانكو باشا خلفاً لداود باشا ، بالاتفـاق مع الدول الست ، لمدة عشر سنوات، لكنه توفي قبل ان يتمها . وفي عهده اعيد البقاع ثانية الى ولاية سورية بعد ان كان داود باشا قد ضمه الى المتصرفية . وقد استمال فرانكو باشا قـــلوب اللبنانيين بإحسانه ونزاهته وعدله ، وتحريجه الاراضي الجرداء ،

وايفاده فريقاً من الشباب الى اوروبة لاتمام دروسهم العالية . ولما مات اوصى ان يدفن في محلة الحازمية حيث لا يزال قبره معروفاً حتى اليوم بقبر الباشا .



فرانكو باشا　　　　رستم باشا

رستم باشا (الايطالي) ١٨٧٣ ـ ١٨٨٣

وبعد وفاة فرانكو باشا عين مكانه رستم باشا الذي كان سفيراً للدولة العثمانية في موسكو ، ثم في لندن ، فحارب الرشوة التي كانت منتشرة ، وخفض مرتبه ومرتبات الموظفين لتغطية عجز الخزينة . ولما وضع ضرائب على التبغ عارضه المطران

بطرس البستاني رئيس اساقفة صور وصيدا فأبعده الى القدس ، ولكن الاحتجاجات الشديدة التي ارسلها الاهالي اضطرت الباب العالي الى اعادته الى مقر ابرشيته ، فما كان من رستم باشا الا ان غضب على اللبنانيين وانتقم منهم بالغاء المدارس واضطهاد رجال الدين . فلما انتهت مدته عارضت الحكومة الفرنسية في تجديدها، فحل محله واصا باشا .

واصا باشا [الالباني] ١٨٨٢ ـ ١٨٩٢



واصا باشا

ولكن حرص المتصرفين السابقين على الحكم النزيه العادل انقلب في عهد واصا باشا الى رشوة وفوضى وضغط على القضاة، وتزوير في انتخاب مجلس الادارة حتى كانت المناصب تباع بيعاً لمن يزيد في الثمن . وبالرغم من فساد الحكم على هذا النحو ، فان واصا باشا كان عنيداً جريئاً لايبالي، فخرق نصوص القانون الاساسي واحل نظام القضاء العثماني مكان نظام القضاء

القديم ، ومنع قناصل الدول من التدخل في شؤونه .

وقد مات قبل انهاء مدته بأحد عشر شهراً ، فدفن في الحازمية كسلفه الاسبق .

نعوم باشا (الحلبي)

(١٨٩٢ - ١٩٠٢)

هو ابن اخت فرانكو باشا . اشترط عليه في فرمان تعيينه ان يعيد القضاء الى ما كان عليه قبل واصاباشا، وان يضمن حرية الانتخابات وان لايتدخل في القضاء... ولكنه لم يحقق شيئاً من ذلك ،بل انصرف الى الاعمال العمرانية فاصلح الجسور فوق الانهار، واكثر من شق طرق العربات ، وبنى سرايات جونية وجزين والبترون وقسماً من سراي بعبدا . وقد اضطرته هذه الاعمال العمرانية الى فرض ضرائب جديدة .

نعوم باشا

مظفر باشا (البولوني) ١٩٠٢ - ١٩٠٧

عين مظفر باشا خلفاً لنعوم باشا ، فبدأ بداية حسنة ، ثم لم

يلبث ان عزل الموظفين ، وفرض ضرائب جديدة ، وعبث بحقوق مجلس الادارة ، فقاومه اعضاء المجلس بمساعدة رجال الدين ، حتى ارغموه على الغاء تدابيره .



مظفر باشا

وهنا قام بينه وبين رجال الدين المسيحي صراع عنيف فعمل على تأسيس جمعيات عديدة لادينية لاضعاف نفوذهم .

وبما زاد في فساد عهده ، تدخل ابنه وامرأته في شؤون الدولة ، فخضع لهما خضوعاً تاماً ، حتى اصبح في أيديهما تعيين الموظفين وعزلهم حسب استعداد هؤلاء الموظفين لدفع الاموال ، وحتى اصبحت قراراته متناقضة .

وخوفاً من تجديد ولايته ، حاول خصومه ان يرسلوا الى الاستانة وفداً للحيلولة دون ذلك . ولكنه مات قبل انتهائها بثلاثة اشهر .

يوسف باشا فرانكو [الحلبي] ١٩٠٧ - ١٩١٢

لم يكن خيراً من سلفه ، فقد بدأ كسلفه ، بداية حسنة فتروّى في علاقاته مع مختلف الاحزاب والاتجاهات ، وعاونه رجال الدين

ولكن هذه الحال لم تستمر طويلاً، اذ خرق النظام الاساسي والغى بعض الجرائد المعارضة ، تطبيقاً لقانون الصحافة العثمانية، وحاول ان يرغم كل لبناني على اخذ تذكرة هوية عثمانية ، ولكن المعارضة الشديدة التي وقفت في وجهه ارغمته على جعل ذلك اختيارياً لمن يشاء .

وعندما نشر الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ طالبت بعض الفئات في لبنان بضم المتصرفية الى ولاية سورية وارسال عضوين يمثلانها في «مجلس المبعوثان». ولكن المقاومة الشديدة التي نشأت ضد هذه الفكرة لم تسمح لها بان تظهر الى حيز الوجود ، بالرغم من تشجيع يوسف باشا .

يوسف باشا فرانكو

وكان نزاعه الدائم مع اعضاء مجلس الادارة سبباً في نقمة الجمهور عليه ، ولم تهدأ هذه النقمة الا حين انتهت مدته سنة ١٩١٢

اوهانس باشا [الارمني] ١٩١٢ـ ١٩١٥

ولم يكد اوهانس باشا يصل الى لبنان حتى وقفت العراقيل

في وجهه . فقد حدث شغب شديد في الشمال، واضرب الجنود عن إعادة الامن لان رواتبهم زهيدة ، فاضطر اوهانس باشا الى زيادة رواتبهم تحت ضغط الاضراب .



اوهانس باشا

وكان هذا المتصرف مثالاً للاداري الذي يحاول ان يرضي الدولة ويرضي الشعب في آن واحد، فكان محمود السيرة ، غير ان تطورات الحالة العالمية لم تسمح له بان يكمل مدة ولايته، فقد اعلنت الحرب الكبرى، واضطرت الدولة العثمانية الى خرق القانون الاساسي كما سنرى فيما بعد .

٢ ـ الأمن والاستقرار

كان لعهد المتصرفية آثار بعيدة في حياة لبنان السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وها نحن نلقي ضوءاً على التطورات التي طرأت على لبنان في هذا العهد .

الاستقلال الداخلي

تمتع جبل لبنان خلال هذا العهد باستقلال داخلي أتاح للحكومة

أن تشرف على شؤون البلاد الداخلية دون اي تدخل خارجي . فالواقع ان النظام الاساسي لم يترك للسلطان إلا حق تعيين الحاكم العام (المتصرف) ، هذا التعيين الذي كان يجب ان يقترن بموافقة الدول الاجنبية الست .

انتشار الأمن

وقد وضع نظام المتصرفية حداً لحالة الفوضى التي عاثت في البلاد فساداً بين عامي ١٨٤٠ - ١٨٦٠ ، فقد ساد الامن ربوع لبنان ، فخفت الجرائم الفردية ، وزالت الفتن الطائفية ، وحل الصفاء والوئام في النفوس محل الضغائن والاحقاد. وبذلك تحقق التعاون الوطني ، وتمكنت البلاد من ان تخطو خطوات واسعة في تنظيم الجهاز الاداري والقضائي ، كما استطاع المتصرفون ان يفرغوا لتعمير البلاد ، فشقوا شبكة طويلة من الطرق ، وبنوا عدداً من الابنية الحكومية والمستشفيات والمدارس . وقد لفت هدوء البلاد وتقدمها نظر أحد المؤرخين الفرنسيين فقال : « ان افضل ثناء يوجه الى القانون الاساسي انه اتاح للبنان اربعين عاماً من الامن والازدهار اللذين لم يعرفهما منذ عدة قرون » .

المتصرف الاجنبي

ولم يخل نظام المتصرفية من سيئات . ولعل في مقدمة هذه السيئات ان القانون الاساسي أجاز ان يكون المتصرف أجنبياً عن لبنان . والواقع ان هذا التدبير أتاح للبنان حاكماً حيادياً ، لا ينتمي الى حزب من احزابه ، ولم يسبق له ان اتصل بلبنان ،

فهو اقرب الى العدل والنزاهة من الحاكم الوطني ذي الانصـــار والاهل والاتباع ، إذْ لم يكن لاحد من المواطنين فضلٌ في اختياره حاكماً عليهم . ولكن اللبنانيين ، بالرغم من ذلك كله ، كانوا يشعرون بان حاكمهم أجنبي عنهم ، غريب عـــن بلادهم ، وخاصة أن بعض هؤلاء المتصرفين لم يكونوا اكثر من منفذين لمآرب دولتهم التي ارسلتهم . ولما كان هؤلاء يطمعون بمناصب اكبر في الامبراطورية العثمانية فانهم كانوا يحاولون ارضاء الباب العالي على حساب لبنان .

التدخل الاوروبي

لقد انتشر الأمن في عهد المتصرفية ، وتعاون السكان في الادارة والقضاء ، ولكن الانقسام الطائفي لم تخفّ حدته ، بل على العكس ، ازداد بروزاً وتشعباً . فقد وزعت المناصب على الطوائف المختلفة من موارنة ودروز وكاثوليك وسنـــة وشيعة وارثوذكس ، وكان الحرص على ارضاء جميع هذه الطوائف مثاراً لاحتكاك كانت البلاد في غنى عنه . ولم تحجم الدول الاجـنبية التي منحها القانون الاساسي حق التدخل ، عن ان تؤيـد فريقاً على فريق ، وان تجعل لها انصاراً يدعون لها ويتحمسون مـــن اجلها . والواقع ان هذه الدول الاجنبية جنت مـن الانقسام الطائفي اكثر ما يمكن ان تجنيه من الجيوش والاساطيل .

وزراء لبنانيون

وقد ترقى بعض اللبنانيين ، في عهد المتصرفية ، في مناصب

الدولة العثمانية ، حتى ان ثلاثة منهم بلغوا مرتبة الوزارة . ومن الطبيعي انهم لم يصلوا الى هذه المناصب الا لانهم كانوا عثمانيي الجنسية ، ولانهم كانوا يقيمون خارج حدود المتصرفية .

ففي زمن السلطان عبد الحميد عين « سليم باشا الملحمة » وزيراً للاحراج ومديراً للتجارة والمعادن

وكذلك استطاع اخوه « نجيب باشا الملحمة » ان يتبوأ منصب الوزارة في الآستانة .

وفي عهد السلطان عبد الحميد ايضاً انتخب البيروتيون سليمان البستاني نائباً عنهم في مجلس المبعوثان ، وقد اشترك مع سائر اعضاء هذا المجلس في خلع السلطان ، ولم يلبث ان انتخب رئيساً ثانياً للمجلس . ثم عينه السلطان محمد رشاد عضواً في مجلس الاعيان فوزيراً للاحراج .

سليمان البستاني

ظاهرتان هامتان

ولئن عرف لبنان في عهد المتصرفية هذه الامور جميعاً ، من استقلال داخلي ، واستقرار هادىء ، ومتصرفين اجانب ، ونزاع دولي ، واستطاع ان يبعث الى الاستانة بوزراء من ابنائه ، فقد امتاز هذا العهد ايضاً بظاهرتين قويتين هما : النهضة الفكرية ، والهجرة . وسنقف وقفة قصيرة عند كل من هاتين الظاهرتين في الصفحات التالية :

٣ . النهضة الفكرية

بعد ان اجتازت سورية ولبنان عهـــداً طويلاً من الركود الفكري ، في ظـــل الدولة العثمانية ، دبّ في القرن التاسع عشر نشاط ظاهر في مختلف العلوم والآداب كان من نتيجته ظهور عدد كبير من اعلام الأدب واللغة والفقه والفلسفة والدين ، كما كان من نتيجته ظهور مجموعة كبـــيرة من المؤلفات في هذه النواحي جميعاً .

ومن الغريب ان الحيـــاة السياسية لم تكن على شيء من الاستقرار والحرية ، فالامراء الوطنيون قد زالوا من الوجود ، ولبنان قد اصبح متصرفية ضيقة الحدود ، وسائر المدن تحت السلطة العثمانية المباشرة التي لم تكن تسمح بالتحرر الا بمقدار ... وبالرغم من هذه الحياة السياسية ، فان البلاد شهدت حياة فكرية نشيطة ، ونهضة ادبية كان لها اطيب الثمرات .

واذا كانت هذه النهضة قد نضجت ثمراتها في اواخر القرن التاسع عشر ، فان بعض بذورها قد غُرست في عهـــد الامير فخر الدين الثاني ، بعد عودته من اوروبة ، كما ان بعضها الآخر قد غرس في عهد الامير بشير الثاني عندما اصبح قصر بيت الدين بيئة علمية يرتادها العلماء والادباء .

أثر المتصرفية في النهضة

ومن العوامل الرئيسية التي دفعت الحياة الفكرية الى النشاط والازدهار في عهد المتصرفية : تأسيس المدارس الاجنبية ، ورقي

المدارس الوطنية ، وكثرة المطابع وانتشار الصحافة .

وقد رعى المتصرفون انفسهم هذه المرافق الثقافية فشجعوها وشاركوا في تأسيس بعضها ، كداود باشا الذي أنشأ عدة مدارس وأسس مطبعة ونشر صحيفة . وطبيعي ان يُعنى المتصرفون بهذه الناحية لان اكثرهم كان على قسط وافر من الثقافة، سبق له ان تعرّف إلى تقدّم اوروبة ، طالباً او زائراً او موظفاً ، فاتيح له ان يطلع على التطور الفكري الاوروبي . وفرق بعيد من حيث الثقافة بين هؤلاء المتصرفين الذين توصلوا الى مناصبهم بعلمهم وكفاءتهم ، وبين بعض الامراء الوطنيين السابقين الذين بلغوا الولاية عن طريق الوراثة او المال اوالقوة ، والذين لم يكن يهمهم الا الابقاء على ولايتهم مهما كلفهم الامر من ضغط او ظلم .

الارساليات الاجنبية

وكان للارساليات الاجنبية التي نزلت لبنان لاهداف دينية أثر بعيد في الحياة الفكرية ، فقد رأى رجال هذه الارساليات ان خير الوسائل لنشر مذاهبهم الدينية هي انشاء المدارس .

لقد جدد الآباء العازاريون مدرسة اليسوعيين في عينطورة سنة ١٨٣٤ . وأنشأ المرسلون الاميركان مدارس في بيروت والجبل سنة ١٨٤٠ . وفي سنة ١٨٧٠ بدأت الكلية الاميركية توزع شهاداتها العلمية على تلامذتها . وفي كانون الاول سنة ١٨٧١ وضعت الحجر الاساسي لبناياتها الكبيرة .

ولما رأت البعثة اليسوعية إقـدام الاميركان على تأسيس جامعتهم نقلت نشاطها من انحاء الجبل الى بيروت ، فأسست سنة ١٨٧٤ كلية عالية لدراسة الفلسفة والطبيعيات والرياضيات . وفي سنة ١٨٨٣ اضافت اليها بمساعدة الحكومة الفرنسية معهداً للطب ، ثمّ اضيف اليها معهدان للحقوق والهندسة . وفتح الانكليز مدرسة الشوير عـام ١٨٧٥ ، وانشأ الاميركان مدرسة سوق الغرب سنة ١٨٨٢ ومدرسة زحلة سنة ١٨٨٧ . وفي هذا العهد نزلت بيروت جمعية اخوة المدارس المسيحية فأنشأت فيها مدرسة « الفرير » .

المدارس الوطنية

وكان انشاء المدارس الاجنبية حافزاً للوطنيين والعثمانيين على تأسيس مدارس وطنية ، وعلى تقوية المدارس القديمة وإنعاشها ، فأنشأ السيد يوسف غريغوريوس المدرسة البطريركية في بيروت سنة ١٨٦٥ . ونقل الروم الارثوذكس مدرستهم التي أنشأوها في سوق الغرب سنة ١٨٥٢ الى بيروت ، وهي المعروفة اليوم بمدرسة الثلاثة الاقمار . وفي سنة ١٨٦٣ أنشأ المعلم بطرس البستاني مدرسته الوطنية التي ذاع صيتها في عهده وعهـد ابنه سليم البستاني . وفي سنة ١٨٧٢ أنشأ المطران يوسف الدبس مدرسة الحكمة في بيروت. وفي سنة ١٨٨٠ أنشأت السيدة املي سرسق مـدرسة للبنات هي مدرسة زهرة الاحسان . وأنشأ الشيخ أحمد عباس الازهري سنة ١٨٩٧ الكلية الاسلامية في بيروت ، وقد تخرج فيها عدد كبير من شبان المسلمين .

وساهمت الحكومة العثمانيـــة في إنشاء المدارس ، فأنشأت المكتب العسكري ، ثم المدارس الرشدية والاعدادية والسلطانية في بيروت وطرابلس .

ولم يمض وقت طويل حتى كان في كل قرية كبيرة من قرى المتصرفية مدرسة وطنية او اجنبية ، وحتى اصبحت بيروت أغنى مدن الشرق العربي بالمدارس التي كان يرتادها الطلاب من انحاء سورية ولبنان والعراق .

البعثات العلمية

وقد رافق هذا النشاط الثقافي الذي بعثه المرسلون الغربيون، وشارك فيه المعلمون الوطنيون ، قيام بعثات علمية للتخصص خارج البلاد . فقد ارسل المرسلون الاميركيون انطونيوس الاميوني وعبد الله عازار واسماعيل جنبلاط الى لندن ليستزيدوا من العلوم العالية . ثم ذهب بعد ذلك اربعة اطباء الى قصر العيني في مصر للتخصص في الطب . وقد ارسل فرانكو باشا بعض شبان المتصرفية الى اوروبة ليتموا دراستهم العالية . ثم تكاثرت البعثات الى الخارج .

المطابع

وكان لفن الطباعة وازدهاره اثر قوي في نشر الثقافة وتعميمها، فبعد ان أسس الاميركيون مطبعتهم في بيروت سنة ١٨٣٤ ، انشأ الروم الارثوذكس مطبعة القديس جورجيوس سنة ١٨٤٧، ثم تبعتها المطبعة الكاثوليكية التي انشأها اليسوعيون سنة ١٨٤٨

فاخرجت بعض المطبوعات على الحجر ، ثم طبعت على الحروف في سنة ١٨٥٣. وتوالت بعدذلك المطابع الوطنية كالمطبعة السورية لمنشئها خليل الخوري سنة ١٨٥٧ ، والمطبعة الشرقية للدكتور ابراهيم نجار سنة ١٨٥٨ ، والمطبعة العمومية ليوسف الشلفون سنة ١٨٦١ والمطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥ ، والمطبعة الادبية لخليل سركيس سنة ١٨٧٤ ، ومطبعة جمعية الفنون الاسلامية سنة ١٨٧٤ ومطبعة بيروت لمحمد رشيد الدنا سنة ١٨٨٥ ، والمطبعة الانسية لمحمد سليم الانسي سنة ١٨٩٥ وغيرها كثير .

هذا في بيروت ، اما في جبل لبنان فقد انتشرت المطابع في انحاء المتصرفية بعد ان كانت منحصرة في مطبعتي الشوير ودير قزحيا. فانشئت مطبعة في بيت الدين واخرى في دير القمر ، ثم لم تلبث المطابع ان عمت مختلف بلاد المتصرفية كبعبدا وجونية وعاليه وعبيه وحمانا والبترون وجبيل وحريصا وزحلة .

وتدل كثرة المطابع على انتشار وسائل الثقافة ، فالمطبعة هي الاداة الاولى لنشر الانتاج الفكري ، ونشر التعليم . ويدل توزعها في مختلف بلاد المتصرفية على ان العناية باسباب الثقافة لم تكن مقصورة على المدن الكبرى او على مدن محدودة ، وانما كانت منتشرة في مراكز الاقضية وفي بعض القرى الصغيرة ايضاً .

الصحافة

اذا كانت المدارس الاجنبية والوطنية ، والبعثات العلمية ، والمطابع قد شاركت في بعث النهضة الفكرية ونشر آثارها، فان

الصحافة ، التي هي اثر من آثار الطباعة ، قد اوجدت حولها عدداً وافراً من القراء يتابعون اخبارها السياسية والعلمية والادبية ، ويتثقفون على ما تقدمه اليهم من الوان المناقشات والآراء التي كان يكتبها حملة الاقلام في ذلك العهد .

وقد تبوأ لبنان مركز الصدارة في عالم الصحافة العربية . فخليل الخوري الذي انشأ في بيروت سنة ١٨٥٨ جريدة اسبوعية هي « حديقة الاخبار » كان يقدم للعالم العربي ثالث صحيفة عربية ، وكانت الاولى صحيفة الحملة الفرنسية في مصر سنة ١٨٠٠ ، والثانية هي « الوقائع المصرية » التي اصدرها محمد علي باشا سنة ١٨٢٨ .

واصدر المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٠ صحيفة « نفير سوريا » كما ظهرت سنة ١٨٦٧ جريدة لبنان بامر داود باشا . وما هي الا فترة حتى كثرت الصحف ، فظهرت مجلة الزهرة سنة ١٨٧٠ ليوسف شلفون والجنان لبطرس البستاني ، والمهماز لخليل عطية ، والنحلة للقس لويس الصابونجي ، والجنة لسليم البستاني . وفي سنة ١٨٧٥ ظهرت ثمرات الفنون لعبد القادر القباني . وأنشأ يعقوب صروف وفارس نمر مجلة المقتطف سنة ١٨٧٦ في بيروت ثم نقلاها الى مصر .

وظهرت لسان الحال لخليل سركيس سنة ١٨٧٧ ، وجريدة بيروت لمحمد رشيد الدنا سنة ١٨٨٦ والصفاء لعلي ناصر الدين ، والاقبال للشيخ عبد الباسط الانسي ، وتوالت بعد ذلك الجرائد والمجلات على اختلاف الوانها . وكان كثير من الصحف يُكتب باسلوب متين وعبارة طلية بالرغم من الموضوعات العلمية التي كانت تعالج للمرة الاولى في اللغة

العربية ، وبالرغم مما كان يشوب الالسنة والاقلام من عجمة تركية .

ويتبغي ان لا ننسى ، الى جانب وفرة الصحف الصادرة في بيروت والجبل في هذا العهد ، ان كثيراً من الصحف في مصر كان يحررها أدباء من لبنان .

الجمعيات الادبية

وكان ادباء لبنان يجتمعون في اوقات الفراغ ويتباحثون في فنون اللغة والادب . ويتناشدون الاشعار ويلقون المحاضرات . ولم تلبث هذه الاجتماعات الخاصة أن تحولت الى مجالس عامة يجتمع فيها عدد من المشتغلين في شؤون الثقافة ، ويؤلف كل منها جمعية لها شعارها وهدفها . وقد بعثت هذه الجمعيات نشاطاً ثقافياً ووطنياً في الاوساط المتصلة بها .

وأشهر هذه الجمعيات : الجمعية السورية التي انشاها المرسلون الاميركيون بالتعاون مع ادباء لبنان سنة ١٨٤٧ ، والجمعية المشرقية التي انشأها الادباء الكاثوليك بسعي الآباء اليسوعيين سنة ١٨٥٠ ، وجمعية العلوم التي كان يرأسها الامير محمد ارسلان ، وجمعية المقاصد الاسلامية التي اسسها في بيروت مدحت باشا والي سورية سنة ١٨٨٠ ، والمجمع العلمي الشرقي الذي ترأسه الدكتور فانديك ، وجمعية زهرة الآداب برئاسة اديب اسحق . ولو لم يلغ السلطان العثماني الجمعيات بعد مدة قصيرة لأدت الى النهضة الفكرية خدمات اكثر واثارت نشاطاً أخصب .

٤ . أعلام النهضة الفكرية

اللغة وآدابها

بعد أن كانت الامية متفشية في البلاد العربية ، وبعد ان كان المرء اذا اراد أن يكتب رسالة او يقرأها يضطر الى اللجوء الى افراد اختصوا بقراءة الرسائل ، نبغ في لبنان ادباء كبار تفخر بهم العربية وتعتز . فان هؤلاء ما زالوا يدرسون اللغة ويتدارسونها حتى كثر أنصارها وحتى ضاقت هذه البلاد بما أنجبته



١) الشيخ ناصيف اليازجي ٢) أحمد فارس الشدياق ٣) الشيخ ابراهيم اليازجي
٤) الشيخ يوسف الاسير ٥) المعلم بطرس البستاني .

من العلماء والادباء، فغادروها لينشروا علمهم في بلاد الله الواسعة.

وفي مقدمة من نبغ في اللغة العربية وآدابها الشيخ محمد الحوت، والشيخ عبدالله خالد، والشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ يوسف الاسير، والشيخ ابراهيم الاحدب، والشيخ ابراهيم اليازجي، وأحمد فارس الشدياق، وعبدالله البستاني، والاب جبرائيل إده، والشيخ محي الدين الخياط، والشيخ عبدالرحمن سلام، والاب لويس شيخو، والاب لويس معلوف، والشيخ احمد عباس، والاب انطوان صالحاني، والشيخ مصطفى الغلاييني، وسعيد الشرتوني، وجبر ضومط. ومن هؤلاء من خدم اللغة العربية بالتعليم وحده، ومنهم من خدمها بالتعليم والتأليف.

ويُعتبر مارون النقاش مؤسس فن التمثيل المسرحي في اللغة العربية. وقد كان لهذا الفن اثره في الادب فيما بعد.

التاريخ

ومن أشهر من الف في التاريخ ابراهيم النجار، وطنوس الشدياق، والبطريرك مكسيموس مظلوم، والمطران يوسف الدبس، وعيسى اسكندر المعلوف.

التأليف العلمي

وقد ترك الدكتور فانديك مؤلفات كثيرة في الرياضيات والهندسة والطب والطبيعة والجغرافية. ونشر الدكتور «دي برون» الخلاصة الطبية. والف الدكتور جورج بوست الاميركي كتابي مبادىء التشريح، وصناعة الجرّاح. وكذلك الف زميله

يوحنا وورتبات كتابي التوضيح في اصول التشريح ، واصول الفسيولوجيا ، ووضع الدكتور امين الجميل كتاب « الصحة » .

ويضيق بنا المجال ، لو أردنا ان نعدد كل من ساهم في النهضة الادبية من اللبنانيين ، فحسبنا من ذلك من ذكرنا .

دور اللبنانيين في النهضة

هذه المظاهر الفكرية كلها : من مدارس تثقف الابناء ، ومطابع تعمم الانتاج الفكري ، وصحافة تعبر عن الافكار والنزعات ، ومكتبات تيسر الاطلاع للراغبين ، وجمعيات تحفز الهمم وتثير المناقشات ، ثم اتصال وثيق بالثقافة الاوروبية الحديثة واطلاع عميق على كنوز الادب العربي القديم ، كل هذه المظاهر كانت حوافز لنهضة ادبية شاملة عمت العالم العربي كله ، فدفعته الى المطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، والى الاقبال على العلم اقبالاً لا يقصد منه محو الامية فقط ، وانما يقصد منه التعمق في المعارف الانسانية ، فاذا ثمرات هذه النهضة تظهر ، بعد الحرب العالمية الاولى ، في عدد من المفكرين الذين لمعوا في لبنان وسائر العالم العربي ، وفي وفرة المؤلفات القيمة في مختلف فنون المعرفة ، مما تعرف تفاصيله في دراستك للأدب العربي الحديث .

وحسبنا ان ننص هنا على ان دور اللبنانيين في النهضة كان يتمثل فيما يلي :

١ً – كان ادباء لبنان النافذة التي اطلّ منها قراء العربية على الآداب الاجنبية ، فيما ترجموه لهم من روائع الفكر الغربي .

٢ً – يّسر ادباء لبنان اللغة العربية وقواعدها ، فوضعوا لها المعاجم الحديثة التي لا تزال متداولة حتى الآن .

٣ً – حمل اللبنانيون لواء الصحافة العربيـة في العالم العربي فكان تأثيرهم في عامة القراء اقوى من تأثير غيرهم .

٥ . الهجرة

نزح في عهد المتصرفية عدد كبير من اللبنانيين ، وهاجروا الى اماكن مختلفة من العالم . وكان لهجرة هـذا العدد الكبير أسباب وظروف ونتائج ، سنتحدث عن كل منها فيما يلي :

(أ) – اسباب الهجرة

الضيق الاقتصادي

بعد ان أصيبت البلاد بعدد من الفتن الدامية ، في اواسط القرن التاسع عشر ، وبعد ان اصبح جبل لبنان متصرفية صغيرة المساحة محدودة الانتاج ، ضاقت ابواب الرزق في وجوه عدد وافر من الشباب ، فبحثوا عن مخرج ينقذهم مما هم فيه من الفقر والعوز ...

وضاق بعض الفلاحين بالضرائب الفادحة التي فرضت عليهم ، فتخلص فريق منهم بأن لجأ الى حمـاية الاديرة التي أعفيت من الضرائب ، فاضطرت حكومة المتصرفية الى توزيع مجموع الضرائب المطلوبة على سائر الفلاحين الذين يملكون الاراضي الباقية ،فرزح هؤلاء تحت ثقل هذه الضرائب وانتظروا الفرصة حتى تسنح لهم ليلقوا هذا الثقل عن كواهلهم ...

تقييد الحريات

ولم تكن الحكومة العثمانية تلاحق مواطنيها لتجبي منهم الضرائب فقط ، بل كانت احياناً تلاحقهم هم انفسهم ، فتضطهد بعضهم لرأي ابداه أو دعوة دعا اليها ، او حرية نشر لواءها ، فكيف يستطيع هؤلاء الاحرار نزع القيد من اعناقهم ، والنجاة من ضغط العثمانيين ؟

طموح ومغامرة

شباب عاطل عن العمل ، وفلاحون يرزحون تحت الضرائب ، واحرار يبغون الحرية ، والى جانب هؤلاء شباب طامح الى تحقيق اهداف بعيدة ، منها الغنى والثروة ، ومنها العلم والثقافة ، ومنها المجد والشهرة ، ومنها الحرية والاستقلال .

ثم ترامى الى هؤلاء ان في الخارج بلاداً غنية ، قريبة الموارد، سهلة الاسباب ، يستطيعون فيها تحقيق مطامحهم في وقت قصير .

وما كان امام هؤلاء جميعاً سوى طريق واحدة لا بد لهم من سلوكها ، هي طريق الاغتراب والهجرة . وقد سلكوها ، فعمل العاطل عن العمل ، واثرى الفلاح ، وانطلق الاحرار من القيود . والواقع ان اكثر الذين هاجروا من لبنان في القرن التاسع عشر كان الباعث على هجرتهم الضائقة الاقتصادية التي سادت لبنان في ذلك العهد .

(ب) - تاريخ الهجرة

استعداد طبيعي

لم تكن الهجرة عند اللبنانيين حادثاً طارئاً لم يسبق لهم ان

لجأوا اليه ، فالتاريخ يحدثنا ان الفينيقيين ، منذ اقدم الازمنة ، خرجوا في سفنهم يرودون البحار ، وينشئون المستعمرات على شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وقد استقروا في بعض المدن الجديدة التي انشأوها على سواحل افريقية الشمالية . فالهجرة وليدة استعداد طبيعي عند اللبناني ، اذا ضاقت في وجهه السبل ، او اذا ثار في نفسه الطموح وحب المغامرة .

هجرات قريبة

ولما كان مطلع القرن التاسع عشر ، في عهد الامير بشير ، خرج بعض الموارنة في هجرات قصيرة ، فلم يبعدوا عن لبنان كثيراً . فاقام فريق منهم في فلسطين واللاذقية وحلب وارمينية وعلى طول الشاطىء الجنوبي والغربي لآسية الصغرى ، وفي جزيرة قبرس . ولا يزال لهم في بعض هذه المواضع جاليات حتى اليوم . على أن اكثر هؤلاء كانوا من الفلاحين الفقراء .

وعلى اثر حوادث سنة ١٨٦٠ نزح قسم كبير من الدروز الى حوران فوزعت أراضيهم التي تركوها على أسر الفلاحين المسيحيين .

الهجرة الى مصر

وفي سنة ١٨٦٨ كان فرديناند ده لسبس قد اتمّ وصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط بواسطة قناة السويس ، فقصّر الطريق بين اوروبة الغربية وبين مستعمراتها في الشرق الاوسط . ولم تلبث انكلترة ان اشترت قسماً كبيراً من اسهم شركة القناة واغتنمت فرصة الاضطرابات الداخلية فاحتلت مصر سنة ١٨٨٢

ولم تلبث مصر ان ساد فيها الأمن وازدهرت التجارة ، فكانت مقصد اللبنانيين المثقفين الهاربين من جور العثمانيين . فلقي الذين هاجروا الى مصر ترحيباً حاراً من اخوانهم . وقد استوطنوا القطر العربي الشقيق وتبوأوا فيه مراكز مرموقة في الادارة والصحافة والتجارة .

ومن ابرز الذين استوطنوا مصر سليم وبشارة تقلا اللذان أسسا جريدة الاهرام سنة ١٨٧٥ ، ويعقوب صروف وفارس نمر صاحبا المقطم (١٨٨٩) والمقتطف ، والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار(١٨٩٨) وجرجي زيدان مؤسس دار الهلال وصاحب المؤلفات الكثيرة في الأدب والتاريخ .

الى العالم الجديد

وكانت الهجرة من انحاء اوروبة الى اميركة على قدم وساق ، وكانت الانباء عن خصب الحياة وغناها في العالم الجديد تنقل الى الشرق العربي موسعة مكبرة فتغري الناس، وتدفعهم الى الهجرة وراء السعادة المنشودة . ويقال ان أول من هاجر من سورية ولبنان هم بضعة شبان من بيت لحم وكانت حرفتهم في مهاجرهم بيع المسابح والصلبان والهياكل الصغيرة للمتدينين . ثم بدأ بعض المغامرين في لبنان يسافرون الى اميركة . ولم تلبث ان نجحت مغامراتهم ، فاذا اموالهم تتوالى على اهلهم لترفه عنهم ، واذا الهجرة حديث الناس في قرى الجبل . ومما يروى « ان الاسكافي فضول متري بشارة هاجر من الشوير الى البرازيل حوالى سنة

١٨٨٥ ، فلم تكد تمر على هجرته سنتان حتى ارسل الى والده في لبنان خمسين ليرة انكليزية ذهباً . فتنعم والده بالمال الجديد وقطع لنفسه سروالاً من الجوخ ، واردفه بمعطف ثمين وشال من الكشمير وأخذ يتبختر في سوق الشوير . فاهتزت القرية واندفع من ابنائها الى اميركا ثمانون شخصاً في عام واحد ، سافروا دفعة واحدة . »

وتضخم عدد النازحين الى الخارج حتى بلغ حداً هائلاً . فان المؤرخ الفرنسي «جوبلان» الذي نشر في سنة ١٩٠٨ دراسة عن لبنان ، يقول : « انه لوحظ بعد احصاء السكان في لبنان بين سنتي ١٨٧٠ — ١٩٠٠ أن ثلث السكان قد هجر البلاد » .

واستمرت الهجرة سنة بعد سنة في مطلع القرن العشرين ، ولم تتوقف الا أثناء الحرب العالمية الاولى ، ثم عادت الى نشاطها بعد انتهاء الحرب .

(ج) - نتائج الهجرة

إحياء الوطن

حقق اكثر المهاجرين ما ارادوا من هجرتهم ، فقد اثرى الفقير ، وتحرر المضطهد ، ووجد المغامرون ما يغذي طموحهم ويقربهم من اهدافهم . وكان من نتيجة ذلك ان تدفقت الاموال على المقيمين من ابنائهم واقربائهم المغتربين . وكانت أسر عديدة وكبيرة تعيش على ما يرد اليها من بلاد الغربة . وبذلك تحسنت حياة بعض الجماعات ، فاستطاعوا ان ينشئوا بما جناه ابناؤهم من الاموال

المشروعات الصناعية والتجارية والزراعية ، فخدموا الوطن ، ونشطوا حياته الاقتصادية . ولايزال لبنان ، حتى اليوم ، بعد مرور نحو من سبعين سنة على بدء المهاجرة ، مديناً برفاهية قسم كبير من ابنائه الى الاموال التي تأتي من وراء البحار .

المنزلة العالية في المهاجر

ومن الطبيعي ان هذه الاموال الغزيرة ، ما كانت لتصل الى لبنان لو لم يكن هؤلاء المهاجرون قد حققوا لأنفسهم ثروة كبيرة ومكانة مرموقة في البلاد التي هاجروا اليها . والواقع ان الجاليات السورية واللبنانية في بلادالغربة كانت من اكثر الجاليات الاجنبية نجاحاً واخلاصاً في اعمالها، وانسجاماً مع ابناء البلاد التي أصبحت وطناً ثانياً لهم .

الادب المهجري

وكان للمغتربين من رجال الادب اثر كبير في الادب العربي، فاصبح لهم مدرسةادبية ذات طابع خاص هو مزيج من ايحاءالشرق وفكر الغرب . على ان هذه المدرسة الادبية قد بلغت ذروة مجدها بعد عهد المتصرفية .

بعض الاعلام

على اننا لابد لنا من ان نذكر ان ثمرات الهجرة قد ظهرت في اقوى مظاهرها في العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين، ففي ميدان الادب نذكر جبران خليل جبران وامين الريحاني

وميخائيل نعيمة ، وايليا ابو ماضي في اميركا وخليل مطران وانطون الجميل في مصر .

ومن اساتذة الجامعات الاميركية نذكر فيليب حتي وحبيب اسطفان ووديع داود .

وفي عالم الاختراع حسن كامل الصباح نابغة الكهرباء والتلفزيون .

وفي ميدان السياسة نذكر جبرائيل طربيه الذي تولى رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس الشيوخ ، وانتخب نائباً لرئيس الجمهورية في كولومبية ، وجورج قسيس الذي تولى منصب وزير الخارجية في الارجنتين . والدكتور فرانك جحا الذي تولى وزارتي الصحة والمعارف في تسمانية .

وهؤلاء قليل من كثير ممن نبغ من مواطنينا في مختلف بلاد الغربة .

وللهجرة مساوىء

واذا كانت الهجرة قد اتاحت لفريق من ابناء لبنان أن يتبوأ أعلى المناصب ويصيب حظاً وافراً من النجاح والثروة ، فإن الوطن كان يخسر في هجرة هؤلاء نفوساً طامحة وسواعد قوية ، واركاناً كان بوسعها ان تنهض بالوطن ، في الوطن نفسه ، لا في بلاد الغربة . وإن عدد الذين يعيشون في ديار الغربة من ابناء لبنان اليوم ، لا كثر عدداً من المقيمين انفسهم ، فقد ناف عدد المهاجرين خلال سبعين سنة عن المليون نسمة . وعدد كبير من هؤلاء لن يعود الى وطنه الاول ، بالرغم من الحنين الذي يحس به نحوه ، والسخاء الذي يجود به عليه بين وقت وآخر .

٦. لبنان والحرب الكبرى

•

تحدثنا في القسم الأول عن اسباب الحرب الكبرى وسيرها ونتائجها . ونتحدث الآن عن الاحداث التي عرفها لبنان خلال سنوات الحرب الاربع .

١ - خرق النظام الاساسي لجبل لبنان

بعد انقضاء ثلاثة اشهر على ابتداء الحرب انضمت تركية الى الدول الوسطى ، اي المانية والنمسا . واعلنت الاحكام العسكرية والغاء الامتيازات الاجنبية في جميع انحاء السلطنة . وجاء الفيلق العثماني الرابع الى سورية وفلسطين ليقوم بالهجوم على ترعة السويس وطرد الانكليز من مصر . فتذرع قائده جمال باشا بالضرورات الحربية وارسل في اواخر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ بضعة آلاف من الجنود العثمانيين الى جبل لبنان معتدياً بذلك على استقلاله الداخلي وناقضاً نصوص نظامه الاساسي ، اي بروتوكول سنة ١٨٦٤ . ثم مالبث جمال باشا ان تسلم زمام السلطة الحقيقية ، واصبح المتصرف اوهانس باشا وجميع الموظفين في جبل لبنان ادوات لتنفيذ

اوامره وتعليماته . فشكل محكمة عسكرية في عاليه ، وصادر املاك الرعايا الاجانب التابعين الى دول معادية ، وحوّل بعض المنشآت الى ثكنات عسكرية او دوائر حكومية ، وتدّخل في جميع الامور المهمة في البلاد .



جمال باشا

وفي سنة ١٩١٥ تفردت الدولة العثمانية باقالة المتصرف اوهانس باشا قبل انتهاء مدته وعينت علي منيف مكانه مرتكبة بذلك عدة مخالفات لروح البروتوكول ونصه . وقد تكررت تلك المخالفات بعد ذاك مرتين في سنة ١٩١٧ حين اقيل علي منيف وعين مكانه اسماعيل حقي ، وفي اواسط سنة ١٩١٨ حين اقيل هذا الاخير وعين مكانه ممتاز بك الذي حكم بضعة أشهر ، وجلا عن هذه البلاد مع العثمانيين المنهزمين في اواخر ايام الحرب .

ولم يكتف العثمانيون بخرق استقلال جبل لبنان فحسب بل حاولوا القضاء عليه تماماً . وكانت هذه رغبتهم منذ زمن بعيد ، ولكن قوة الامراء اللبنانيين وتدخل الدول الاجنبية كانا يحولان دون تحقيق هذه الرغبة . فلما زال هذان المانعان خلال الحرب وكان اللبنانيون في حالة ضعف وضيق الغى العثمانيون الاستقلال

واعتبروا لبنان ولاية عثمانية . وهكذا قضي موقتاً على استقلال لبنـــان .

٢ . التنكيل بالوطنيين

كان العرب عموماً مستائين من السياسة العثمانية الهادفة الى إضعافهم وقتل الروح القومية فيهم . فشكل شبابهم المثقف عدداً من الجمعيات والنوادي السرية التي كانت تعمل لاصلاح احوال البلاد من النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية وغيرها . وكان الوطنيون ينقسمون الى قسمين : قسم يطالب بالاستقلال الذاتي ضمن الرابطة العثمانية ، وهؤلاء كانوا يعرفون بطلاب « اللامركزية » . وقسم آخر يريد الاستقلال الكامل والانفصال التام عن العثمانيين . وكان العثمانيون يكرهون الفريقين ويضطهدونهما وينكلون بكل من يكتشفون انه ينتمي الى احدهما .

ولما وقعت الحرب ازداد العثمانيون خوفاً من نشاط الوطنيين المطالبين بالحرية والاستقلال . فخنقوا الحريات ، وفرضوا رقابة شديدة على المطبوعات ، وبثوا جواسيسهم ليجمعوا لهم اسماء الوطنيين وليوافوهم باخبار نشاطهم .

وقد وقع بايدي السلطة العسكرية عدد كبير من الاسماء ، فاحالهم جمال باشا الى المحكمة العسكرية في عاليه فحكمت على بعضهم بالاعدام وعلى البعض الآخر بالسجن او بالنفي . ونفذ

الاعدام في اكثرهم في الساحة التي سميت من اجل ذلك « ساحة الشهداء » ببيروت . اما الذين كانوا خارج لبنان من الذين حُكم عليهم بالاعدام ، فقد نجوا بحياتهم .

ومن الذين اعدمهم جمال باشا، الخوري يوسف الحايك، والشيخان فريد وفيليب الخازن ، وعبد الكريم الخليل ، ويوسف الهاني ، وصالح حيدر ، ومحمد محمصاني واخوه محمود ، وعبدالقادر الخرسا ، والشيخ احمد طبارة ، وسعيد عقل ، وبترو باولي ، وعارف الشهابي ، وجورج حداد ، وعمر حمد ، وتوفيق البساط ، وعبدالغني العريسي ، وامين لطفي . ويلاحظ ان عدداً لا بأس به منهم كان من اللبنانيين . ولما كان اكثر هؤلاء شنقوا في ٦ ايار سنة ١٩١٦ فقد جعل هذا اليوم عيداً للشهداء يحتفل اللبنانيون حكومة وشعباً بذكراه كل عام .

نشرت هذه الاحكام جواً رهيباً من الخوف والذعر، ولكنها لم تمنع الوطنيين الذين لم يقعوا في ايدي العثمانيين من متابعة جهودهم ومساعيهم لأجل استقلال لبنان .

٣ - الحالة الاقتصادية خلال الحرب

ساءَت الحالة الاقتصادية في جبل لبنان خلال سنوات الحرب الى درجة كبيرة لم تعرف هذه البلاد من قبلُ لها مثيلاً . أما أسباب ذلك فترجع الى عدة عوامل اهمها ما يلي :

(أ) الجراد

هجم الجراد على جبل لبنان في السنة الاولى من الحرب

ففتك بالمزروعات وقضى على الغــلال والتهم الاغصان الخضراء وترك الاشجار عارية جرداء لا تحمل ثمراً قبل مرور سنة اوسنتين على الاقل . ولكن بعضها يبس او تعطل عن الانتاج مدة طويلة.

(ب) الحصار البحري

لما دخلت تركية الحرب اصبحت بلادنا ، بطبيعة الحال ، في حالة حرب مع الحلفاء ،فضربواحولها حصاراً بحرياً ومنعوا السفن من القــدوم اليها او الخروج منها . فشُلّت الحركة التجارية وتوقفت اعمال التصدير والاستيراد .

وبانقطاع المواصلات البحرية مع بلادناانقطع وصول الاموال من المغتربين الى ذويهم . ولما كان بعض اللبنانيين يعتمدون في معيشتهم على تلك المساعدات المالية التي كانت تأتيهم من المهجر فقد اصبحوا في حالة يرثى لها من الفقر والضيق . كما ان انقطاع ذلك المورد المهم أثر في الحالة الاقتصادية بصورة عامة وساعد على استحكام الازمة في البلاد .

(ج) النقد الورقي الجديد

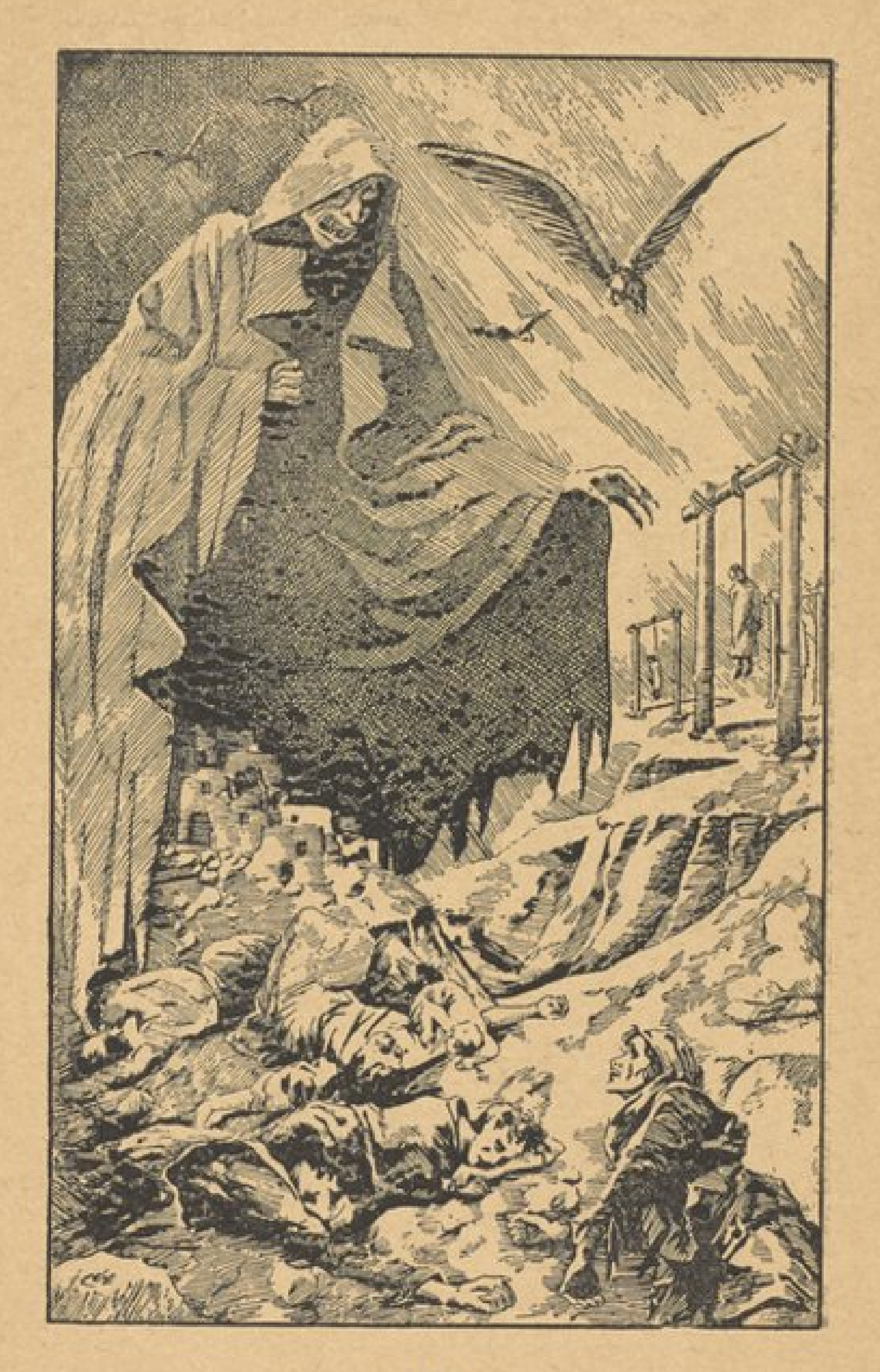
وزاد الطين بلة ان العثمانيين ، وقد اضطروا الى انفاق مبالغ طائلة على الحرب ، اصدروا اوراقاً نقدية جديدة (البنكنوت التركي) بكميات كبيرة ، فهبطت قيمتها بالنسبة الى النقــود الذهبية والفضية هبوطاً محسوساً . ولكن الحكومة كانت تصر على اعتبار الليرة الورقية مساوية لليرة الذهبية وتجبر الناس على قبضها . وكانت نكبة البــلاد بهذا النقد مزدوجة : فقــد

ذهب بجزء من ثروة البلاد ، وأحدث ركوداً في حركة البيع والشراء لأن الناس كانوا يتهربون من قبضه ويفضلون ان يحتفظوا بما عندهم من بضائع او غلال بدلاً من ان يبيعوها باوراق البنكنوت غير المستقرة.

٤ ـ المجاعة والمرض

كان لتدهور الحالة الاقتصادية في جبل لبنان تأثيرٌ خطيرٌ على احوال معيشة السكان . فقد قلت البضائع في الاسواق وارتفعت الاسعار ارتفاعاً جنونياً حتى تعذر على الفقراء ومتوسطي الحال ان يؤمنوا حاجاتهم الضرورية . وكان الطلب كبيراً على المواد الغذائية بشكل خاص ، وذلك لثلاثة اسباب هي : أولاً ، لان جبل لبنان لا ينتج منها ما يكفي حاجة سكانه. وثانياً، لان استيرادها انقطع بسبب الحصار البحري ، ولان العثمانيين منعوا دخول القمح والحبوب الاخرى من ولاية سورية الى جبل لبنان. فكان الناس يخاطرون بكراماتهم وحياتهم احياناً من اجل تهريب بضعة ارطال من القمح من البقاع او عكار . ولكن قلما كانوا ينجحون لان عيون المراقبين كانت يقظة ساهرة . وثالثاً ، لان الموظفين الاتراك وبعض اللبنانيين اتفقوا على التلاعب بالاعاشة التي كانت مخصصة للبنان ، وعلى احتكار المواد الغذائية طمعاً في الربح .

لهذه الاسباب وغيرها انتشرت المجاعة في لبنان . ولما لم يجد الفقراء ما يقتاتون به اكلوا النباتات ، ولحوم الخيل والحمير



والكلاب والقطط ، وقشور الفاكهة التي كانوا يلتقطونها من الطرق او من أكوام القاذورات ، وغيرها من الاشياء . ولكن ذلك كله لم ينقذهم من الهلاك جوعاً ، فكانوا يموتون بالعشرات كل يوم . ونكبت البلاد فوق ذلك بالمرض ، فانتشرت الحميات والاوبئة وفتكت فتكاً ذريعاً بالسكان . فخسر جبل لبنان خلال سنوات الحرب الاربع بسبب الجوع والمرض وغيرهما ثلث سكانه تقريباً ، وخربت قرى كانت آهلة .

٥ ـــ نهاية الحرب

وفي ايلول سنة ١٩١٨ احرز الحلفاء انتصاراً باهراً في اواسط فلسطين (معركة طول كرم) فتراجع العثمانيون بسرعة منسحبين نحو الشمال . فسار الامير فيصل قائد الجيش العربي الى دمشق واحتلها مع بعض الجنود الانكليز ، وتقدمت قوات انكليزية وفرنسية على الساحل فاحتلت صيدا وبيروت وطرابلس في النصف الاول من تشرين الاول فتنفس اللبنانيون الصعداء وزال عنهم كابوس الارهاب والجوع . وفي ٣١ تشرين الاول وقّع العثمانيون الهدنة وانتهت الحرب العالمية الاولى في هذه البلاد .

٧ . الانتداب

•

١ ـ نظام الانتداب

بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى تشكلت عصبة الامم التي مرّ معنا ذكرها . وقد نصت المادة الثانية والعشرون من ميثاقها على ان البلدان التي كانت خاضعة للدول الوسطى وحلفائها والتي لم تبلغ بعدُ المستوى الذي يمكنها من ممارسة استقلالها يجب ان توضع تحت انتداب احدى الدول الكبرى. ومهمة الدولة المنتدبة كما نص عليها ميثاق العصبة هي مساعدة البلدان الضعيفة المتأخرة على النهوض وتدريبها على الحكم حتى تصبح قادرة على ان تستقل وتحكم نفسها بنفسها .

اقر الحلفاء في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠ وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

يُقسم عهد الانتداب في لبنان الى قسمين رئيسيين هما : عهد الحكم الفرنسي المباشر ويمتد من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢٦، وعهد الحكم الوطني ويمتد من سنة ١٩٢٦ الى نهاية الانتداب في سنة ١٩٤٣

٢ - عهد الحكم الفرنسي المباشر

كان الجنرال غورو مفوضاً سامياً وقائداً عاماً للجيوش الفرنسية في الشرق عندما صدر قرار مؤتمر سان ريمو في ربيع سنة ١٩٢٠ . فباشر بتطبيق الانتداب في الحال . ففض « المجلس الاداري » الذي كان باقياً من العهد العثماني، وقرر اعادة المناطق التي كانت قد سلخت عن لبنان في سنة ١٨٦١ .

وفي ايلول سنة ١٩٢٠ أعلن في حفلة رسمية تأسيس دولة « لبنان الكبير » بحدوده الحالية ، وجعل العلم اللبناني علماً فرنسياً تتوسط القسم الابيض منه ارزة خضراء .

فرح اللبنانيون بالاستقلال في اول الأمر ،ولكن سرعان ما تبين لهم انهم بعيدون كل البعد عن الاستقلال وان الفرنسيين ينوون حكم البلاد مباشرة . فقد عين الجنرال غورو ضابطاً فرنسياً على رأس الدولة اللبنانية الجديدة، وأسند جميع الوظائف الكبرى فيها الى موظفين فرنسيين . اما الوطنيون فقد ولاهم بعض الوظائف الثانوية التي لم يكن لها شأن كبير في سياسة البلاد

وشكل الفرنسيون في سنة ١٩٢٠ هيئة وطنية هي « اللجنة الادارية » لتحل محل المجلس الاداري القديم . وفي سنة ١٩٢٢ حلوا هذه اللجنة ودعوا اللبنانيين الى انتخاب اول مجلس تمثيلي « مجلس نيابي » . ولكن السلطات التي منحها الفرنسيون للجنة الادارية والمجلس التمثيلي كانت محدودة جداً لانهم احتفظوا بالسلطة الحقيقية في ايديهم .

وتعاقب في منصب المفوض السامي بعد الجنرال غورو الجنرال ويغان (١٩٢٣) ، والجنرال سراي (١٩٢٥) ، ولكن الحكم الفرنسي المباشر لم يتغير رغم احتجاجات اللبنانيين واعتراضاتهم .

وفي سنة ١٩٢٥ اندلعت نار الثورة ضد الفرنسيين في سورية وانتقلت الى جنوبي لبنان ، فخشيت الحكومة الفرنسية سوء العاقبة وعزمت على تعديل سياستها في الشرق . فاستدعت الجنرال سراي في اواخر تلك السنة ، وعينت مكانه مفوضاً سامياً مدنياً غير عسكري (هنري ده جوفنيل)

وطلب المفوض السامي الجديد من المجلس التمثيلي اللبناني ومن بعض المراجع القانونية العالية وضع دستور للبلاد . فتم وضعه خلال بضعة شهور ، وفي ٢٣ ايار سنة ١٩٢٦ أقره المجلس التمثيلي ودخل لبنان في عهد جديد .

٣ ـ عهد الحكم الوطني

(١) رئاسة شارل دباس

نص الدستور اللبناني على ان يكون الحكم وطنياً جمهورياً . فانتخب مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، اللذان نص عليهما الدستور ، شارل دباس اول رئيس للجمهورية في ٢٦ ايار سنة ١٩٢٦ . فصار الحكم وطنياً وانتقلت جميع المناصب العالية في الدولة الى ايدي اللبنانيين بعد ان ظلت في ايدي الاجانب طيلة سبع سنوات ونيف . ولكن لا بد من التنبيه الى انه كان يوجد في كل وزارة

من الوزارات وكل دائرة من الدوائر المهمة في الحكومة اللبنانية موظف فرنسي يدعى «المستشار» . وكان المستشارون «مستشارين» بالاسم فقط ولكنهم كانوا بالفعل حكام البلاد الحقيقيين . وكانت



شارل دباس

الكلمة الفاصلة لهم في جميع الامور ، لان الموظف اللبناني لم يكن يجرؤ على مخالفة المستشار او مقاومته . ويرجع السبب في ذلك الى ان سلطات المفوض السامي كانت فوق سلطات الحكومة الوطنية ، بل فوق القانون والدستور اللبنانيين . ولم يكن المستشارون في الواقع غير ممثلي المفوض السامي وعيونه في الدوائر اللبنانية . فلهذا كان الموظفون اللبنانيون على العموم يهابون «المستشارين» الفرنسيين وينفذون تعليماتهم . وقد دامت هذه الحالة حتى نهاية الانتداب .

وفي عهد شارل دباس وضع الشاعر رشيد نخله النشيد الوطني، ولحنه الموسيقار وديع صبرا . وألغي مجلس الشيوخ في سنة ١٩٢٧ ومنذ ذلك التاريخ والسلطة التشريعية في لبنان تتألف من مجلس واحد فقط هو مجلس النواب .

وفي سنة ١٩٣٢ انتهت مدة رئاسة شارل دباس . ولم يرض الفرنسيون عن المرشح الذي آزرته وتمسكت به كثرة النواب ، فأصدر المفوض السامي مسيو بونسو في ٩ أيار قـــراراً بتعليق الدستور وبتعيين شارل دباس حاكماً فرداً غير مسؤول عن اعماله امام أية هيئة وطنية .

وقد حكم بهذه الصفة حتى نهاية عام ١٩٣٣ .

(٢) رئاسة حبيب باشا السعد ١٩٣٤ – ١٩٣٦

في مطلع سنة ١٩٣٤ فك المفوض السامي الكونت ده مارتل عقال الدستور جزئياً . فسمح باجراء انتخاب مجلس نواب جديد ، ولكنه لم يسمح لهذا المجلس بانتخاب رئيس الجمهورية ، بل عيّن هو حبيب باشا السعد في هذا المنصب لمدة سنتين .

(٣) رئاسة اميل اده ١٩٣٦ – ١٩٤١

في كانون الثاني سنة ١٩٣٦ أطلق عقال الدستور تمامـــاً ، فاجتمع المجلس النيابي وانتخب اميل اده رئيساً للجمهورية خلفاً لحبيب باشا السعد . وحاول اميل اده ان يحمل الحكومة الفرنسية على الغاء الانتداب ومنح لبنان استقلاله على ان يسبق ذلك عقد معاهدة تحالف وصداقة بين الدولتين، ولكنه لم يوفق في مسعاه .

وفي ايلول سنة ١٩٣٩ ابتدأت الحرب العالمية الثانية ، فعلّق المفوض السامي الفرنسي - مسيو پيو - الدستور اللبناني من جديد ، وصرف النواب والوزراء . ولكنه لم يتعرض للرئيس اده الذي استمر في الحكم الى حين استقالته في سنة ١٩٤١ . وقد خلفه في رئاسة الدولة الفرد نقاش الذي وعد الحلفاء في ايامه بالغاء الانتداب ومنح لبنان استقلاله الكامل .

٤ - مصالح بقيت بيد الفرنسيين

كانت الحكومة الوطنية في عهد الانتداب تعنى بمعظم شؤون البلاد عدا بعض المصالح التي احتفظ الفرنسيون بها وتولوا ادارتها بانفسهم ، وأهمها ثلاث ، وهي :

(أ) السياسة الخارجية

حصر الفرنسيون صلاحيات الحكومة الوطنية بالامور الداخلية ، وسيطروا هم على علاقات لبنان بالدول الاخرى سيطرة كاملة. فلم يسمحوا بان يكون له وزارة للشؤون الخارجية وممثلون سياسيون في عواصم البلدان الاجنبية . فكانت الحكومة الفرنسية تتكلم باسم لبنان وتعقد الاتفاقات الدولية بالنيابة عنه ، كما كان ممثلوها السياسيون والقنصليون في الخارج يعنون بشؤون المهاجرين ويهتمون بامورهم .

(ب) الجيش

وكذلك لم يسمح الفرنسيون بان يكون لحكومة لبنان من

القوى المسلحة غير رجال الشرطة والدرك ليحافظوا على الامن الداخلي . اما الجيش الذي كان مؤلفاً من فرنسيين ولبنانيين وسوريين وغيرهم فقد ابقوه في ايديهم وتحت قيادتهم . ولم يكن للحكومة اللبنانية اية سلطة عليه او علاقة مباشرة به .

(ج) الجمارك

واحتفظ الفرنسيون لأنفسهم ايضاً بادارة الجمارك وذلك لسببين : اولاً ، لان قضايا الجمارك متصلة اتصالاً وثيقاً بالعلاقات الخارجية وبالسياسية الفرنسية العليا . وثانياً ، لان الجمارك كانت تدرّ ملايين الليرات وتشكل باباً رئيسياً من ابواب الواردات في موازنة الادارة الفرنسية في لبنان .

٥ - الحياة والأدارة في هذا العهد

حققت البلاد تقدماً ملموساً بعد الحرب العالمية الاولى . وإن من يقارن بين حالة لبنان في سنه ١٩١٨ وبينها في سنة ١٩٤٣ يدرك مقدار هذا التقدم الذي نشير اليه والذي يتناول مختلف نواحي الحياة في لبنان ، وهذه اهم مظاهره :

(أ) تنظيم الادارة العامة

في هذا العهد نظمت الادارة العامة في البلاد على اساس وطني ديمقراطي . فوضع الدستور الذي وزع السلطات وحدد الصلاحيات ، وشكلت السلطة التشريعية على غرار المجالس النيابية في الغرب ، ونظمت المحاكم ، والجمارك ، والدوائر العقارية

ودوائر الشرطة والدرك والصحة والاسعاف العام وغيرها . ولا يزال هذا التنظيم متبعاً ، مع قليل من التعديل ، في لبنان حتى الوقت الحاضر .

(ب) العمران

وتقدمت البلاد من الناحية العمرانية ايضاً ، فمدت خطوط البرق والهاتف بكثرة ،وأنشىء مطار في رياق وآخر في بيروت، ووسع مرفأ بيروت وأصلح مرفأ طرابلس ، وانشئت شبكة من الطرق المعبدة تعتبر الاولى من نوعها في بلدان الشرق ، واسست محطة « راديو الشرق » التي اصبحت في عهد الاستقلال « محطة الاذاعة اللبنانية » . وازدهرت المدن اللبنانية وخصوصاً مدينة بيروت التي ارتفعت فيها الابنية الضخمة وشقت الشوارع المستقيمة العريضة، ونشطت حركة السياحة والاصطياف وصارت تدر على البلاد اموالاً طائلة .

(ج) التعليم

وفي هذا العهد انشئت مدارس كثيرة،ووضع منهج للتعليم ، واحدثت ثلاث شهادات هي الشهادةالابتدائية والشهادةالتكميلية وشهادة البكالوريا اللبنانية . واقبل الطلاب على العلم حتى غصت بهم المدارس . وقد رحل كثير من الشبان الى جامعات اوروبة واميركة للتخصص في العلوم والفنون .

(٤) النهضة النسائية

وفي هذا العهد بدأت المرأة تشارك الرجل اعباء الحياة ، بعد

ان كثرت مدارس البنات ، وبعد ان تلقى بعض النساء ثقافة عالية . فكان من اللبنانيات طبيبات ومحاميات وكاتبات ، وارتفع صوت المرأة اللبنانية مطالباً بالاستقلال ، واشتركت في الجمعيات الخيرية والاجتماعية ، وجلست في المؤتمرات النسائية العالمية تبدي رأيها الى جانب زميلاتها من نساء العالم .

وينبغي ان لاننسى ان هذا الرقي الذي شمل الحياة اللبنانية هو جزء من الرقي العالمي في مختلف الوان الحياة الذي عمّ العالم بعد الحرب العالمية الاولى .

٨٠ استقلال لبنان

•

١ ـ مقدمات الاستقلال

قلنا في الفصل السابق إن المفوض السامي الفرنسي مسيو پيو علق الدستور اللبناني في شهر ايلول سنة ١٩٣٩ بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية . فحل مجلس النواب وصرف الوزراء ، ولكنه ابقى اميل اده رئيساً للجمهورية يعاونه عدد من امناء السر في ادارة شؤون البلاد .

وكانت حالة الحلفاء سيئة في مراحل الحرب الاولى . فقد سقطت فرنسة في حزيران سنة ١٩٤٠ وقامت فيها حكومة فيشي الموالية للألمان . وقامت خارج فرنسة حركة « فرنسة الحرة » التي كان يتزعمها الجنرال ديغول ، والتي كانت تصر على وجوب استمرار فرنسة في القتال الى جانب الحلفاء حتى النصر النهائي مهما كلفها الأمر من جهود وتضحيات . وانقسمت الممتلكات الفرنسية الى قسمين ، احدهما اراد المقاومة وانضم الى حركة ديغول ، والآخر اختار الاستسلام واعلن ولاءه لحكومة فيشي . وكانت السلطات الفرنسية في سورية ولبنان من هذا النوع الاخير .

ارسلت حكومة فيشي الجنرال دانتز الى بيروت مفوضاً سامياً وقائداً عاماً للجيش الفرنسي في الشرق في اوائل سنة ١٩٤١ فاستقال اميل اده من رئاسة الجمهورية وعين الجنرال دانتز الفرد نقاش مكانه . وفي هذا العام كانت حالة الحلفاء العسكرية تسير من سيء الى اسوأ في الشرق الاوسط وكانت حكومة فيشي قد ابتدأت تتساهل في امر تسرب الالمان الى سورية ولبنان . فاقلق ذلك الحلفاء وجعلهم يصممون على طرد الفيشيين من هذين البلدين واحلال الديغوليين او الفرنسيين الاحرار محلهم.

الفرد نقاش

ولم يشأ الحلفاء في تلك الظروف الدقيقة ان يدخلوا لبنان وسورية دخول الغزاة الفاتحين ، بل ارادوا أن يؤيدهم السكان وأن يستقبلوهم بالتعاون والترحاب . من اجل ذلك ، ولاسباب سياسية اخرى ، لم يرَ الحلفاء والفرنسيون الاحرار بداً من منح اللبنانيين والسوريين استقلالهم الكامل الصحيح . فاعلن الجنرال كاترو باسم فرنسة الحرة ، من القاهرة ، الغاء الانتداب على هذين البلدين ، واعترف باستقلالهما التام . فسر الوطنيون كثيراً بهذا الاعلان وانتظروا الخطوة التالية التي سيتخذها الحلفاء .

في ٨ حزيران سنة ١٩٤١ هاجمت الجيوش الحليفة المتمركزة في فلسطين لبنان وسورية يعاونها الاسطول ، فوقعت بينها وبين جيش الجنرال دانتز بعض المعارك قرب صيدا وفي الدامور ومرجعيون وجزين . وفي ١٤ تموز استسلم الفيشيون ورحلوا عن هذه البلاد .

وبعد ان استقر الحلفاء في لبنان ذكّرهم الوطنيون باعلان القاهرة الذي وعد بالغاء الانتداب ، فعاد الجنرال كاترو وايد ذلك الاعلان بتصريح رسمي بالمعنى نفسه ، اذاعه في بيروت بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني من السنة نفسها . غير ان حالة الحرب العالمية في ذلك الوقت لم تسمح بممارسة الاستقلال ، او باجراء اي تبديل في اوضاع البلاد السياسية .

٢ . تحقيق الاستقلال

عندما اطلت سنة ١٩٤٣ كانت حالة الحلفاء العسكرية في الشرق الاوسط قد تحسنت تحسناً ملموساً . فرأت الحكومات الحليفة ان تبرّ بالوعود التي قطعتها فتسمح باعادة النظام الدستوري الى لبنان . وجاءَت اول خطوة في هذا السبيل في ١٨ آذار من السنة نفسها حين أقال المندوب الفرنسي - الجنرال كاترو - الرئيس الفرد نقاش وحكومته ، واصدر قراراً يقضي باعادة تطبيق الدستور ، وبتشكيل حكومة موقتة لاجراء الانتخابات . وقد تم الاتفاق على ان يتألف المجلس النيابي من خمسة وخمسين نائباً ينتخبون انتخاباً ويمثلون مختلف الطوائف والمناطق اللبنانية .

جرى الانتخاب في اواخر الصيف . وفي ٢١ ايلول اجتمع المجلس الجديد وانتخب الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية . وبعد ايام قليلة تشكلت الحكومة برئاسة السيد رياض الصلح ، واصبح الحكم في لبنان وطنياً دستورياً .

في تلك الاثناء كانت جميع الدول العربية والدول الحليفة الكبرى – انكلترة والولايات المتحدة الاميركة والروسيا – قد اعترفت باستقلال لبنان وأيدته ، ثم بعثت بوزرائها المفوضين ومعتمديها السياسيين ليمثلوا حكوماتهم لدى



الشيخ بشارة الخوري

الجمهورية اللبنانية . وبفضل هذه الاعترافات من جهة ، وتمسك اللبنانيين باستقلالهم من جهة اخرى ، تغيّر وضع لبنان الدولي من اساسه ، فاصبح دولة مستقلة ذات سيادة تامة وسلطة مطلقة في الحقلين الداخلي والخارجي . وقد نتج عن هذا التطور السياسي الخطير تناقض صريح بين الوضع الاستقلالي الراهن وبين الدستور الذي يقرّ نظام الانتداب ويعترف للأجانب بسلطة فوق سلطة الحكومة الوطنية . فكان لابد من ازالة هذا التناقض بتعديل الدستور . وقد اخذت الحكومة الجديدة على عاتقها امر تعديله

ليطابق بروحه ونصه وضع البلاد الراهن . فأعــدّت مشروع التعديل ، وقدمته الى مجلس النواب . وكان التعديــل يتناول أمرين خطيرين : أولاً ، الغاء معظم المواد التي تتعلق بالانتداب وبعصبة الامم ، والتي من شأنها ان تنتقص من سيادة لبنان واستقلاله الناجز التام . وثانياً ، جعل اللغة العربية اللغـة الرسمية الوحيدة في لبنان .

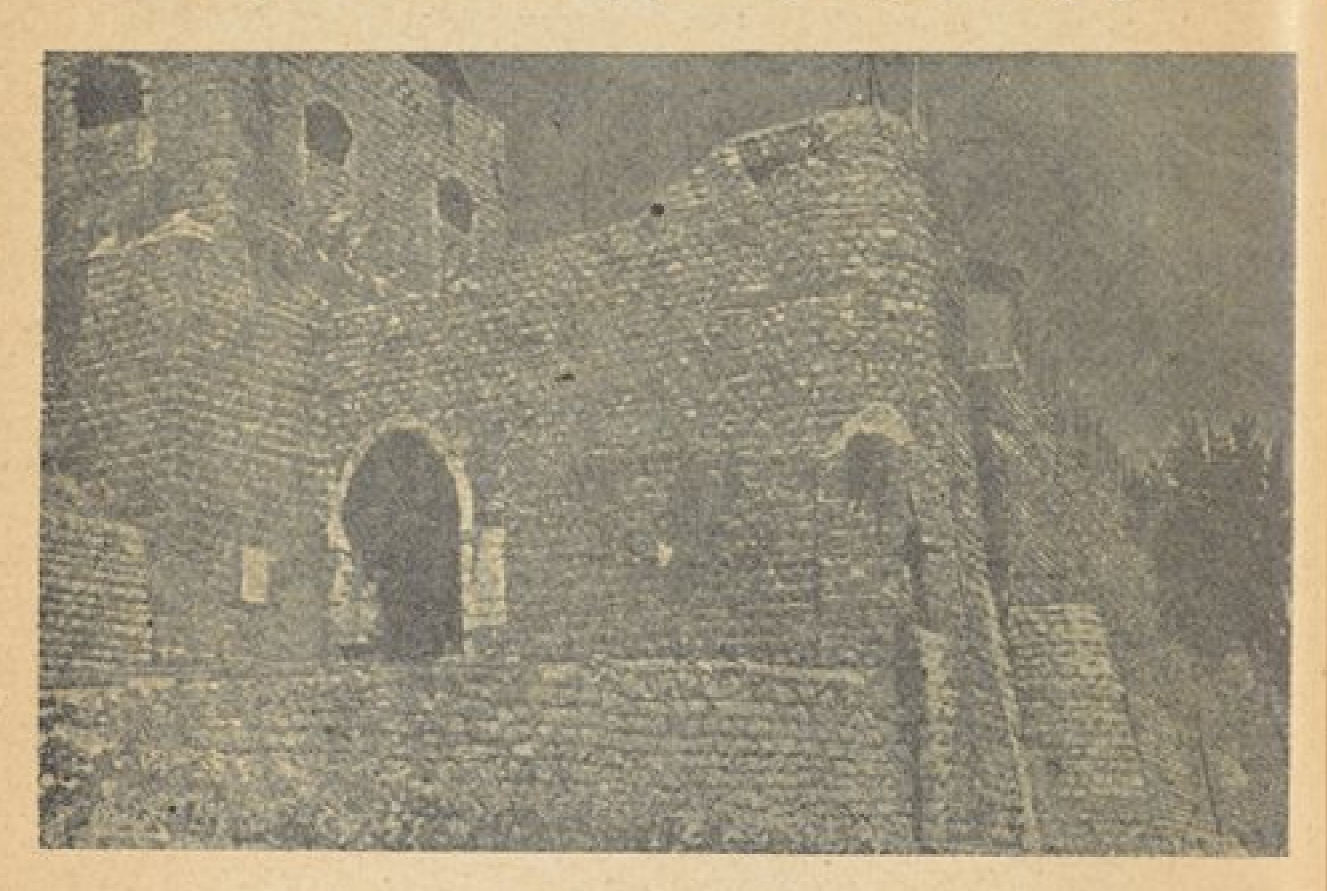
لم يرض الفرنسيون عن تعديل الدستور على تلك الصورة ، وحاولوا بمختلف وسائل الضغط ان يحملوا الحكومة اللبنانية على ان تتراجع عن رأيها أو أن تتمهل ، على الأقل ، في تقديم مشروع التعديــل الى المجلس ولكن الحكومة لم تأخذ بوجهــة النظر الفرنسية ، فعقـد المجلس جلسة تاريخية في الثامن من تشرين الثـاني سنة ١٩٤٣ وأقر التعديـل الذي اقترحته الحكومة .



رياض الصلح

استاء الفرنسيون من تصرف الحكومة اللبنانية وصمموا على معاقبة اركانها والمحرضين السياسيين على تعديل الدستور . وفي

فجر اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني ارسلوا جنودهم فاعتقلوا رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري ، ورئيس الوزراء رياض الصلح ، والوزراء كميل شمعون وسليم تقلا وعادل عسيران ، والنائب عبد الحميد كرامي ، ووضعوهم في قلعة راشيا . فهاج اللبنانيون ، واضربت البلاد احتجاجاً ، وسارت المظـــاهرات



قلعة راشيا

الصاخبة في الشوارع تطالب باطلاق سراح المعتقلين . وشكـّل الذين ظلوا طلقاء من اعضاء الحكومة حكومةً موقتة في بيروت ما لبثت أن انتقلت الى بشامون لتنظيم الدفاع عن الاستقلال .

جرب الفرنسيون ان يؤلفوا حكومة موالية لهم ولكنهم لم يفلحوا لان الوطنيين رفضوا التعاون معهم . فاستخدموا القوة المسلحة لارغام اللبنانيين على الرضوخ والسكوت ، فوقعت بين الفريقين بعض الاشتباكات التي سقط فيها عدد من الشهداء .

استنكرت الدول العربية الشقيقة العمل الفرنسي واعلنت بلهجة شديدة عطفها على اللبنانيين وتأييدها المطلق لقضيتهم ، وهدد بعضها باتخاذ تدابير ثأرية ضد الفرنسيين . وتأزمت الحالة كثيراً بسبب تصلب الجانبين واوشكت الاضطرابات ان تمتد الى بعض البلدان المجاورة .

عند ذلك تدخلت الدول الحليفة الكبرى لفض النزاع ، واقنعت الفرنسيين بضرورة اطلاق سراح المعتقلين والاعتراف باستقلال الدولة اللبنانية وسيادتها دون قيد او شرط . فاقتنع الفرنسيون اخيراً ، وعادت الحكومة الشرعية من راشيا الى ممارسة اعمالها في الثاني والعشرين من الشهر نفسه . فكان ذلك اليوم يوم سرور وابتهاج . وهو اليوم الذي يحتفل فيه اللبنانيون حكومة وشعباً بعيد الاستقلال .

وابتدأت الحكومة اللبنانية بعد ذلك تتسلم من الفرنسيين المصالح والدوائر المختلفة كالجمارك ، والتلفون ، ومحطة الاذاعة ، والجيش وغيرها . كما انها غيرت العلم اللبناني القديم واستبدلت به العلم الحالي . وفي نهاية عام ١٩٤٦ كان دور التسليم قد انتهى وجلا آخر جندي اجنبي عن الاراضي اللبنانية ، فتحقق بذلك الاستقلال الذي طالما سعى اليه اللبنانيون .

٣ـ نتائج الاستقلال

يتمتع لبنان في الوقت الحاضر باستقلال كامل حقيقي . فقد تخلص من الانتداب ، وتحرر من كل سيطرة أجنبية ، واصبح سيداً حراً مستقلاً منذ سنة ١٩٤٣ . وهو الآن غير مقيد بمعاهدات عسكرية او مرتبط باتفاقات سياسية من شأنها الانتقاص من سيادته واستقلاله . وترتكز سياسته الخارجية على الحياد ومعاملة جميع الدول الاجنبية بالمثل دون تمييز او محاباة .

ولكن سياسة الحياد هذه لا تعني ان لبنان يحب العزلة وينفر من التعاون في الحقل الدولي من اجل توطيد اركان السلم العالمي وتقدم المدنية ونشر الحضارة . فقد اشترك في تأسيس جامعة الدول العربية ، وانضم الى منظمة الامم المتحدة وساهم في اعمالها بمنتهى النشاط والاخلاص .

ويعترف ميثاق كل من هاتين الهيئتين الدوليتين باستقلال الدول الموقعة عليه استقلالاً كاملاً ناجزاً ، وينفي حق الاحتلال العسكري او الامتيازات الاجنبية في بلد من البلدان دون موافقة ذلك البلد .

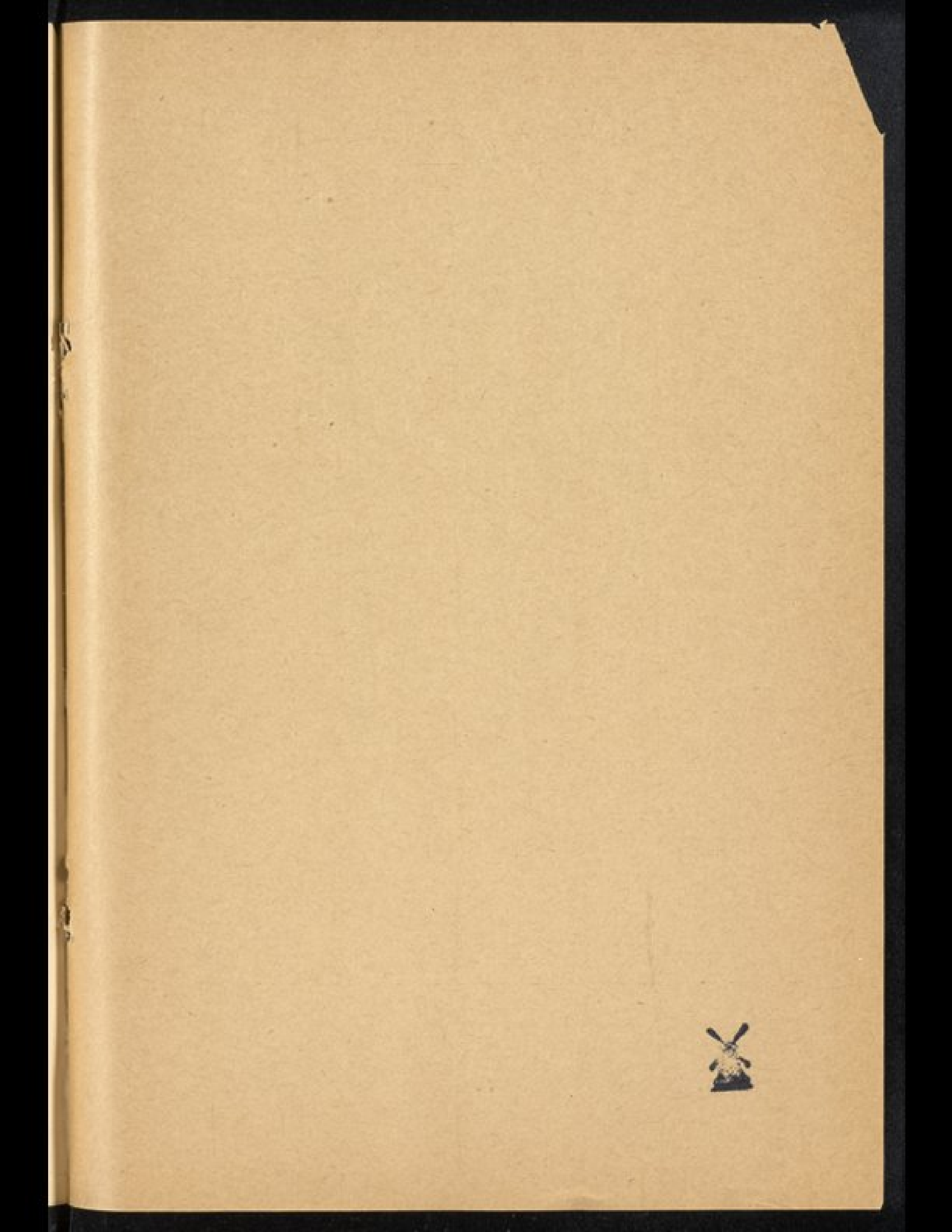
بهذا أصبح لبنان عضواً في اسرة الدول العربية وفي اسرة الامم المتحدة ، على اساس المساواة التامة والسيادة القومية ، وصار يتمتع باستقلال يحميه القانون الدولي وتحميه الدول العربية والأمم المتحدة .

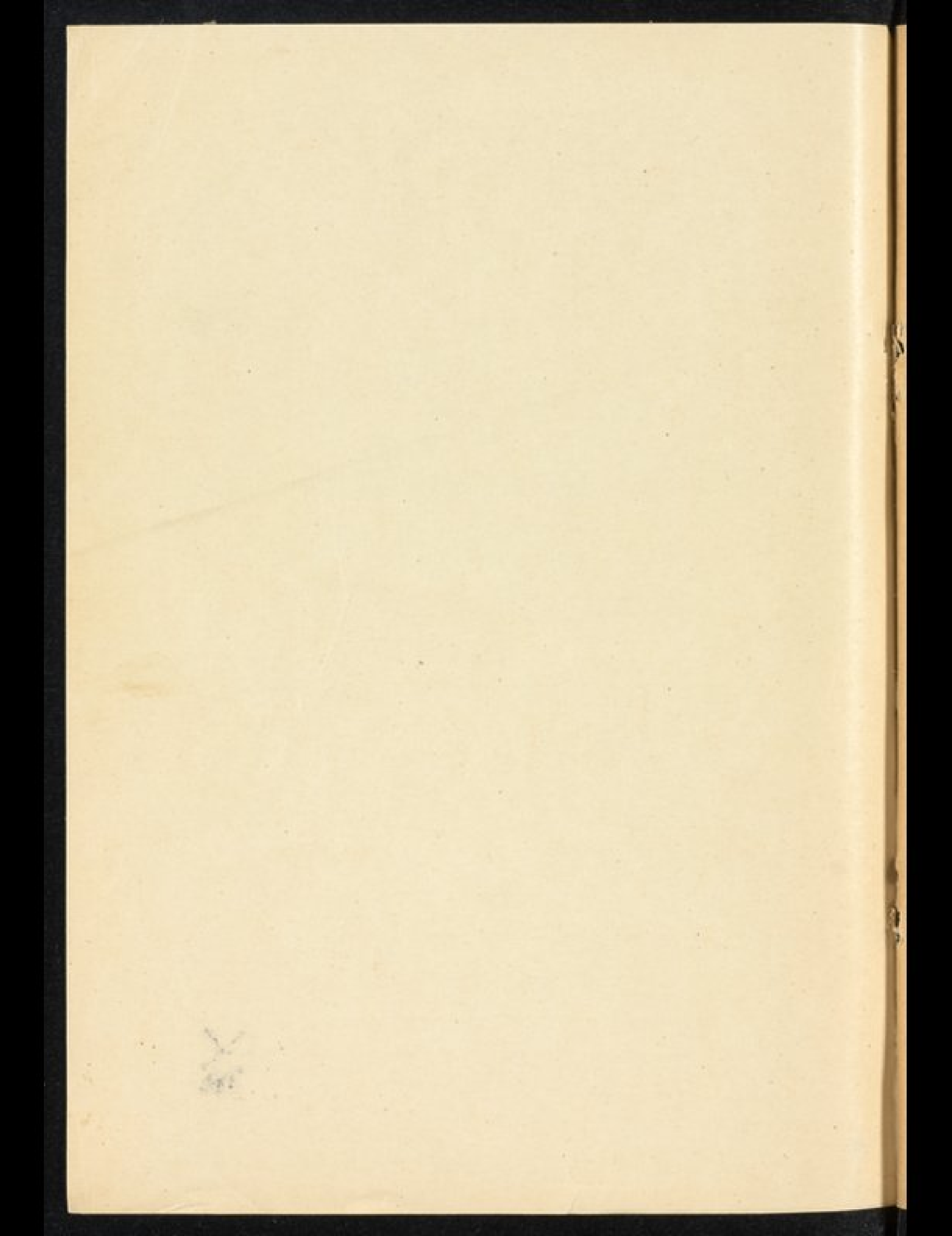
فهرست

•

القسم الاول : التاريخ العالمي

القسم الثاني : لبنان في العصر الحديث





المصور في تاريخ لبنان

- سلسلة كتب مدرسية في التاريخ لم يُسبق الى مثلها من قبل.
- تمتاز بطريقتها الجديدة في التأليف والأخراج ، ولوحاتها الفنية الملونة النابضة بالحياة .
- تُسهل مهمة المدرّس ، وتحبب الى التلميذ تاريخ بلاده .
- تقدم الى الجيل الطالع قصة لبنان خلال العصور ، معروضة عرضاً مشوّقاً جذّاباً هو اشبه ما يكون بشريط سينمائي .

●

الجزء الاول : صور تاريخية .
« الثاني : قصص واساطير .
« الثالث : لبنان من اقدم عصوره حتى آخر العهد البيزنطي وأهم حوادث التاريخ العالمي .
« الرابع : لبنان من الفتح العربي حتى الآن .
« الخامس : الفينيقيون والدول القديمة التي كانت على علاقة مع لبنان .
« السادس : الممالك الشرقية والغربية في القرون الوسطى مع دراسة مفصلة عن لبنان في هذا العهد .
« السابع : العالم في مطلع العصور الحديثة (مع دراسة مفصلة عن لبنان)
« الثامن : العالم في العصر الحديث (مع دراسة مفصلة عن لبنان)
« التاسع : لبنان في العصور القديمة والوسطى (مع دراسة عن اكتشاف اميركا والنهضة والاصلاح في اوروبة)

